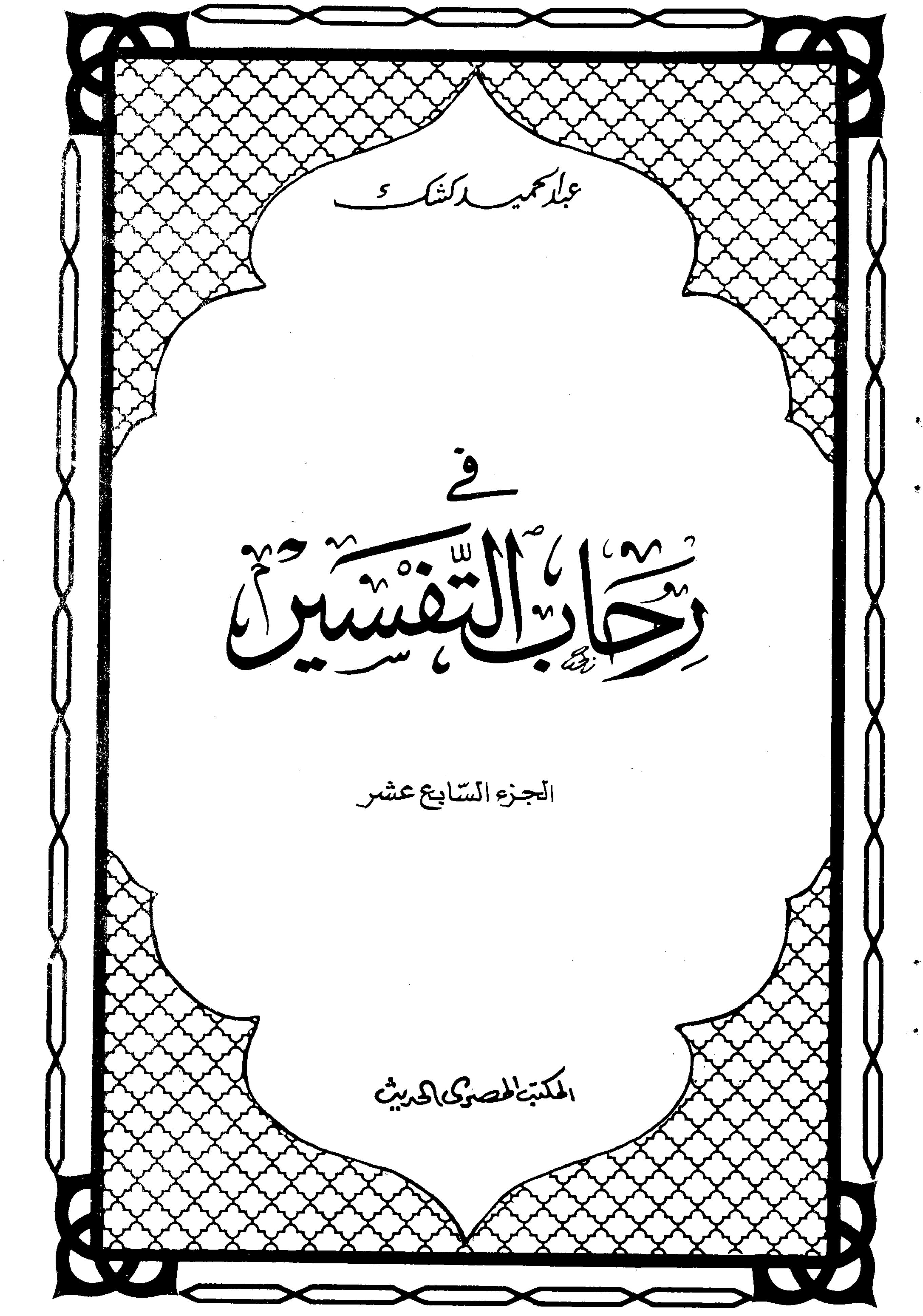


عبد الحميد كشك

# في رحاب التفسير

الجزء السابع عشر

المكتب المصري الحديث

# سورة الأنبياء

قال صاحب البصائر :

الصورة مكية بالاتفاق .

وآياتها مائة واثنتا عشرة .

وكلماتها ألف ومائة وثمانية وستون .

وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون .

وسميت سورة الأنبياء لاشتمالها على قصصهم ، على إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وسليمان ، وداود ، وأيوب ، وإسماعيل ، وصالح ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى .

## مقصود السورة

ما اشتملت عليه مجملا من التنبيه على الحساب فى القيامة ، وقرب زمانها ، ووصف الكفار بالغفلة ، وإثبات النبوة ، واستيلاء أهل الحق على أهل الضلالة ، وحجة الوحدانية ، والإخبار عن الملائكة وطاعتهم ، وتخليق الله السموات والأرض بكمال قدرته ، وسير الكواكب ، ودور الفلك ، والإخبار عن موت الخلائق وفنائهم وكلاء الله تعالى وحفظه العبد من الآفات ، وذكر ميزان العدل فى القيامة .

وذكر إبراهيم بالرشد والهداية ، وإنكاره على الأصنام وعبادها ، وسلامة إبراهيم من نار نمرود وإيقادها .

ونجاة لوط من قومه أولى العدوان .

ونجاة نوح ومتابعته من الطوفان .

وحكم داود ، وفهم سليمان ، وذكر تسخير الشيطان .

وتضرع أيوب .

ودعاء يونس .

وسؤال زكريا .

وصلاح مريم .

وهلاك قرى أفرطوا فى الطغيان ، وفتح سد يأجوج ومأجوج فى آخر الزمان ، وذل الكفار والأوثان فى دخول النيران ، وعز أهل الطاعة والإيمان من الأزل إلى الأبد فى جميع الأزمان على علالى الجنان ، وطى السموات فى ساعة القيامة .

وذكر الأمم الماضية ، والمنزلة من الكتب فى سالف الأزمان ، وإرسال المصطفى ﷺ بالرأفة والرحمة والإحسان ، وتبليغ الرسالة على حكم السوية من غير نقصان ورجحان ، وطلب حكم الله تعالى على وفق الحق والحكمة فى قوله: ﴿ رب احكم بالحق وربنا الرحمن ﴾ .

## المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ وفى الشعراء ﴿ من ذكر من الرحمن محدث ﴾

خصت هذه السورة بقوله: ﴿ من ربهم ﴾ بالإضافة ، لأن ( الرحمن ) لم يأت مضافا ، ولموافقة ما بعده ، وهو قوله : ﴿ قل ربى يعلم ﴾ .

وخصت الشعراء بقوله: ﴿ من الرحمن ﴾ ليكون كل سورة مخصوصة بوصف من أوصافه . وليس فى أوصاف الله تعالى اسم أشبه باسم الله من الرحمن ، لأنهما اسمان ممنوعان أن يسمى بهما غير الله - عزَّ وجلَّ- ولموافقة ما بعده ، وهو قوله: ﴿ العزيز الرحيم ﴾ ، لأن الرحمن والرحيم من مصدر واحد .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً ﴾ وبعده ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ :

﴿ قبلك ﴾ و ﴿ من قبلك ﴾ كلاهما لاستيعاب الزمن المتقدم ، إلا أن لفظ( من ) إذا دخل دلَّ على الحصر بين الحدَّين ، وضبطه بذكر الطرفين . ولم يأت ( وما أرسلنا قبلك ) إلا هذه .

وخصَّت بالحذف لأن قبلها ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾ فبناه عليه لأنه هو ، وآخر فى الفرقان ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ﴾ وزاد فى الثانى ﴿ من قبلك من رسول ﴾ على الأصل للحصر .

قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ، وفى العنكبوت : ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾ .

لأن ثمَّ للتراخى ، والرجوع هو الرجوع إلى الجنة أو النار ، وذلك فى القيامة ، فخُصَّت سورة العنكبوت به . وخُصَّت هذه السورة بالواو ، لمَّا حيل بين الكلامين بقوله: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ﴾ وإنما ذُكِرا لتقدم ذكرهما ، فقام مقام التراخى ، وناب الواو منابه ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ وفى الفرقان : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ لأنه ليس فى الآية التى تقدمتها ذكر الكفَّار ، فصرّح باسمهم ، وفى الفرقان قد سبق ذكر الكفار ، فخُصَّ الإظهار بهذه السورة ، والكناية بتلك .

قوله تعالى : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا ﴾ وفى الشعراء : ﴿ قالوا بل وجدنا ﴾ لأن قوله : ﴿ وجدنا آباءنا ﴾ جواب لقوله : ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ وفى الشعراء أجابوا عن قوله : ﴿ ما تعبدون ﴾ بقولهم : ﴿ قالوا نعبد أصناما ﴾ .

ثم قال لهم : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ فأتى بصورة الاستفهام ومعناه النفى ﴿ قالوا بل وجدنا ﴾ أى: قالوا لا بل وجدنا عليه آباءنا ، لأن السؤال فى الآية يقتضى فى جوابهم أن ينفوا ما نفاه السائل فأضربوا عنه إضراب من ينفى الأول ، ويثبت الثانى ، فقالوا : ﴿ بل وجدنا ﴾ فخصت السورة به .

قوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ وفى الصافات ﴿ الأسفلين ﴾ لأن فى هذه السورة كادهم إبراهيم لقوله : ﴿ لأكيدن أصنامكم ﴾ وهم كادوا إبراهيم لقوله : ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ فجرت بينهم مكايدة ، فغلبهم إبراهيم ، لأنه كسر أصنامهم ، ولم يغلبوه ، لأنهم لم يبلغوا من إحراق مرادهم ، فكانوا هم الأخسرين .

وفى الصافات ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ ، فأجّجوا ناراً عظيمة ، وبنوا بنيانا عاليا ، ورفعوه إليه ، ورموه منه إلى أسفل ، فرفعه الله ، وجعلهم فى الدنيا سافلين ، وردَّهم فى العقبى أسفل سافلين . فخُصت والصافات بالأسفلين .

قوله تعالى : ﴿ فنجيناه ﴾ بالفاء سبق فى يونس . ومثله فى الشعراء ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين ﴾(١) .

قوله : ﴿ وأيوب إذ نادى ربّه ﴾ ختم القصة بقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ . وقال فى صّ ﴿ رحمة منا ﴾ لأنه بالغ فى التضرع بقوله: ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ . فبالغ سبحانه فى الإجابة ، وقال: ﴿ رحمة من عندنا ﴾ لأن ﴿ عند ﴾ حيث جاء دلَّ على أن الله-سبحانه تولى ذلك من غير واسطة ، وفى صّ لما بدأ القصة بقوله: ﴿ واذكر عبدنا ﴾ ختم بقوله: ﴿ منًا ﴾ ليكون آخر الآية ملتئماً بالأول .

قوله تعالى : ﴿ فاعبدون وتقطعوا ﴾ وفى المؤمنين ﴿ فاتقون فتقطعوا ﴾ لأن الخطاب فى هذه السورة للكفار ، فأمرهم بالعبادة التى هى التوحيد ، ثم قال : ﴿ وتَقطعوا ﴾ بالواو ، لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم ، ومن جعله خطابا للمؤمنين ، فمعناه : دُوموا على الطاعة . وفى المؤمنين الخطاب للنبى ﷺ وللمؤمنين بدليل قوله قبله: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى . ثم قال : ﴿ فتقطعوا أمرهم ﴾ أى: ظهر منهم التقطُع بعد هذا القول والمراد أمتهم .

قوله تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها ﴾ وفى التحريم ﴿ فيه ﴾ لأن المقصود هنا ذكرها وما آل إليه أمرها ، حتى ظهر فيها ابنها ، وصارت هى وابنها آية . وذلك لا يكون إلا بالنفخ فى جملتها ، وبحملها ، والاستمرار على ذلك إلى يوم ولادتها ، فلهذا خُصّت بالتأنيث ، وما فى التحريم مقصور على ذكر إحصانها ، وتصديقها بكلمات ربها ، وكان النفخ أصاب فرجها ، وهو مذكّر ، والمراد به فرج الحَبْبِ أو غيره ، فخُصّت بالتذكير .

(١) الآيتان ١٧٠ ، ١٧١ من سورة الشعراء .

وقد ورد فى فضل هذه السورة ما رواه البخارى عن عبد الله قال : ( بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى ) .

وعن عامر بن ربيعة : أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : إنى استقطعت رسول الله واديا ما فى ديار العرب واد أفضل وقد أردت أن أقطع إليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لى فى قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا يريد هذه السورة .

## مناسبتها لما قبلها

إن السورة السالفة ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التى جعلها الله لهم فتنة ، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها ، وأمره بالصلاة والصبر عليها ، وأن العاقبة للمتقين ، وبدأت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة ، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب ، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون وقلوبهم لاهية عنه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

### المفردات

﴿ اقترب ﴾ : وقرب بمعنى والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه : وهو مجىء الساعة .

﴿ والناس ﴾ : هم المكلفون .

﴿ معرضون ﴾ : أى: عن التأهب لهذا اليوم .

﴿ من ذكر ﴾ : أى: قرآن .

﴿ محدَث ﴾ : أى: جديد إنزاله .

﴿ يلعبون ﴾ : أى: يسخرون ويستهزئون .
﴿ لاهية قلوبهم ﴾ : أى: غافلة قلوبهم عن ذكر الله .
﴿ النجوى ﴾ : التناجى والمراد أنهم أخفوا تناجيهم ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم .
﴿ أضغاث أحلام ﴾ : أى: تخاليط أحلام رآها فى النوم .
﴿ افتراه ﴾ : اختلقه من تلقاء نفسه .
﴿ بل ﴾ : كلمة تذكر للانتقال من غرض إلى آخر ولا تذكر فى القرآن إلا على هذا الوجه ، كما قال ابن مالك : وسبقه إليه صاحب الوسيط ، ووافقه ابن الحاجب ، وهو الحق .

قوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[1] وكقوله جل شأنه: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[2] .

وما من شك فى أن كل آت قريب كما قال تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيدا * ونراه قريباً ﴾[3] وكما قال جل شأنه : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾[4] .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيدُ
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيدُ
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيدُ

قوله تعالى : ﴿ وهم فى غفلة معرضون ﴾ :

قال النسائى بسنده عن أبى سعيد عن النبى ﷺ ( فى غفلة معرضون ) قال : ( فى الدنيا ) .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانىء أبى نواس الشاعر أنه قال : أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناس فى غفلاتهم ... ورحى المنية تطحن

فقيل له من أين أخذ هذا ؟ قال من قول الله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ .

ويرحم الله من قال :

نموت وأيامنا تذهب ... ونلعب والموتُ لا يلعبُ
عَجبت لذى لعب قد لهى ... عجبت ومالى لا أعجبُ
أيلهو ويلعبُ من نفسه ... يموتُ ومنزلُه يخربُ
أرى الليل يطلبنا والنهار ... وما أدرى أيهما أطلبُ
أحاط الجديدان جمعاً بنا ... وليس لنا منهما مهربُ
وكلٌّ له مدةٌ تنقضى ... وكلٌّ له أثرٌ يكتبُ

(١) الآية الأولى من سورة النحل .
(٢) الآية الأولى من سورة القمر .
(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة المعارج .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النبأ .

قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ .

وهذه صورة من صور إعراضهم وغفلتهم عن ذكر الله : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم ﴾ جديد إنزاله إلا استمعوه فى لهو وفى لعب ، فذرهم فى خوضهم يلعبون ، وفى طغيانهم يعمهون ، وفى ريبهم يترددون .

﴿ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[1] وصدق الله إذ يقول : ﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[2] .

قال ابن عباس : مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله ، تقرءونه محصناً لم يُشب .

قوله تعالى : ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ أى:غافلة عن ذكر الله-تعالى-وتدبير آياته ، قال جل شأنه : ﴿ حـمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أى:قائلين فيما بينهم خفية : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ ، يستبعدون كونه نبيا ، لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحى دونهم ، ولهذا قال : ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ أى:أفتتبعونه فتكونون كمن يأتى السحر وهو يعلم أنه سحر .

قال تعالى مجيبا لهم عما افتروه ، واختلقوه من الكذب : ﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ﴾ أى:الذى يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين ، الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

وقوله : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أى:السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفى هذا تهديد لهم ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ :

وهذه صورة من صور افتراءاتهم على الكتاب العزيز ، قالوا إنه أضغاث أحلام ، أى:أخلاط من الأحلام التى يراها فى المنام لا حقيقة لها ، وقالوا : بل إن هذا القرآن مفترى ومختلق ، كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾[4] .

---

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

(٣) الآيات ١ ـ ٥ من سورة فصلت .

(٤) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة الفرقان .

وكما قال جل شأنه : ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾[2] .

وقالوا عن رسول الله ﷺ إنه شاعر ، فرد عليهم الله تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * ومالا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وماهو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾[3] .

وازدادوا طغيانا على طغيانهم فقالوا : ﴿ **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ أى: كناقة صالح ، وعصا موسى .

فرد الله عليهم مولانا تبارك اسمه بقوله : ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها** ﴾ أى: أن القرى التى أهلكناها لما عتت عن أمر ربها ورسله ، قد جاءتهم أنبياؤهم بالآيات والمعجزات . فكذبوا واستكبروا .

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾[5] .

وقال جل شأنه : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[6] . أفهم يؤمنون .

﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾[7] .

لقد رأوا القمر وقد انشق ، فماذا قالوا ؟ يقول جل شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ۝ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[8] .

إنهم وقفوا موقف العناد ، شأنهم كشأن الأمم السابقة .

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر

---

(١) الآية ٨ من سورة الأحقاف .
(٢) الآيات ١٥ـ١٧ من سورة يونس .
(٣) الآيات ٣٨ ـ ٥٢ من سورة الحاقة .
(٤) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٥) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٦) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٧) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة القمر .
(٨) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .

الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾[١] .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً * ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[٢] .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾[٣] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن على بن رباح اللخمى قال : حدثنى من شهد عبادة بن الصامت يقول : ( كنا فى المسجد ومعنا أبو بكر الصديق-رضى الله عنه-يقرأ بعض القرآن ، فجاء عبد الله بن أبى ابن سلول ومعه نمرقه وزبية ، فوضع واتكأ ، وكان صبيحاً فصيحا جدلاً ، فقال : يا أبا بكر قل لمحمد : يأتينا بآية كما جاء الأولون ؟ جاء موسى بالألواح ، وجاء داود بالزبور ، وجاء صالح بالناقة ، وجاء عيسى بالإنجيل والمائدة . فبكى أبو بكر الصديق-رضى الله عنه-

فخرج رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : قوموا بنا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق . فقال رسول الله ﷺ : ( إنه لا يقام لى إنما يقام لله-عز وجل-) . فقلنا : يا رسول الله إنا لقينا من هذا المنافق . فقال : ( إن جبريل قال لى اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك ، وفضيلته التى فضلت بها ، فبشرنى أنى بعثت إلى الأحمر والأسود ، وأمرنى أن أنذر الجن ، وآتانى كتابه ، وأنا أمى ، وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر ، وذكر اسمى فى الأذان ، وأمدنى بالملائكة ، وآتانى النصر ، وجعل الرعب أمامى ، وآتانى الكوثر ، وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة ، ووعدنى المقام المحمود ، والناس مهطعون مقنعون رءوسهم ، وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس ، وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفا من أمتى بغير حساب ، وآتانى السلطان والملك ، وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم ، فليس فوقى إلا الملائكة الذين يحملون العرش ، وأحل لى ولأمتى الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلنا ) .

---

(١) الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء .
(٢) الآيات ٩٤-٩٧ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .

# الرسل والأمم

قال تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾
وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ
فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾
فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ
حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن
نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا
هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ
هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾
* وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

# تفسير المفردات

**أهل الذكر** : هم أهل الكتاب الذين آمنوا .
**الجسد** : كالجسم إلا أنه لا يقال لغير الإنسان .
**خالدين** : أى: باقين .
**الوعد** : هو نصرهم وإهلاك أعدائهم .
**المسرفين** : أى: الكافرين .
**ذكركم** : أى: عظتكم .
**تعقلون** : أى: تتدبرون ما فى تضاعيفه من العبر والمواعظ .
**كم** : لفظ يفيد تكثير وقوعَ ما بعدها .
**القصم** : هو الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها .
**والإحساس** : الإدراك بالحساسة . أى: أدركوا بحاسة البصر عذابنا الشديد .
**والبأس** : الشدة .
**والركض** : الفرار والهرب ، يقال ركض الرجل الفرس برجليه إذا كده بساقيه ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا ، ومنه ﴿ اركض برجلك ﴾[1] .
**والإتراف** : إبطار النعمة يقال أترف فلان أى: وسع عليه فى معاشه وقلّ فيه همه .
**يا ويلنا** : أى: يا هلاكنا .
**دعواهم** : أى: دعوتهم التى يرددونها .
**حصيدا** : أى: كالزرع المحصود بالمناجل .
**خامدين** : أى: كالنار التى خمدت وانطفأت .
**اللعب** : الفعل لا يقصد به مقصد صحيح .
**واللهو** : الفعل يعمل ترويحا عن النفس ، ومن ثم تسمى المرأة والولد لهواً يُستَرَوحُ بكل منهما ويقال لامرأة الرجل وولده ريحانتاه .
**من لدنا** : أى: من عندنا .
**القذف** : الرمى البعيد .
**وأصل الدمغ** : كسر الشىء الرِّخو ، ويراد به هنا القهر والإهلاك .
**زاهق** : أى: زائل ذاهب .
**الويل** : الهلاك .
**من عنده** : هم الملائكة .
**لا يستكبرون** : أى: لا يتعظمون .
**يستحسرون** : أى: يكيلون ويتعبون يقال خسر البعير إذا أعيا وكَل ، ومثل استحسر وتحسر .

---
(١) الآية ٤٢ من سورة ص .

**لا يفترون** : أى: لا يضعفون ولا يتراخون .

**ينشرون** : من أنشره . أى: أحياه .

**لفسدتا** : أى: لخرجنا عن نظامهما وخربتا .

**فسبحان الله** : أى: تنزيها له عما وصفوه به .

**هذا ذكر من معى** : أى: هذا الوحى المتضمن للتوحيد عظة أمتى .

**وذكر من قبلى** : أى: موعظتهم وإرشادهم .

**لا يسبقونه بالقول** : أى: لا يتكلمون حتى يأمرهم .

**مكرمون** : أى: مقربون من عنده .

**من خشيته** : أى: بسبب خوف عذابه .

**مشفقون** : أى: حذرون .

**الرتق** : الضم والالتحام خلقه كان أو صنعه .

**والفتق** : الفصل بين الشيئين الملتصقين .

**الرواسى** : الثوابت واحدها راسية .

**وتميد** : تتحرك وتضطرب .

**والفجاج** : واحدها فج ، وهو شقة يكتنفها جبلان .

**والسبل** : واحدها سبيل : وهو الطريق الواسع .

**والفلك** : كل شىء دائر ، وجمعه أفلاك .

**الخلد** : الخلود والبقاء .

**الذوق** : هنا الإدراك ، والمراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة ، والمدرك لذلك هى النفس المفارقة التى تدرك مفارقتها للبدن .

**ونبلوكم** : أى: نختبركم والمراد نعاملكم معاملة من يختبركم .

**بالخير والشر** : أى: المحبوب والمكروه .

**فتنة** : أى: ابتلاء .

**إن يتخذونك إلا هزوا** : أى: ما يتخذونك إلا مهزوءا به مسخورا منه .

**العجلة والعجلة** : طلب الشىء قبل أوانه ، والمراد بالإنسان : هذا النوع وقد جُعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العجل مبالغة كما يقال للرجل الذكى هو نار تشتعل ، ويقال لمن يكثر منه الكرم : فلان خلق من الكرم .

**قال المبرد** : خلق الإنسان من عجل : أى إن من شأنه العجلة كقوله : ﴿ خلقكم من ضعف ﴾[1] أى: خلقكم ضعفاء .

**والآيات** : هى آيات النقم التى هددهم بوقوعها .

**وإراءتهم إياها** : أصابتهم بها . والمراد بالوعد قيام الساعة .

(١) الآية ٥٤ من سورة الروم .

**لا يكفون** : أى: لا يمنعون .

**بغتة** : أى: فجأة .

**تبهتهم** : أى: تدهشهم ، وتحيرهم .

**ينظرون** : أى: يمهلون ويؤخرون .

**حاق** : حل ونزل .

**يكلؤكم** : يحرسكم ويحفظكم قاله ابن عباس .

**من الرحمن** : أى: من بأسه وعقابه الذى تستحقونه .

**من دوننا** : أى: من غيرنا .

**يصحبون** : أى: يجارون من عذابنا ؛ تقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان ، أى: ومجير منه واختاره الطبرى .

**نفحة** : أى: قسط ونصيب ضئيل .

**حبة الخردل** : مثل فى الصغر .

**حاسبين** : أى: عادِّين مُحصين .

## المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه فيما سلف من إنكار الكافرين لأن يكون الرسول بشرا بقولهم: **﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾** أجاب عن هذه الشبهة بأن هذه سنة الله فى الرسل قبل محمد ﷺ ، فهو ليس ببدع بينهم ، وإن كنتم فى ريب من ذلك ، فاسألوا أهل الكتاب من قبلكم .

ثم ذكر أن الرسل كسائر البشر فى سنن الطبيعة البشرية ، يأكلون الطعام ، ولا يخلدون فى الأرض ، بل يموتون كما يموت سائر الناس ، وقد صدقهم الله وعده ، فينجّيهم ومن آمن بهم ، ويهلك المكذبين لهم ، وأعقب ذلك بأن فى القرآن عظة لهم لو كانوا يعقلون ما فى تضاعيفه من مواعظ وزواجر ، ووعد ووعيد .

وبعد أن ذكر أنه سبحانه أهلك المسرفين فى كفرهم بالله ، بيّن هنا طريق إهلاكهم ، وكثرة ما حدث من ذلك فى كثير من الأمم ، ثم بيّن أنه أنشأ بعد الهالكين قوما آخرين ، وأنهم حينما أحسّوا بأس الله فروا هاربين ، فقيل لهم على ضرب من التهكم والسخرية: فلترجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم ، وإلى تلك المساكن المشيدة ، والفرش المنجّدة ، فلعلكم تسألون عما جرى عليكم ، ونزل بأموالكم ومنازلكم ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، ثم بعد أن يئسوا من الخلاص وأيقنوا بالعذاب قالوا : هلاكا لنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين العذاب بما قدمنا ، وما زالوا يكررون هذه الكلمة ويرددونها ، حتى صاروا كالنبات المحصود ، والنار الخامدة .

وبعد أن ذكر مطاعنهم فى نبوة محمد ﷺ بتلك المقالات التى سلف ذكرها ، قفىّ على ذلك بذكر فساد تلك المطاعن ، وبيان أن من أنكر نبوته فقد جعل تلك المعجزات التى ظهرت على يديه من

باب العبث واللعب ، تنزه ربنا عن ذلك ، فإنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما إلا لعبادته ومعرفته ، ومجازاة من قام بهما بالثواب والنعيم ، ومن لم يقم بذلك بالعقاب الأليم ، ولن يتم علم هذا إلا بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل-صلوات الله عليهم ـ فمنكر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لهوا ولعبا ، تعالى خالقهما علوًا كبيراً .

وبعد أن أبان سبحانه فى سابق الآيات أن كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها قد أبيدت ، وأنشىء بعدها أقوام آخرون ، وأنهم حين أحسوا بالبأس ارعووا وندموا حيث لا ينفع الندم ، ثم أردف ذلك بذكر أن من فى السموات والأرض عبيده ، وأن الملائكة لا يتكبرون عن عبادته ، ولا يكلّون ولا يملون منها ، ذكر هنا أنه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل فعلوا ضده ، فكانوا جديرين بالتوبيخ والتعنيف .

ثم أقام البرهان على وحدانيته ، وأنه لو كان فى السموات والأرض إلهان لهلك من فيهما ، تنزه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون ، وقد كذب من اتخذ آلهة لا دليل عليها ، وأن جميع الأديان جاءت بإخلاص التوحيد ، كما كذب من جعل لله ولدا فقال : الملائكة بنات الله ، والملائكة خلق الله ، مطيعون لربهم ، لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خوفه حذرون ، ومن يقل منهم إنه إله فلا جزاء له إلا جهنم وهى جزاء كل ظالم .

وبعد أن حكى سبحانه مقالات أولئك المشركين ، ومقالات أولئك الذين قالوا اتخذ الله ولدا من الملائكة ، وطالبهم بالدليل على صدق ما يدّعون ، وبين لهم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك لا من طريق العقل كما هو واضح ، ولا من طريق النقل ، إذ كل الرسل السابقين كان أس دعوتهم أن لا إله إلا أنا فاعبدون ، قفى على ذلك بتوبيخهم على عدم تدبرهم الآيات المنصوبة فى الكون الدالة على التوحيد ، ولفت أنظارهم إلى أنه لا ينبغى عبادة الأصنام والأوثان ، فإن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات لا يعبد سواه من حجر أو شجر لا يضر ولا ينفع .

وبعد أن بين سبحانه الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر ، بما يرون من الآيات الكونية ، أردف ذلك ببيان أن هذه الدنيا ما خلقت للخلود والدوام ، ولا خلق من فيها للبقاء ، بل خلقت للابتلاء والامتحان ولتكون وسيلة إلى الآخرة التى هى دار الخلود ، فلا تشمتوا إذا مات محمد ﷺ فما هذا سبيله وحده ، بل هذا سنة الله فى الخلق أجمعين .

ثم ذكر سبحانه أنهم نعوْا على نبيه ﷺ ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء ، ورد عليهم بأنهم قد كفروا بالرحمن المنعم على عباده ، الخالق لهم ، المحيى المميت ، ولا شىء أقبح من هذا وأخلق بالذم منه .

أخرج ابن أبى حاتم عن السدى : ( أنه ﷺ مرَّ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحادثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : هذا نبى بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان وقال : أتنكر أن يكون لعبد مناف نبى ؟ فسمعهما النبى ﷺ فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه ، وقال : ما أراك منتهيا حتى

يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة ، وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حميَّة ، فنزلت الآية: ﴿ **وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾[1].

وبعد أن بين جلت قدرته أنه كلما آتى المشركين آية كفروا بها ، وكلما توعدهم بالعذاب كذبوا به ، وقالوا تهكماً وإنكاراً : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قفى على ذلك بنهيهم عن العجلة ، وبيان أن ما أوعدوا به آت لا محالة ، ثم أرشد إلى أن العجلة من طبيعة الإنسان التى جُبل عليها ، ثم ذكَّرهم بجهلهم بما يستعجلون ، فإنهم لو عرفوا كنه ما طلبوا ما دار بخلدهم ذلك المطلب .

وفى هذا تسلية لرسوله ﷺ ، كما سلاه بأن الاستهزاء به وبما أتى به ليس بدعاً من المشركين ، فكثير من الرسل قبله أوذوا واستهزىء بهم ، وكان النصر آخر الأمر حليفهم وحاق الهلاك بالمكذبين ، فانتظر لهؤلاء يوما يحل بهم فيه مثل ما حلَّ بمن قبلهم ، وقل لهم : انتظروا إنا منتظرون .

روى أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، وهو القائل: ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾[2] .

وبعد أن أبان سبحانه أن الكافرين فى الآخرة لا يستطيعون أن يمنعوا عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، وأنه سيكون لهم من الأهوال ما لم يكن يخطر لهم ببال ، أعقبه ببيان أنه لولا أن الله قدر لهم السلامة فى الدنيا ، وحرسهم إلى حين ، لما بقوا سالمين ، وأنه مع إنعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة ـ هم معرضون عن الدلائل الدالة على أنه لا حافظ لهم سواه ، وأنه قد كان ينبغى لهم أن يتركوا عبادة الأصنام التى لاحظ لها فى شىء من ذلك ، فهى لا تستطيع أن تحفظ أنفسها من الآفات ، فضلا عن منع بأس الله إن حل بهم .

ثم أردف ذلك ببيان أن الذى حملهم على الإعراض عن ذلك هو طول الأمد ، حتى نسوا العهد ، وجهلوا مواقع النعمة ، وقد كان لهم فى نقص الأرض من أطرافها ، وفتح المسلمين لها عبرة أيُّما عبرة ، فهاهم يرون محمدا ﷺ وأتباعه يفتحون البلاد والقرى حول مكة ، ويدخلونها تحت راية الإسلام ، ويقتلون الرؤساء والعشائر من المشركين ، فمن حقهم أن يفكروا فى هذا مليًا ، ويرعووا عن غيهم ، ويعلموا آثار قدرتنا . وأن جندنا هم الغالبون .

ثم قفى على ذلك ببيان أن وظيفة الرسل هى الإنذار والتبليغ ، وليس عليهم الإلزام والقبول ، فإذا كانت القلوب متحجرة ، والآذان صماء ، فماذا تجدى العظمة ، وماذا ينفع النصح . ولئن أصابهم القليل من عذاب الله لتنادوا بالويل والثبور ، واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين .

ثم قفى على ذلك ببيان أن الدار الآخرة لا ظلم فيها ولا محاباة ، فالمرء يحاسب فيها على الجليل والحقير ، فهناك تنصب موازين العدل ، ويجازى كل امرىء بما قدم من خير أو شر ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[3] .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء . (٢) الآية ٣٢ من سورة الأنفال . (٣) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

قوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ .

هو كقوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ .

وفيه رد على الذين استنكروا أن يكون الرسول من البشر : ﴿ وقالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾(١) ، وقالوا : ﴿ أبشرٌ يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾(٢) .

قال تبارك وتعالى : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾(٣) .

فالرسول إنسان من بنى آدم ، أوحى الله تعالى إليه بشرع وأمره بتبليغه ، وقد كمل الله-تعالى- الرسل بصفات الكمال البشرية ، فهم أهل الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، وقد حفظ الله-تعالى- ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأمر منهى عنه ، وتلك هى العصمة ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾(٤) .

فهم صفوة خلق الله من عباده : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أى:أهل المعرفة والحق من الذين أوتوا الكتاب من قبل ، فإنهم عندئذ سيخبرونكم بأن الله قد أرسل إلى أقوامهم رسلاً من البشر ، لا من الملائكة ، وذلك من تمام النعمة على الخلق ، إذ بعث الله فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم : ﴿ لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(٦) .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ :

هو كقوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾(٧) .

وهذا رد على الذين قالوا:﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾(٨) إنهم يأكلون الطعام كبقية البشر ، ويتزوجون ويتناسلون ، ويمشون بين الناس ، ويبيعون ويشترون ، وينامون ويستيقظون ، حتى تكون أحوالهم ملامسة لأحوال البشر ، وعلى ذكر من طباعهم .

أما الملائكة فإنهم بخلاف ذلك ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾(٩) .

(١) الآية ٩٤ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٦ من سورة التغابن .
(٣) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٤) الآية ٩٠ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٦) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .
(٧) من الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٨) من الآية ٧ من سورة الفرقان .
(٩) من الآية ٣٨ من سورة الرعد .

ولما كانوا جسداً يأكلون ويشربون ، وينامون ، فإنهم غير خالدين فى هذه الدنيا ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ :

هو كقوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾[١] .

وكقوله تعالى : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾[٢] .

وقوله جل شأنه : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٣] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ أهلكنا المسرفين ﴾ أى:المكذبين بوعدنا ووعيدنا ومعادنا ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون * وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين * فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ :

هذا قسم منه سبحانه وتعالى على إنزال هذا الكتاب العزيز ، الذى فيه ذكرهم ، والمقصود به هاهنا شرفهم ، كما قال ابن عباس قال : شرفكم .

وقال مجاهد : حديثكم .

وقال الحسن : دينكم .

فمن رغب عن هذا الكتاب فقد سفه نفسه ، وأضاع كرامته وعزته ، فوالله الذى لا إله غيره لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولرفرفت راية الإسلام على كل بلد .

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تنكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ١٠٣ من سورة يونس .
(٣) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٤) الآية ٢١ من سورة المجادلة .
(٥) الآية ٥٨ من سورة هود .
(٦) الآيات ٦٦ - ٦٨ من سورة هود .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ : الفاء هنا عاطفة على محذوف تقديره : أجننتكم فلا تعقلون . وتلك حال كل من رأى النور فأنكره ، ورأى الظلمات فسار فيها : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ﴾[١] .

إن القرآن يلقى باللائمة على هؤلاء الذين رغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، عما جاء به غيره إلى غيرهم ، فقال سبحانه : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾[٢] .

لا شرف لنا إلا بالقرآن ، ولا عزة لنا إلا فى التمسك به ، ولا كرامة لنا إلا بالعمل بما فيه ، وهل صارت الأمة غثاء كغثاء السيل ، وتداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها إلا لمّا طرحت كتاب ربها ظهريا ، وجاءت بقوانين من الشرق والغرب ، وطرحت ثياب الإسلام ، وجاءت بثوب ضم سبعين رقعة ، مشكلة الألوان مختلفات .

يا أمة الإسلام :

ألم يبعث لأمتكم نبى يوحدكم على نهج الوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعا منار للمحبة والسلام
وفوق الكل رحمن رحيم إله واحد رب الأنام

عودوا إلى كتاب ربكم .

١ ـ فقد روى عثمان بن عفان-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : ( خيركم من تعلم القرآن وعلمه )[٣] ، رواه البخارى .

أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظه ، وفهم معناه وتفسير آياته ، ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ( آلم ) حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف )[٤] . رواه الترمذى .

ومعناه أن الله-تعالى-يعطى ثوابا للقارىء بكل حرف من حروف كلماته حسنة ، وفيه فضل قراءة القرآن وكثرة حسناته وزيادة أجره .

٣ ـ وعن أبى هريرة-رضى الله عنه-أن رسول الله ﷺ قال : ( ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده )[٥] . رواه مسلم .

( ١ ) الآية ١٨ من سورة إبراهيم . ( ٢ ) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

( ٣ ) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٢١ . وأبو داود فى الوتر : ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٥ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ١٥٣ .

( ٤ ) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن : ١ .

( ٥ ) أخرجه أبو داود فى الوتر : ١٤ ، والترمذى فى القرآن : ١٠ ، وابن ماجه فى المدنية : ١٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٢ ، ٤٠٧ ، ٤٤٧ ، وفى ٣ : ٣٣ ، ٢٩ ، ٩٢ ، ٩٤ .

فقد أثنى عليهم سبحانه فى الملأ الأعلى تنويها بعلو درجتهم ، وزيادة ثوابهم وإخلاصهم لعبادة ربهم ، وذكره جل وعلا ، وفيه المكروب يقرأ القرآن ليفرج الله كربه ، والمعسور ليزيل عسره لأن ذلك أدعى للإجابة وأقرب لنزول رحمة الله .

٤ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : ( من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة )[١] . رواه أحمد عن عُبادة بن ميسرة .

٥ ـ وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : ( الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق له أجران )[٢] .

قال النووى : **السفرة** جمع سافر . والسافر : الرسول ، والسفرة : الرسل ، لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله ، وقيل: السفرة : الكتبة البررة المطيعون من البر وهو الطاعة .

**والماهر** : الحاذق الكامل الحفظ الذى لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه .

قال القاضى : يحتمل أن يكون معنى كونه من الملائكة أن له فى الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السفرة لاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله ـ تعالى .

قال : ويحتمل أنه يراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مسلكهم ، وأما الذى يتتعتع فيه فهو الذى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه فله أجران : أجر بالقراءة ، وأجر بتعتعته فى تلاوته ومشقته .

**قوله تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ :**

كم هنا تفيد التكثير فهى كم الخبرية ، وقصمنا تفيد الاستئصال بشدة ، والأخذ الذى لا يبقى ولا يذر ، والمقصود بالقرية المجتمع . قال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ۞ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٣] .

فالظلم لايدوم ، وإن دام دمر ، والظلم ظلمات يوم القيامة ومرتعه وخيم . ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[٤] ، ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[٥] ، ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٦] .

وهل يهلك الأمم إلا الذنوب التى حظر الإسلام من إتيانها .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : ( اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يارسول الله

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٤١ .
(٢) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٤٤ ، وابن ماجه فى الأدب : ٥٢ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٩٨ ، ١٧٠ ، ٢٦٦ .
(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص .
(٤) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٦) الآية ١١٧ من سورة هود .

وما هُنَّ ؟ قال : الشرك بالله،والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾(١) . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

**والسبع الموبقات** : أى:المهلكات التى تهلك أصحابها .

**والشرك** : هو أن تجعل لله مثيلاً وتأثيرا فى شفائك ، أو فى إعطاء رزقك ، أو قضاء حاجتك وهكذا ، بل الأفعال كلها لله ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾(٢) .

**والسحر** : صرف الشىء عن وجهه ، واستعمال طلاسم ، وتسخير الشياطين لأعمال دنيئة ، قال تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾(٣) .

**والتولى يوم الزحف** : أى:الهجوم على أعداء الدين .

**وقذف المحصنات** : أى:سب العفيفات الطاهرات الملازمة خدرهن الصالحات .

وعن أبى هريرة-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : ( أربع : حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ، ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم بغير حق ، والعاق لوالديه )(٤) . رواه الحاكم .

**وعقوق الوالدين** : أى:عصيانهما ومخالفة أوامرهما وعدم برهما ، وترك الإحسان إليهما ، لأنه خالف أمر الله تعالى الذى أمر : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾(٥) .

وعن ابن مسعود-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : ( بين يدى الساعة يظهر الربا ، والزنا ، والخمر ) . رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح .

وروى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( والذى نفسى بيده ليبيتن أناس من أمتى على أشر وبطر ولعب ولهو ، فيصبحوا قردة وخنازير : باستحلالهم المحارم واتخاذهم القينات وشربهم الخمر ، وبأكلهم الربا ، ولبسهم الحرير ) . رواه عبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائده .

إن رسول الله ﷺ شبه أولئك بالقردة والخنازير ، وصاروا مجردين عن كل عقل يمنعهم عن الفاحشة ، ويبعدهم عن المعصية ، ويرشدهم إلى الآداب السامية آداب الدين الإسلامى .

يا عجبا يسترسلون فى الشهوات ،ويرخون العنان لملذاتهم ، فيبيحون ما حرّم الله تبجحا وقلة أدب وسفاهة رأى ، ودناءة وحقارة ، والنتيجة تكون عاقبتهم وخيمة : ينتحرون ، ويفتقرون ويجنون ،

---

(١) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٢٣ ، وفى الحدود ، وفى الطب : ٤٨ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود فى الوصايا .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الإنسان .

(٣) الآية ٤ من سورة الفلق .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٣٢٩ .

(٥) الآية ٨٣ من سورة البقرة .

ويطردون من أعمالهم ، ويفصلون من وظائفهم لماذا ؟ لأنهم اتبعوا أهواءهم وضلوا عن سواء السبيل ، ولم يعملوا بكتاب الله وسنة نبيه .

فحذار أيها الآباء ؛ وعلموا أبناءكم تعاليم الإسلام ، واجعلوا نصب أعينكم مصائب الخروج عن الدين ، واجتنبوا محارم الله ، وغذوا أبناءكم ببيان القرآن والسنة ، واهجروا المتبرجات العاصيات المائلات المميلات ، واتركوا الخمر والربا .

ومن علامة غضب الله أن يلبس الرجل الحرير ، قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾[١] .

فأنت ترى حلم الله-جل وعلا-على أمة محمد ﷺ ، مهما أسرفوا فى المعاصى ، يسامحهم فى الدنيا ، ويؤجل عقابهم للآخرة ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ .

وقوله ﷺ :( فيصبحوا قردة وخنازير ) : أى:أن أعمالهم المنكرة تستوجب مسخ صورهم ، ولكن سبق وعد الله بالتأجيل فلا يؤخذ هم بذنوبهم فى حياتهم ، كما آخذ الأمم السابقة ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً * إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[٢] .

ومعنى نطمس : أى:نمحو تخطيط صورها ، ونجعلها على هيئة أدبارها يعنى الأقفاء ، أو ننكسها إلى ورائها فى الدنيا أو فى الآخرة ، وقيل : من قبل أن نغير وجوها فنسلب وجاهتها وإقبالها ، وننكسوها الصغار والإدبار . قاله البيضاوى .

وهذا هو الشاهد فى معنى ( فيصبحوا قردة وخنازير ) أى أن العصاة المجرمين المرتكبى الآثام يصبحون فى ذل وصغار ، وحقارة ، ودناءة ، تعلوهم المسكنة ، ويسلب الله منهم كل عز ورفعة وجاه .

وروى عن أبى أمامة-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : ( يبيت قوم من هذه الأمة على طُعم ، وشرب ولهو ولعب ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير ، وليُصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس فيتولون خسف الليلة ببنى فلان ، وخسف الليلة بدار فلان ، ولترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور،ولترسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عاداً على قبائل فيها وعلى دور بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات وأكلهم الربا ، وقطيعة الرحم . . )[٣] . الحديث رواه أحمد مختصراً واللفظ له .

والله إن ذنوبهم كثرت ، وزادت فسوقها ، فاستحقوا إرسال الريح المهلكة الشديدة التى تضر زرعهم ، وتهلك ماشيتهم ، وتهدم دورهم ، كما قال تعالى:﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾[٤] أى: كالرماد . وهو البلى والتفتت .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر

(٢) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة النساء .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٣٢٩ .

(٤) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة الذاريات .

﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[١] .

لقد استحق المسلمون عقاب الله بهذا العذاب . بسبب شرب الخمر ، وتمتعهم بالرفاهية والترف ، والإسراف بلبس الحرير ، واستحلال صحبة المغنيات الفاجرات بلا نكاح شرعى ، فيحصل اختلاط مزر مشين قبيح ، وفعل الربا ، وترك مودة الأقارب وهجرهم ، وعدم الإحسان إليهم .

فاتقوا الله عباد الله ، واعملوا صالحا ، واهجروا المعاصى ، وأكثروا من تشييد الصالحات ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، فإن الله -تعالى- أرسل محمدا ﷺ بالتعاليم الصحيحة الجالبة كل سعادة ، والمانعة من كل عذاب ، ولكن هذه المعاصى تسبب انتقام الله -جل وعلا- عاجلاً ، كما قال عز وجل : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾[٢] .

انظر إلى حال المسلمين الآن : ملأوا أصقاع المعمورة ، وكثر عددهم ، ولكن تفرقت قلوبهم ، لماذا ؟ لأن العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قليل ، والمعاصى فاشية ، والمنكرات قائمة ، والبدع منتشرة ، والفواحش مرتكبة ، والله تعالى يقول : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون * قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون * وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ : أى: بعد إهلاك أهلها كما فى قوله -جل شأنه-: ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾[٤] .

﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون ﴾ : أى: تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة ، كما وعدهم نبيهم .

﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ : أى: يفرون هاربين .

﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ : هذا تهكم بهم نزراً ، أى: قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة .

قال قتادة : استهزاء بهم .

﴿ لعلكم تسئلون ﴾ : أى: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم .

---

(١) الآيات ٤٣ - ٤٦ من سورة الذاريات .

(٢) الآية ٦٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآيات ٤٦ - ٤٨ من سورة الأنعام .

(٤) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ : اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك .

﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ : أي:ما زالت تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

إن الله-تعالى-حرّم الظلم على عباده ، كما أنه وهو الحكم العدل المقسط حرمه على نفسه .

عن أبي ذر-رضي الله عنه-عن النبي ﷺ : فيما يرويه عن ربه-عز وجل-أنه قال : ( يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُرّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلَّ واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه )[1] . رواه مسلم .

إنه لا حجة لمحتج عند الله ، فقد قطعت المعاذير ، وبرح الخفاء ، فالطريق لائح ، والحق واضح ، والمناد صائح .

قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما-قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى إلا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب )[2] .

فاحذر الظلم يا أخي ، فإن الله-تعالى-قد أقام للعباد حقوقاً ، من تجاوزها فقد ظلم نفسه .

فعن جابر-رضي الله عنه-أن رسول الله ﷺ قال : ( اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم )[3] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في البر : ٥٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان : ٣٩ ، وفي البيوع : ٢ ، ومسلم في المساقاة : ١٠٧ ، وأبو داود في البيوع : ٣ ، والترمذي في البيوع : ١ ، والنسائي في البيوع : ٢ ، وفي الأشربة : ٥٠ ، وابن ماجه في الفتن : ١٤ ، والدارمي في البيوع : ١ ، والإمام أحمد في ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ .

(٣) أخرجه مسلم في البر : ٥٦ ، ٥٧ ، والدارمي في السير : ٧٢ ، والإمام أحمد في ٢ : ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٩١ ، وفي ٣ : ٣٢٣ .

**والظلم** : الجور ووضع الشىء فى غير موضعه الشرعى ، وهو مستحيل فى حق الله-تعالى-، وكيف يجاوز سبحانه حدا وليس فوقه من يطيعه أو يرسم له عملا ، إن تجاوزه ظلم ، وكيف يتصرف فى غير ملك ، والعالم كله ملكه وسلطانه . قاله النووى .

**فلا تظالموا** : أى :لا يظلم بعضكم بعضاً .

ومعنى اجتنبوا الظلم : قال ابن الجوزى : الظلم يشتمل على معصيتين : أخذ مال الغير بغير حق ، ومبارزة الرب بالمخالفة والمعصية فيه أشد من غيرها ، لأنه لايقع غالباً إلا بالضعيف الذى لايقدر على الانتصار ، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر ، فإذا سعى المتقون بنورهم الذى حصل لهم بسبب التقوى ، اكتنفت ظلمات الظلم الظالم ، حيث لايغنى عن ظلمه شيئاً .

وعن ابن عمر-رضى الله عنهما-قال : قال رسول الله ﷺ : ( الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة ) . رواه البخارى ومسلم .

وروى عن الهرماس بن زياد-رضى الله عنه-قال : رأيت رسول الله ﷺ يخطب على ناقته ، فقال : ( إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة ، وإياكم والظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة . وإياكم والشح ، فإنما أهلك من كان قبلكم الشح حتى سفكوا دماءهم ، وقطعوا أرحامهم ) . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

واعلم بأن الظلم يمنع الخير على الظالمين . فقد روى عن ابن مسعود-رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : ( لا تظلموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستسقوا فلا تُسقوا ، وتستنصروا فلا تُنصروا ) . رواه الطبرانى .

كذلك يمنع الظلم الشفاعة يوم القيامة ، فروى عن أبى أمامة-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : ( صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلوم غشوم ، وكل غالٍ مارق ) . رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات .

وتأمل معى سمات المسلم ، وموجبات الأخوة ، فروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يقول : ( المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ويقول : والذى نفسى بيده ما توادّ اثنان فيُفرَّقُ بينهما إلا بذنب يُحدثه أحدهُما )[١] رواه أحمد بإسناد حسن .

وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾[٢] .

فعن أبى موسى-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله يُملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته )[٣] ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٤] . رواه البخارى ومسلم .

---

( ١ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٩٥ ، وابن ماجه فى الإقامة : ٦١ .
( ٢ ) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .
( ٣ ) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٣ ، ومسلم فى البر : ٥ ، والترمذى فى تفسير سورة ١١ : ٢ ، وابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .
( ٤ ) الآية ١٠٢ من سورة هود .

ومن أخطار الظلم أنه يضيع الحسنات يوم القيامة ، فروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام فى أرض العرب ، لكنه سيرضى معكم بدون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات يوم القيامة ، اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجىء بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقول يارب ظلمنى عبدك مظلمة فيقول : امحوا من حسناته ، وما يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة من الذنوب وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرّق القومُ ليحتطبوا فلم يلبثوا أن حطبوا ، فأعظموا النار ، وطبخوا ما أرادوا وكذلك الذنوب )[١] . رواه أحمد والطبرانى بإسناد حسن .

فبادر يا أخى برد المظالم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمداً بعيدا ويحذركم الله نفسه ﴾[٢] .

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[٣] .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شىء فليتحلَّله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه )[٤] رواه البخارى .

وعن أبى هريرة أيضاً رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( أتدرون ما المفلس ؟ ) قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : ( إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار )[٥] . رواه مسلم والترمذى .

وعن ابن عثمان عن سلمان الفارسى ، وسعد بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن مسعود حتى عد ستة أو سبعة من أصحاب النبى ﷺ قالوا : ( إن الرجل لترفع له يوم القيامة صحيفته حتى يرى أنه ناج ، فما تزال مظالم بنى آدم تتبعه حتى ما يبقى له حسنة ويحمل عليه من سيئاتهم ) . رواه البيهقى بإسناد جيد .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذا إلى اليمن . فقال : ( اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب )[٦] رواه البخارى ومسلم .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٦٨ ، وفى ٤ : ١٢٦ ، والترمذى فى الفتن : ٢ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧٦ .
(٢) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٤) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٠ ، وفى الهبة : ٢١ ، وفى الرقاق : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٥٠٦ .
(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٦٠ ، والترمذى فى القيامة : ٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٤ ، ٣٧٢ .
(٦) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٨٠ ، وفى الزكاة : ٦٣ ، وفى المظالم : ٩ ، ومسلم فى الإيمان : ٢٩ ، وأبو داود فى الزكاة : ٥ ، والترمذى فى الزكاة : ٦ ، والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ ، وابن ماجه فى الزكاة : ١ ، والدارمى فى الزكاة : ١ ، والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ( السحاب ) ويفتح لها أبواب السماء ويقول الربّ : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين )[١] . رواه أحمد والترمذى وحسنه .

وروى عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله : ( اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيرى ) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : ( كانت أمثالاً كلها ، أيها الملك المُسَلَّطُ المبتلى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض . ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها ، وإن كانت من كافر ) الحديث رواه الحاكم مطولاً .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ) فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : ( تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره )[٢] . رواه البخارى .

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : ( من حمى مؤمنا من منافق ـ أراه قال ـ بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم )[٣] الحديث . رواه أبو داود .

## الأدلة من كتاب الله على تحريم الظلم

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾[٤] .

أى : أبصارهم لا تقر فى أماكنها من هول ما ترى .

( **مهطعين** ) مسرعين إلى الداعى ، رافعى رءوسهم لا يطرفون ، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك الأجفان .

( **هواء** ) غلاء وهو الذى لم تشغله الأجرام أى: لا قوة فى قلوبهم ولا جراءة .

وعن ابن جريج هواء : أى: صفر من الخير خالية عنه .

وقال مجاهد : مهطعين : أى: مديمى النظر ، ويقال مسرعين لا يرتد إليهم طرفهم .

**وأفئدتهم هواء** : يعنى جوفا لا عقول لهم ، جوفا جمع أجوف . وقيل: نزعت أفئدتهم من أجوافهم .

وقال تعالى : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب

---

( ١ ) أخرجه الترمذى فى الجنة : ٢ ، وفى الدعوات : ١٢٨ . وابن ماجه فى الصيام : ٤٨ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٥٤ .

( ٢ ) أخرجه البخارى فى المظالم : ٤ ، وفى الإكراه : ٧ . ومسلم فى البر : ٦٢ . والترمذى فى الفتن : ٦٨ . والدارمى فى الرقاق : ٤٠ . والإمام أحمد فى ٣ : ٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٢٤ .

( ٣ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٤١ . وأبو داود فى الأدب : ٣٦ .

( ٤ ) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ من سورة إبراهيم .

نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾[١] .

قال العينى : الخطاب لرسول الله ﷺ أمره بإنذار الناس وتخويفهم .

( **أجل قريب** ) أى ردنا إلى الدنيا ، وأمهلنا نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك ، واتباع رسلك .

وقال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾[٢] .

( **الأشهاد** ) : الرسل أو الملائكة أو أمة محمد ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً * إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديراً ﴾[٣] .

أى لا جهر من ظلم بالدعاء على الظالم والتظلم منه .

روى أن رجلاً أضاف قوماً فلم يطعموه ، فاشتكاهم فعوتب عليه ، فنزلت .

( **سميعا** ) : لكلام المظلوم ، ( **عليما** ) بالظالم ، ( **خيراً** ) طاعة وبرا .

سبحانه يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام ، فأنتم أولى بذلك .

هو حث للمظلوم على العفو بعد ما رخص له فى الانتصار ، حملاً على مكارم الأخلاق ، قاله البيضاوى .

وقال العينى قال عبد الكريم بن مالك الجزرى فى هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه لقوله تعالى : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[٤] .

روى أبو داود من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم )[٥] . أورده البخارى .

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾[٦] .

قال العينى : البغى : الظلم : أى الذين إذا أصابهم بغى المشركين فى الدين انتصر عليهم بالسيف أو إذا بغى عليهم باغ كرهوا أن يستذلوا لئلا يجترىء عليهم الفساق فإذا قدروا عفوا .

---

( ١ ) الآيات من ٤٤ - ٤٧ من سورة إبراهيم .
( ٢ ) الآية ١٨ من سورة هود .
( ٣ ) الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء .
( ٤ ) الآية ٤١ من سورة الشورى .
( ٥ ) أخرجه مسلم فى البر : ٩ أبو داود فى الأدب : ٣٩ . والترمذى فى البر : ٥١ والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٤٨٨ ، ٥١٧ . وفى ٤ : ١٦٢ ، ٢٦٦ .
( ٦ ) الآية ٣٩ من سورة الشورى .

وقال تعالى : ﴿ وجزاؤ سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل * وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم * وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل * استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾(٢).

**قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون * وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .**

قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ : أى: وما خلقنا هذا السقف المرفوع ، وهذا المهاد الموضوع ، وما بينهما من أصناف المخلوقات البديعة ، للهو واللعب ، بل خلقناهما لفوائد دينية ، وحكم ربانية ، كأن تكون دليلاً على معرفة الخالق لها ، ووسيلة للعظة والاعتبار إلى ما فيها من منافع أخرى لا حصر لها .

وخلاصة ذلك أن إيجاد العالم كله ، ولا سيما النوع الإنسانى ، واستخلافه فى الأرض ، مبنى على بديع الحكم ، مستتبع لغايات جليلة لا تخفى على ذوى الألباب ، وقد علم بعضها من أمعنوا النظر فى الكون وعجائبه ، وأوتوا حظا من صادق المعرفة ، فعرفوا بعض أسراره ، وانتفعوا ببعض ما أودع فى باطن الأرض ، وما على ظاهر سطحها ، مما كان سببا فى رقى الإنسان .

ولا يزال العلم يولد لنا كل يوم عجيبا ، ويظهر لنا من كنوزها غريبا ، قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾(٣).

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾(٤).

ثم أكد نفى اللعب بقوله : ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين** ﴾ .

أى: لو أردنا أن نتخذ لهوا كما يتخذ العباد لاتخذناه من عندنا ، من العوالم المجردة من المادة . كالملائكة ، لكنا لا نتنزل لملابسة ما هو من شأنكم المادى كالزوج والولد ، إذ لا يجمل بنا لأنه خارج عن سنن حكمتنا ، وقوانين نظامنا ، ورفعة قدرنا ، فنحن لا نلهو بالصور الجسمية ، ولا بالنفوس الروحية .

(١) الآيات من ٤٠-٤٢ من سورة الشورى .
(٢) الآيات من ٤٤-٤٧ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٢٧ من سورة ص .

وخلاصة هذا إنا خلقناكم لحكمة وصورناكم لغاية ، وجعلنا لكم السمع والإبصار لمنافع قدرناها لكم ، لاللهونا ولعبنا ، ومن ثم لا نترككم سدى ، بل نحاسبكم ونؤاخذكم ، والجدِ مطلبنا ، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين ، لا من شأن رب العالمين .

ونحو الآية قوله : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ : .

أى إن من شأننا أن نرمى الحق الذى من جملته الجد ، على الباطل الذى منه اللعب ، فيكسر دماغه ، بحيث يشقق غشاؤه ، فيؤدى ذلك إلى زهوق روحه فيهلك ، وقد شبه الباطل بإنسان كُسر دماغه فهلك ، وإذا كان هذا شأننا فكيف نترككم بلا إنظار ، كأنما خلقناكم لنلهو بكم .

وقوله تعالى : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ : أى ولكم العذاب الشديد من وصفكم ربكم بغير صفته ، وقيلكم إنه اتخذ ولدا وزوجة ، وافترائكم ذلكم عليه .

ولما حكى كلام الطاعنين فى النبوات ، وأجاب عنها ، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن إنما هو التمرد والعناد ، بين فى هذه الآية أنه غنى عن طاعتهم ، لأنه هو المالك لجميع المخلوقات ، والملائكة على جلالة قدرهم مطيعون له خائفون منه ، فأجدر بالبشر على ضعفهم أن يطيعوه ، وما أخلقهم أن يعبدوه ، فقال سبحانه : ﴿ وله من فى السموات والأرض ﴾ :

أى وله تعالى جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصريفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة ، دون أن يكون لأحد فى ذلك سلطان ، لا استقلالا ولا استتباعا .

قوله تعالى : ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾ :

أى والملائكة الذين شرفت منزلتهم عند ربهم لا يستعظمون عن عبادته ، ولا يكلون ولا يتعبون ، وتخصيص الملائكة بالذكر للدلالة على رفعة شأنهم ، كما خصص جبريل من بين الملائكة فى قوله سبحانه : ﴿ تنز ل الملائكة والروح ﴾(٢) .

ثم بين سبحانه كيف يعبدون ربهم ، فقال سبحانه : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ :

فهم دائبون فى العمل ليلاً ونهاراً ، مطيعون قصداً وعملاً ، قادرون عليه ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾(٣) .

وخلاصة ذلك المبالغة فى تنزيه الله وتسبيحه ، وهذا لا يمنع تخلل فترات لا يفعلون فيها ذلك ، كما يقال : خلاف لا يفتر عن ثنائك وشكر آلائك .

قوله تعالى : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ✻ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان

(١) الآية ٤ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٤ من سورة القدر .
(٣) الآية ٦ من سورة التحريم .

**الله رب العرش عما يصفون * لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون * وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾** :

**﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾** : ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة ، فقال **﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾** أى:أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ، أى:لا يقدرون على شىء من ذلك ، فكيف جعلوها لله نداً ، ووصف الآلهة بكونها من الأرض . للإشارة إلى أنها من الأصنام التى تعبد فيها ، وللإيماء إلى ضعة شأنها ، وحقارة أمرها .

ثم أقام الدليل الفعلى على التوحيد ، ونفى أن يكون هناك إله غير الله فقال سبحانه : **﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾** :

أى:لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لخربتا ، وهلك من فيهما ، ذاك أنه لو كان فيهما إلهان فإما أن يختلفا أو يتفقا فى التصرف فى الكون ، والأول ظاهر البطلان ، لأنه إما أن ينفذ مرادهما معا فيريد أحدهما الإيجاد والثانى لا يريده ، فيثبت الوجود والعدم لشىء اختلفا فيه ، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الثانى ، فيكون هذا مغلول اليد عاجزا ، والإله لا يكون كذلك ، والثانى باطل أيضاً ، لأنهما إذا أوجداه معاً وجب توارد الخلق من خالقين على مخلوق واحد .

ولما أثبت سبحانه بالدليل أن المدبر للسموات والأرض لا يكون إلا واحداً ، وأن ذلك الواحد لا يكون إلا الله قال جل فى علاه : **﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾** .

أى:فتنزيها لله رب العرش المحيط بهذا الكون ، ومركز تدبير العالم ، عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولداً أو شريكا .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله : **﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴾** :

أى:هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد ، لعظمته وجلاله وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه ، وهو سائل خلقه عما يعملون ، كما قال **﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾**[1] ، وقال سبحانه : **﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾**[2] .

ثم أعاد الإنكار مرة أخرى استفظاعاً لشأنهم ، واستعظاما لكفرهم ، وإظهاراً لجهلهم فقال سبحانه : **﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾** :

أى :أبعد هذه الأدلة التى ظهرت تقولون إن لله شركاء ؟

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدعون فقال سبحانه : **﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾** :

أى:بعد أن ثبت أنه لا إله غيره ، فهاتوا برهانكم على صحة اتخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان ، ولا سبيل إلى ذلك ، لا بالدليل العقلى ، لأنه مر بطلانه ، ولا بالدليل النقلى ، لأن الكتب السماوية جميعاً متفقة على هذا .

---

(١) الآيتان ٩٢ ، ٩٣ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٨٨ من سورة المؤمنون .

وإلى ذلك أشار بقوله : ﴿ **هذا ذكر من معى وذكر من قبلى** ﴾ :

أى: هذا هو الكتاب المنزل على من معى، وهذه هى الكتب المنزلة على من تقدمنى من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبور ، وصحف إبراهيم وموسى ، انظروا فيها هل تجدون إلا الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك ؟

قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير الله ، فهل فى ذكر من معى وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟

ولما كانوا لا يجدون لهم شبهة فضلا عن حجة ، ذمهم على جهلهم بمواضع الحق ، فقال سبحانه : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون الحق** ﴾ أى: لا يميزون بين الحق والباطل ، فلا تؤثر منهم الحجة والبرهان ، ولا يقتنعون به .

ثم ذكر أن هذا كان سبباً فى إعراضهم وتجافيهم عن سماع الحق ، فقال : ﴿ **فهم معرضون** ﴾ :

أى: منهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم أعرضوا عن قبول الحق وعن النظر الموصل إليه ، فلا يتأملون حجة ولا يتدبرون برهاناً ، ولا يتفكرون فى دليل .

ثم أكد ما تقدم من أدلة التوحيد فقال سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ :

أى: وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم إلا أوحينا إليه أن لا معبود فى السموات والأرض بحق إلا أنا ، فأخلصوا لى العبادة ، وأفردوا لى الألوهية .

وخلاصة ذلك : إن الرسل جميعاً أرسلوا بالإخلاص والتوحيد ، لا يقبل منهم سواه ، كما قال سبحانه : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** ﴾ :

وبعد أن بين سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزه عن الشريك والند ، أردف ذلك ببراءته من اتخاذ الولد ، ويقول ذلك راداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً** ﴾ :

أى: وقال فريق من هؤلاء المشركين ، وهم بطون من خُزاعة وجُهينة وبنى سلمة : الملائكة بنات الله ، فرد عليهم بقوله : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى: تنزيها له عن ذلك ، لأن الولد لابد أن يكون شبيهاً بالوالد ، فلو كان له ولد لا شبهة ولا مجانسة بين النعمة والمُنعِم ، والخالق والمخلوق .

ثم أكد إبطال ما سلف بقوله : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ أى: ليس الملائكة كما قالوا بل هم عباد

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .

مخلوقون له تعالى ، فهم ملكه لكنهم مقربون عنده فى منازل عالية ، ومقامات سامية .

ثم بين سبحانه كمال طاعتهم ، وانقيادهم لأمره ، وتأدبهم معه تعالى ، فقال : ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ :

أى:لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله .

ثم علل هذه الطاعة ، بعلمهم بأن ربهم محيط بهم ، لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، فقال : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ :

أى:يعلم ما عملوا ، وما هم عاملون ، لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا ، فلا يزالون يراقبونه فى جميع شئونهم .

﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ : أى:وهم لا يشفعون إلا لمن رضى عنه ، فلا تطمعوا فى شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى .

قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون فى الدار الآخرة .

قال قتادة أى لأهل التوحيد .

﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾ : أى وهم من خوف الله ، والإشفاق من عقابه ، حذرون أن يعصوه ، ويخالفوا أمره ونهيه .

﴿ **ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم** ﴾ :

أى:ومن يدعى منهم أنه إله مع الله فجزاؤه جهنم على ما ادعى كسائر المجرمين ، ولا يغنى عنه ما سبق من أوصافه ومرضىّ أفعاله .

﴿ **كذلك نجزى الظالمين** ﴾ : أى:وهكذا نجزى كل من ظلم نفسه ، فكفر بالله وعبد غيره .

وخلاصة ذلك : أنه سبحانه وصف الملائكة بخمس صفات تدل على العبودية وتنافى الولادة :

١ ـ المبالغة فى الطاعة ، فإنهم لا يقولون قولا ، ولا يفعلون فعلا ، إلا بإذنه .

٢ ـ أنه سبحانه يعلم أسرارهم وهم لا يعلمون أسراره ، فهو المستحق للعبادة لا هم كما قال عيسى عليه السلام ﴿ تعلمُ ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ﴾[1] .

٣ ـ إنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الشفاعة له ، ومن يكون إلها أو ولداً للإله لا يكون كذلك .

٤ ـ إنهم فى نهاية الإشفاق والوجل من الله .

٥ ـ إن حالهم كحال سائر المكلفين فى الوعد والوعيد فكيف يكونون آلهة .

قوله تعالى :

﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى**

(١) الآية ١١٦ من سورة المائده .

**أفلا يؤمنون * وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون * وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ .**

اعلم أنه سبحانه ذكر أدلة ستة تثبت وجود الخالق الواحد القادر ، لو تدبرها المنصفون ، وعقلها الجاحدون ، لم يجدوا مجالاً للإنكار ، ولا سبيلا إلى الجحد .

١ - **﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾** : أى:ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا مرتوقتين : أى ملتحمتين متصلتين ففصلناهما وأزلنا اتحادهما .

وهكذا يقول علماء الفلك حديثا ، إذ يثبتون أن الشمس كانت كرة نارية دائرة حول نفسها ملايين السنين ، وفى أثناء سيرها السريع انفصلت منها أرضنا والأرضون الأخرى وهى السيارات من خط الاستواء الشمسى ، فتباعدت عنها ، وما زالت أرضنا دائرة حول نفسها وحول الشمس على نظام خاص بحكم الجاذبية .

قال الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الملكى المصرى : ان النظرية الحديثة فى كيفية مولد الأرض وأخواتها الكواكب السيارة من الشمس ، هى افتراض اقتراب نجم كبير من الشمس فيما مضى من الزمن اقترابا كافيا ، فجذب من سطحها كتلة لم تلبث أن انفصلت من الشمس على شكل سهم مدبب الطرفين سميك فى الوسط ثم تكثفت هذه الكتلة فى الفضاء البارد إلى كتلة منفصلة ، وبقيت هذه الكتل التى تمثل الأرض وأخواتها الكواكب السيارة تدور بفعل الجاذبية للشمس فى مداراتها حولها بلا انقطاع ، وانطفأ نورها لأن كتلتها كانت أصغر من أن تحتفظ بصفتها الأصلية قبل الانفصال وهو إشعاع الضوء .

فالكواكب السيارة ، ومنها الأرض لا نراها بضوء يشع منها ، بل بضوء الشمس منعكسا على سطوحها كما نرى القمر وكما نرى وجوهنا بضوء الشمس أو المصباح منعكسا عليها .

والكواكب السيارة تسعة ، وهى بترتيب قربها من الشمس : عُطارد ، والزُّهرة ، الأرض ، المريخ ، المشترى ، زُحل ، أورانوس ، نبتون ، بلوتوه .

ويدخل ضمن هذه الأسرة مجموعة كبيرة العدد من أجسام صغيرة ، تقع بين مدارى المريخ والمشترى ، وتدور حول الشمس كسرب من الطير ، ومن بينها المذنبات أيضاً ، والشهب التى نرى الكثير منها كل ليلة يهوى نحو الأرض ويحترق باحتكاكه بالغلاف الجوى الذى حولها .

أما بقية الأجرام السماوية التى نراها ليلا تزين سطح القبة السماوية فهى النجوم ، والنجوم شموس موادها المركبة منها هى المواد المركبة منها شمسنا ، فسبحان الخلاق العظيم ا هـ .

وبعد أزمنة طويلة لا يعلم مداها ، بردت القشرة الأرضية ، وصارت صالحة لإنبات بعض أنواع النبات ، ثم لسكنى الحيوان ، ثم لسكنى الإنسان .

ولا شك أن هذه النظرية لم يكن يعرفها العرب ، ولا الأمم المعاشرة لهم ، ولم تعرف إلا منذ القرن السابع عشر الميلادى ، ومُحصت بعض التمحيص فى عصرنا الحاضر ، تدل أكبر دلالة على صدق النبى

محمد ﷺ ، وأن القرآن وحى أرسله إليه ربه هداية للبشر ورحمة للعالمين .

وخلاصة ذلك : أن العقل البشرى مستعد لدرس عجائب هذا الكون ، ومعرفة سير هذه الكواكب ودورانها بنظام الجاذبية حول الشمس ، على سنن لا يتغير ولا يتبدل ، وقد دل البحث على أنها كلها مجموعة واحدة انفصل بعضها من بعض بأسباب خاصة ، فندها العليم الخبير .

وقد أرشد إلى بيان هذا خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ، ولم يكن قومه ، ولا الأمم المعاصرون لهم يفكرون فيه ، مما يدل على أن ذلك وحى أوحى إليه من لدن عليم خبير .

وقد كان هذا وحده كافيا فى الإسراع إلى تصديقه ، والإيمان برسالته ، لولا الجحد والإنكار وعمى القلوب ﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[1] .

٢ - ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ : أى:وخلقنا من الماء كل حيوان ، كما قال سبحانه فى آية أخرى:﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾[2] وكذا يحيا به كل نبات وينمو .

وقال قتادة : خلقنا كل نام من الماء فيدخل الحيوان والنبات .

﴿ أفلا يؤمنون ﴾ بأن يتدبروا هذه الأدلة ، فيعلموا بها الخالق الذى لا يشبه غيره ، ويتركوا طريق الشرك .

٣ - ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ﴾ : أى:وجعلنا فيها جبالاً ثوابت ، لئلا تميد وتضطرب بهم .

وقد أثبت العلم حديثا أن الأرض كانت ناراً ملتهبة ، ثم بردت قشرتها ، وصارت صوَّانية صُلبة ، وقدرّوا زمن ذلك بنحو ثلثمائة مليون سنة .

ومما يدل على صدق هذه النظرية ما نراه من حُمم النيران التى تخرجها البراكين فى جهات كثيرة من الأرض ، كما حدث سنة ١٩٠٩ لبركان فيزوف بإيطاليا ، وقد طغى على مدينة مسِّنيا ، وابتلعها فى باطنه ، ولم يبق منها شيئاً .

فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفس بها الأرض ، لتخرج من باطنها نيراناً ومواد ذائبة ، مما يرشد إلى أنها كلها فى أحقاب طويلة كانت كذلك . ولولا هذه القشرة الصُلبة لتفجرت ينابيع النيران من سائر الجهات .

وهذه القشرة الصّوانية البعيدة الغور المغلفة للكرة النارية هى الحافظة لكرة النار التى تحتها ، وهى التى نبتت منها الجبال التى نراها فوق أرضنا ، وقد جعلت لحفظ الأرض من أن تميد ، وما هى إلا كأسنان لها ، طالت وامتدت فوق طبقات الأرض ، فلو زالت هذه الجبال لبقى ما تحتها مفتوحاً ، وإذ ذاك ربما تثور البراكين فى جهات كثيرة من الأرض وتضطرب اضطرابا شديداً وتزلزل زلزالاً كثيراً .

وهذه هى المعجزة الثالثة فى الآية التى ترشد إلى أن القرآن وحى يوحى ، فما محمد ولا قومه ولا الأمم المعاصرون لهم يعلمون شيئا من هذه الآيات الكونية ، التى أيد صحتها تقدم العلوم ، ففهم ظاهر الأرض

(١) الآية من ٤٦ من سورة الحج .
(٢) الآية ٤٥ من سورة النور .

وباطنها ، وفى هذا مصداق لما أثر عن على رضى الله عنه : ( القرآن جديد لا تبلى جدته ) .

٤ - ﴿ **وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون** ﴾ أى وجعلنا فى الأرض طرقاً بين جبالها ، يسلكها الناس من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى آخر ، ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم ومهام أمورهم المعيشية .

٥ - ﴿ **وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً** ﴾ : أى:أنه تعالى نظّم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام ، فقد حفظت الشموس والكواكب فى مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض ، ولا يختبط بعضها فى بعض ، بل جعلت فى أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية ، فالشمس والقمر والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها وإلا اختل نظام هذا العالم ، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثين من جرى الأرض حول الشمس .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾[1] .

﴿ **وهم عن آياتها معرضون** ﴾ أى:والمشركون معرضون عن التفكر فى تلك الآيات الدالة على وحدانيتنا ، وعظيم قدرتنا ، وإحاطة علمنا .

٦ - ﴿ **وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون** ﴾ :

أى:والله خلق لكم الليل والنهار نعمة منه عليكم ، وحجة على عظيم سلطانه ، فهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم ، وأمور دنياكم وآخرتكم ، وخلق الأرض والشمس والقمر تجرى فى أفلاكها كما يجرى السمك فى الماء .

وهذا هو الرأى الحديث ، وأن هذه كلها تجرى فى عالم الأثير المالىء لهذا الفضاء ، فالشمس تجرى ، والأرض تجرى ، والقمر يجرى ، وبينها هذه المخلوقات الحية ، فما مثل هذه العوالم إلا كآلة الطباعة ، والمخلوقات كلماتها وسطورها ، أوكدار صناعة تخرج كل يوم مصنوعات جديدة بعد فناء القديمة وزوالها ، فسبحان الله الواحد الأحد ، صاحب العز والملكوت .

قوله تعالى :

﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون * وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾ : أى:وما كتب لأحد من قبلك البقاء فى الدنيا حتى نبقيك فيها ، بل قُدرّ لك أن تموت كما مات رسلنا من قبلك .

﴿ **أفإن مت فهم الخالدون** ﴾ : أى:أفهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون بعدك ؟ لا ، ما ذلك كذلك ، بل هم ميتون - عشت أومت .

ثم أكد ما سلف ، وبين أن أحداً لا يبقى فى هذه الدنيا ، فقال سبحانه : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الحج .

أى:كل نفس منفوسة من خلقه ذائقة مرارة الموت ، ومتجرعة كأسه ، وشدة مفارقة الروح للبدن ، وقد جاء فى الحديث : « إن للموت لسكرات »[١] .

فلا يفرحن أحد لموت أحد ، ولا يُظهرن التشفى منه ، كما لا ينبغى أن تبدو عليه علامات الجزع والحسرة لموت أحد .

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ : أى:ونختبركم أيها الناس بالمضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد ، وبنعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور ، والتمكين من حصول ما تريدون ، لنرى أتصبرون فى المحن ، وتشكرون فى المنح ؟ فيزداد ثوابكم عند ربكم إذا قمتم بأداء ذلك ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فالمنحة أعظم البلاءين ، ومن ثم قال عمر رضى الله عنه : ( بُلينا بالضراء فصبرنا ، وبُلينا بالسراء فلم نصبر ) ، وقال على كرم الله وجهه : ( من وُسِّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكرَ به فهو مخدوع عن عقله ) .

﴿ وإلينا ترجعون ﴾ : فنجازيكم وفق ما يظهر من أعمالكم .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والوعيد بالثواب والعقاب .

**قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ :**

أى:وإذا رآك المشركون لم يكن لهم عمل إلا أن يجعلوك موضع السخرية والهزؤ ، وقد كان من حقهم أن يفكروا مليا فيما يشاهدون من أخلاقك وآدابك ، وفيما ينزل عليك من الوحى الذى فيه عظة وذكرى لقوم يعقلون ، لعل بصائرهم تستنير ، وطباعهم ترِقَ ، وقلوبهم ترعوى عن غيها ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾[٢] .

﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ : أى:ويقولون استنكاراً وتعجبا : أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ؟ وكيف يعجبون من ذلك وهم كافرون بالله الذى خلقهم وأنعم عليهم ، وبيده نفعهم وضرهم وإليه مرجعهم ؟

قال الزجاج : فلان يذكر الناس، أى:يغتابهم ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله، أى: يصفه بالتعظيم ويثنى عليه .

وخلاصة ذلك : كيف يعجبون من نبذ آلهتهم بالسوء ، وهم قد كفروا بربهم الذى برأهم وصورهم فأحسن صورهم ، وإليه مرجعهم ، فيحاسبهم على النَّقير والقطمير .

**قوله تعالى :**

**﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم**

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٦٤ . والترمذى فى الجنائز : ٧ . والامام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١ .

(٢) الآية ٩٥ من سورة الحجر .

**ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون * ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾** :

قوله تعالى : **﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾** : أى:إنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة ، وجعلها من سجيته وجبلته ، فليس بعجيب من المشركين أن يستعجلوا عذاب الله ، ونزول نقمته بهم ، وقد كان من الحق عليهم أن يتلبثوا قليلاً ، فإن الله سينزل بهم من سخطه مثل ما أنزل بالمكذبين قبلهم ، ويُحل بهم من العذاب ما لا قبل لهم بدفعه .

وهذا ما أشار إليه بقوله : **﴿ سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾** : أى: إن نقمى ستصيبكم لا محالة ، فلا تتعجلوا عذابى ، واصبروا حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد .

وقد نُهى الإنسان عن العجلة مع أنها ركُبت فى طبيعته ، من قِبَل أنه أوتى المقدرة التى يستطيع بها تركها ، وكف النفس عنها .

ثم حكى عنهم ما يستعجلون فقال سبحانه : **﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾** :

أى:ويقولون للنبى ﷺ ولمن معه من المؤمنين الذين يتلون الآيات المنبئة بقرب الساعة ، ونزول العذاب بمن كفر بها استهزاء : متى هذا العذاب الذى تعدوننا به إن كنتم صادقين فى وعدكم ؟

وهذا منهم استبطاء للموعود به ، يراد به إنكار وقوعه وأنه لن يكون البتة .

ثم بين شديد جهلهم بما يستعجلون ، وعظيم حماقتهم لهذا الطلب ، فقال : **﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ﴾** :

أى:لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون ماذا أعدَّ لهم ربهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، فلا يستطيعون ردها عن تلك الوجوه ، ولا يدفعونها بأنفسهم عن الظهور ، ولا يجدون ناصراً ينصرهم ، وينقذهم من ذلك العذاب ، لما أقاموا على كفرهم بربهم ، ولسارعوا إلى التوبة منه ، ولما استعجلوا لأنفسهم هذا النكال والوبال .

وإنما خص الوجوه والظهور ، لأن مس العذاب لهما أعظم موقعا .

ولما بين شدة العذاب فى ذلك اليوم بين أن وقته لا يكون معلوماً لهم فقال : **﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾** :

أى:بل تأتيهم الساعة وهم لأمرها غير مستعدين ، فتدعهم حائرين لا يستطيعون حيلة فى ردها ، ولا منصرفاً عما يأتيهم منها ، ولا هم يمهلون لتوبة ، ولا لتقديم معذرة ، فقد فات ما فات ، وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون .

وإنما لم يُعلم الله عباده وقتها ، لما فى ذلك من فائدة ، فإن المرء يكون مع جهله بها أشد حذرا ، وأقرب إلى التلافى وانتهاز الفرصة .

ثم سلّى رسوله على استهزائهم به فقال :

**﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾** :

أى: ولقد استهزىء برسل من رسلنا الذين أرسلناهم قبلك إلى أممهم ، فنزل بالذين استهزءوا بهم العذاب والبلاء الذى كانت الرسل تخوفهم نزوله ، ولن يعدوا أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأمر أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم ، مثل ما نزل بمن قبلهم ، فانظر لهم عاقبة وخيمة كعاقبة أولئك ، وسيكون لك النصر عليهم .

ونحو الآية : ﴿ ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[1] .

قوله تعالى :

**﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون * أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون * بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون * قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون * ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين * ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾** :

قوله تعالى : **﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾** : أى: سل أيها الرسول أولئك المستهزئين سؤال إنكار وتوبيخ ، من يستطيع أن يحفظكم من الرحمن إذا أراد أن يُنزل بكم بأسه وعذابه الذى تستحقونه ؟

والخلاصة : من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم فى أمور معايشكم ، من عذاب الرحمن إن نزل بكم ، ومن بأسه إذا حل بساحتكم ؟

وفى ذكر ﴿ الرحمن ﴾ إيماء وتنبيه إلى أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وإلى أن بأسه أليم شديد ، وإلى أنه قد عذبهم من غلبت رحمته قسوته ، جزاء وفاقا بما دسّوا به أنفسهم من فاسد الطوايا ، وسيىء الأعمال .

ثم ذكر أنهم قد غفلوا عن الكالىء الحافظ فقال: **﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾** :

أى: أن هؤلاء القوم قد ألهتهم النعم عن المنعم ، فلا يذكرون الله حتى يخافوا بأسه ، أو يعدّوا ما كانوا فيه من الأمن والدعة ، كلاءة وحفظا لهم حتى يسألوا عن الكالىء الحافظ .

وخلاصة ذلك : أنهم على وجود الدلائل العقلية والنقلية الدالة على أنه تعالى هو الكالىء الحافظ ، معرضون عنها لا يتأملون فيها .

وفى ذكر ( الرب ) إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه ، وأنهم فى ملكوته وتدبيره ، وجميل رعايته

---

(١) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

وتربيته ، وهم على ذلك معرضون ، فهم فى الغاية القصوى من الضلال ، وفى النهاية من الجهل والغباء .

ثم انتقل من وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهة لا تضر ولا تنفع فقال سبحانه : **﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾** :

أى: بل ألهؤلاء المستعجلى عذابنا آلهة تمنعهم منا إن نحن أنزلناه بهم ، وتدفع عنهم بأسنا إن حل بساحتهم ؟ فإن آلهتهم لا تمنعهم بأس الله إذا أراد .

ثم وصف تلك الآلهة التى اتخذوها بالضعف فقال سبحانه : **﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾** :

أى: وكيف تستطيع آلهتهم أن تمنعهم منا وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا دفع ما ينزل بهم من البلاء ، ولا هم يصبحون منا بنصر ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم ؟

ومجمل القول : إنهم فى غاية العجز فكيف يتُوهم فيهم ما يتوهمون من القدرة والسلطان ، ويدينون لهم بالخضوع والعبادة .

ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع سوء ما أتوا به من الأعمال ، فقال : **﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ﴾** :

أى: أن الذى غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال ، أنهم مُتعوا فى الحياة الدنيا ، ونعموا بها ، وطال عليهم العمر ، حتى اعتقدوا أنهم على شىء ، فهم طالت أعمارهم وهم فى الغفلة فنسوا عهدنا ، وجهلوا مواقع نعمتنا ، فاغتروا بذلك ولم يعرفوا مواضع الشكر .

ثم بين لهم سبحانه سوء مغبتهم فقال جل فى علاه : **﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾** :

أى: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون للعذاب آثار قدرتنا فى إتيان الأرض من جوانبها ، ففتحناها للمؤمنين ، وزدناها فى ملكهم ، واقتطعناها من أيدى المشركين ؟ فقد تم لهم فتح البلاد التى حول مكة ، وقتل رؤسائها ، وإزالة دولة الشرك وأهله منها ، ألا يفكرون فى هذا فيكون لهم فيه مزدجر ، لو كانوا يعقلون ؟ ثم وبّخهم وأنّبهم على غفلتهم عن الحق بعد وضوحه .

فقال : **﴿ أفهم الغالبون ﴾** : أى أفهم الغالبون أم نحن ؟ أى أفبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم إياه يتوهمون غلبتهم ؟

وبعد أن بين هول ما يستعجلون ، وحالهم السيئة حين نزوله بهم ، ثم نعى عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل ، وحوادث النهار ، أمر رسوله أن يقول لهم : إن ما أخبركم به جاء به الوحى الصادق » .

فقال تعالى : **﴿ قل إنما أنذركم بالوحى ﴾** : أى: إنى إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة وشديد أهوالها ، بالوحى الصادق الناطق بحصوله ، وفظاعة أهواله ، وقد أمرنى ربى بذلك ، وهأنذا قد

قمت بما أمرنى به ، فإن لم تجيبوا داعى الله وتقبلوا ما دعوتكم إليه فعليكم النكال والوبال ، لا علىّ .

ثم أردف هذا أن الإنذار مع مثل هؤلاء لا يجدى فتيلا ، فما حالهم إلا حال الصم الذين لا يسمعون دعوة الداعى ، فقال سبحانه : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ :

أى: فما مثلهم إذا لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار على كثرته وتتابعه إلا مثل الصم الذين لا يسمعون شيئا ، إذ ليس الغرض من الإنذار السماع فحسب ، بل العمل بما يُسمع بالإقدام على فعل الواجب والتحرز من المحرم ، ومعرفة الحق ، فإذا لم يحصل شىء من هذا فلا جدوى فى السمع ، وكأن لم يكن .

ثم بين سرعة تأثرهم من العذاب حين مجيئه ، إثر بيان عدم تأثرهم به حين مجىء خبره ، فقال تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ :

أى: ولئن أصاب هؤلاء المستعجلين للعذاب أدنى قسط من عقاب ربك بكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، ليقولن إنا كنا ظالمين لأنفسنا بعبادتنا الآلهة والأنداد ، وتركنا عبادة الذى برأنا وأنعم علينا ، وجحدنا لما يجب علينا من الشكر له بالإخلاص فى عبادته .

ثم بين سبحانه وتعالى الأحداث التى ستقع حين يأتى ما أنذروا به ، فقال جل فى علاه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ :

أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، وهو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ، فلا يظلم عباده مثقال ذرة ، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه ، أى ذهبت حسناته بسيئاته ، ومن أحاطت سيئاته بحسناته خفت موازينه ، أى ذهبت سيئاته بحسناته .

﴿ فلا تظلم نفس شيئا ﴾ : أى: فلا تظلم أى نفس شيئا من الظلم ، فلا يُنقص ثوابها الذى تستحقه ، ولا يزاد عذابها الذى كان لها على قدر ما دسَّت به نفسها من سيىء الأعمال .

﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ : أى وإن كان العمل الذى فعلته النفس صغيرا مقدار حبة الخردل جازينا عليه جزاءً وفاقا ، سيئا كان أو حسناً .

﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ : أى: وحسب من شهدوا ذلك الموقف بنا حاسبين لأعمالهم ، محصين لها ، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف منهم فى الدنيا من صالح أو سيىء منا .

ولا يخفى ما فى الآية من التحذير ، وشديد الوعيد للكافرين ، على ما فرطوا فى جنب الله ، فإن المحاسب إذا كان عليما بكل شىء ، ولا يعجز عن شىء ، كان جديراً بالعاقل أن يكون فى حذر وخوف منه .

## قصص الأنبياء

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾
* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ
ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟
ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ۚ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن
كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟
حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا
فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ

ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى
كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ
وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ
وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾
وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾
وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ * وَأَيُّوبَ
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن
ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ
نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

**المفـردات** : ﴿ **الفرقان** ﴾ : هى التوراة وهى الضياء والموعظة ، وكانت فرقانا لأنها تفرق بين الحق والباطل ، وكانت ضياء لأنها تنير طريق الهدى للمتقين ، وكانت موعظة لما فيها من عبرة للسالكين سبل النجاة .

﴿ **يخشون ربهم** ﴾ : أى: يخشون عذابه .

﴿ **مشفقون** ﴾ : أى: خائفون .

﴿ **مبارك** ﴾ : أى: كثير الخير ، غزير النفع .

﴿ **الرشد** ﴾ : هو الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا ، والاسترشاد بالنواميس الإلهية .

﴿ **التماثيل** ﴾ : واحدها تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله كطير أو شجر أو إنسان ، والمراد بها هنا الأصنام ، سماها بذلك تحقيراً لشأنها .

﴿ **والعكوف على الشىء** ﴾ : ملازمته والإقبال عليه .

﴿ **بالحق** ﴾ : أى: بالشىء الثابت فى الواقع .

﴿ **اللاعبين** ﴾ : أى: الهازلين .

﴿ **فطرهن** ﴾ : أى: أنشأهن .

﴿ **من الشاهدين** ﴾ : أى: المتحققين صحته المثبتة بالبرهان .

﴿ **والكيد** ﴾ : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه والمراد المبالغة فى إلحاق الأذى بها .

﴿ **جذاذاً** ﴾ : أى: قطعاً من الخبز وهو القطع .

﴿ **يذكرهم** ﴾ : أى: يعيبهم ويسبّهم .

﴿ **على أعين الناس** ﴾ : أى: على رءوس الأشهاد فى الملأ .

﴿ **يشهدون** ﴾ : أى: بفعله أو قوله .

﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم** ﴾ : أى: ففكروا وتدبروا .

﴿ **الظالمون** ﴾ : أى: الظالمون لأنفسكم بغفلتكم عن آلهتكم ، وعدم حفظكم إياها .

**ويقال نكسته** : أى: قلبته فجعلت أعلاه أسفله ، والمراد أنهم بعد أن أقروا أنهم ظالمون انقلبوا من تلك الحال إلى المكابرة والجدل بالباطل .

﴿ **أفّ** ﴾ : كلمة تدل على أن قائلها متضجر متألم من أمر .

﴿ **والكيد** ﴾ : المكر والخديعة .

﴿ **لوط** ﴾ : هو ابن أخى إبراهيم ، قاله ابن عباس .

﴿ **والأرض** ﴾ : هى أرض الشام .

﴿ **نافلة** ﴾ : أى: عطية ومنحة .

﴿ **حُكماً** ﴾ : أى: نبوة .

﴿ **القرية** ﴾ : هى سدوم التى بعث إليها لوطا .

﴿ **الخبائث** ﴾ : الأعمال الخبيثة التى يستقذرها أرباب الفطر السليمة .

﴿ الكرب ﴾ : الغم الشديد والمراد به هنا العذاب النازل بقومه ، وهو الغرق بعد أن لقى منهم الأذى .

﴿ قوم سَوْء ﴾ : أى منهمكين فى شرورهم وآثامهم .

﴿ الحرث ﴾ : هنا الزرع .

﴿ والنفش ﴾ : رعى الماشية فى الليل بلا راع .

﴿ وشاهدين ﴾ : أى: حاضرين .

﴿ واللَّبوس ﴾ : الدروع .

﴿ والبأس ﴾ : الحرب .

﴿ والريح العاصف ﴾ : الشديدة الهبوب .

﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ : هى أرض الشام .

﴿ الغوص ﴾ : النزول إلى قاع البحار لإخراج شىء منها

﴿ ودون ذلك ﴾ : أى: غير ذلك كبناء المدن والقصور ، واختراع الصناعات الغريبة .

﴿ أيوب ﴾ : هو أيوب بن أموص ، اصطفاه الله ، وبسط له الدنيا ، وكثر أهله وماله ، ثم ابتلاه بموت أولاده بسقوط البيت ، وبذهاب أمواله ، وبالمرض فى بدنه ثمانى عشرة ، وسنه إذ ذاك سبعون سنة ، ثم آتاه الله من الأولاد ضعف ما كان ، وأزال عنه ما به من مرض .

﴿ والضرر ﴾ : شائع فى كل ضرر والضُر ( بالضم ) : خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما .

﴿ والذكرى ﴾ : التذكرة .

﴿ النون ﴾ : الحوت وجمعه نينان .

﴿ وذا النون ﴾ : أى: صاحب الحوت ، وهو يونس بن متى .

﴿ مغاضباً ﴾ : أى: غضبان من قومه لتماديهم فى العناد والطغيان .

﴿ نقدر عليه ﴾ : أى: نضيق عليه فى أمره بحبس ونحوه .

﴿ والظلمات ﴾ : هى ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

﴿ الإحصان ﴾ : المنع مطلقا .

﴿ والفرج ﴾ : فى الأصل : الشق بين الشيئين كالفرجة : ثم أطلق على السوءة وكثر ، حتى صار كالصريح فى ذلك .

﴿ والروح ﴾ : هو المعنى المعروف .

﴿ ونفخ الروح ﴾ : هو الإحياء .

﴿ آية ﴾ : أى: برهانا ودليلاً على قدرة الله .

﴿ الأمة ﴾ : القوم المجتمعون على أمر ثم شاع استعمالها فى الدين .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم : إنما أنذركم بالوحى ، أردفه ببيان أن هذه سنة الله فى أنبيائه ، فكلهم قد آتاهم الوحى ، وبلغهم من الشرائع والأحكام ما فيه هداية للبشر ، وسعادة لهم فى دنياهم وآخرتهم .

ثم قص الله تعالى بعد ذلك ما كان من الناس مع أنبيائهم ، فذكر طرفا من شأن موسى وهارون ، ثم أردف ذلك بقصة الخليل إبراهيم مع قومه ، وكيف دبروا وتآمروا ، وأرادوا أن يحرقوه ، فنجاه الله ، وقال : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم .

كما ذكر شأن قوم لوط مع نبيهم ، وكيف أن الله تعالى قد نجاه منهم .

كما ذكر طرفا من قصة نوح ، وموقفاً من داوود وسليمان فى إحدى القضايا ، وكيف أنعم عليهما بالحكم والعلم ، وكيف سخر الريح لسليمان تجرى بأمره إلى الأرض المباركة .

ثم ذكر بعد ذلك طرفاً من قصة أيوب ، وكيف استجاب الله له فكشف ما به من ضر .

ثم أثنى على إسماعيل وإدريس وذا الكفل ، ثم ذكر طرفاً من قصة يونس وزكريا ومريم .

ثم ختم هذا المشهد بتلك النتيجة الحاسمة التى لا خلاف فيها ، وهى أن دين الأنبياء واحد ، فكلهم موحدون بالله ، عملوا فى معسكر التوحيد ، وتحت راية لا إله إلا الله ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون** ﴾ :

كثيراً ما يقرن القرآن الكريم بين النبيين الكريمين : محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام ، وكتابيهما : القرآن والتوراة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان** ﴾ .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ **وهذا ذكر مبارك أنزلناه** ﴾ .

قال المفسرون فى معنى الفرقان : الكتاب ، وهذا رأى مجاهد .

وقال أبو صالح : والتوراة .

وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله به بين الحق والباطل .

وقال ابن زيد : يعنى النصر ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾[1] .

والمقصود به يوم بدر .

---

(١) الآية ٤١ من سورة الأنفال .

قال العلامة ابن كثير : ( وجامع القول فى ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد ، والحلال والحرام ،وما يحصل نوراً فى القلوب ، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية ) .

ولهذا قال : ( الفرقان ) ، ( وضياء ) ، ( وذكرا للمتقين ) أى تذكيرا لهم وعظة .

ثم وصفهم ، فقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ كقوله : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾(١) ، وقوله : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ ، كقوله جل شأنه : ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾(٣) ، وإنما هم مشفقون منها لما لها من أهوال عظام ، وأخطار جسام : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٤) .

فاعجب معى لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ؟ ولمن يؤمن بالنار كيف يضحك ؟ ولمن يؤمن بالحساب غدا ، ثم هو لا يعمل ؟ ولمن يؤمن بالرزق ثم هو ينصَب ؟ ولمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف اطمأن قلبه إليها ؟ .

واعجب معى لغافل ، وليس بمغفول عنه ، ولضاحك ملء فيه لا يدرى آلله راض عنه أم ساخط عليه ؟ وللوقوف بين يدى الله لا يدرى أينطلق بصاحبه إلى الجنة أم إلى النار ؟ ولمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه .

واحزن معى لفراق الأحبة ، محمد وصحبه ، ولهول المطلع عند سكرات الموت :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهبٌ والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ :

إشارة تعظيم إلى الكتاب العزيز .

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٥) .

وقال جل شأنه : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾(٦) .

إنه الشرف والعز والقوة والأمن والأمان : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾(٧) .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة ق .
(٢) الآية ١٢ من سورة الملك .
(٣) الآية ١٨ من سورة الشورى .
(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٥) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٦) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .
(٧) الآية ٩ من سورة الإسراء .

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[١] .

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٢] .

إنه الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ) [٣] .

ما كان يليق بالعقلاء أن ينكروا ما جاء به خاتم الأنبياء ، ما كان لهم لو كانوا يملكون مسكة من عقل أن يقولوا : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قد أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيماً ﴾[٤] .

قوله تعالى : **﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾** :

وتمضى بنا الآيات البينات فى زحفها المقدس ، فبعد أن أضاءت لنا الطريق لذكر موسى وهارون ، قفت بالحديث عن إبراهيم الخليل ، الذى مدحه الله تعالى بما منحه ، فأعطاه الرشد ، وألهمه الحكمة منذ الصغر ، والحق جل جلاله يؤتى الحكمة من يشاء ، ويمنحها أهلها ، لأنه حكيم ، منزه عن العبث ، لذا قال سبحانه : ﴿ وكنا به عالمين ﴾ .

وعلم الله مقترن بالحكمة : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾[٥] .

ثم يذكر الله تعالى صورة من صور الرشد الذى آتاه إبراهيم ، فيقول : **﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾** .

إنه بذلك ينكر على قومه عبادتهم للأصنام ، فالاستفهام هنا استفهام توبيخ وتقريع وإنكار ، واسم الإشارة هنا دال على التحقير : ﴿ أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾[٦] .

قال جل شأنه : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .
(٢) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٤) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة الفرقان .
(٥) الآية ١٦ من سورة الأنبياء .
(٦) الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة الصافات .

كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[١] .

ويأتى رد هؤلاء المقلدين فى الضلال : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ .

كأن الله لم يخلق لهم عقولا ، ولم يرسل إليهم رسولاً ، ولم يبين لهم طريق الرشد من الغى .

إنهم قالوا : ﴿ وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[٢] .

وقالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾[٣] .

فاعجب معى كيف أغلقوا كل طريق إلى المعرفة ، وسدوا كل نافذة إلى النور .

إنهم كما قال سبحانه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٤] .

لقد جاء رد إبراهيم حاسما ، وحكمه عليهم قاطعا : ﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ .

وأى ضلال هذا ؟ وأى غواية تلك يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئاً ؟ .

﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ :

وهكذا يرمى أهل الضلال أصحاب الهدى باللعب والاستهزاء واللهو ، وإذا بالحق يسطع ، والهدى يصيح ، فالحق واضح ، والمنادى صائح ، والحق أبلج ، والباطل لجلج .

﴿ قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ :

نعم ، إن لهذا الكون خالقا قادرا ، بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والأرض واتساعها ، والشمس وشعاعها ، والنجوم ومسارها ، والرياح وسريانها ، والجبال ورسوخها ، والبحار وأمواجها ، وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ،

(١) الآيات ٦٩ - ٨٢ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الزخرف .
(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الزخرف .
(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكره ، ولا يغفل عن شكره .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا

سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره . ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾[1] .

وينتقل الموقف من إقامة البراهين إلى العمل والتنفيذ .

قوله تعالى : **﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾** :

ثم أقسم الخليل قسما أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم ، أى ليحرض على أذاهم وتكسيرهم ، بعد أن يولوا مدبرين ، أى إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه .

قال السدى : لما اقترب وقت ذلك العيد ، قال أبوه : يا بنى لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض ، وقال : **﴿ إنى سقيم ﴾** فجعلوا يمرون عليه وهو صريع ، فيقولون : مه . فيقول : إنى سقيم ، فلما جاز عامتهم ، وبقى ضعفاؤهم ، قال : **﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾** فسمعه أولئك .

وقال ابن إسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : ( لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم ، مروا عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إنى سقيم ، وقد كان بالأمس قال : **﴿ تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾** فسمعه ناس منهم .

وقوله : **﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾** : أى حطاما ، كسرها كلها إلا كبيرا لهم ، يعنى إلا الصنم الكبير عندهم ، كما قال : ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾[2] .

وقوله : **﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾** :

ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم ، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه ، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها .

**﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾** :

أى حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها ، وعلى سخافة عقول عابديها : **﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾** .

أى فى صنيعه هذا .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الروم .
(٢) الآية ٩٣ من سورة الصافات .

**﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾** : أى قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم : سمعنا فتى ، أى: شابا يذكرهم ، يقال له إبراهيم .

وقوله : **﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾** : أى: على رؤوس الأشهاد ، على الملأ الأكبر ، بحضرة الناس كلهم .

وكان هذا الذى أرادوه هو المقصود الأعلى لخليل الرحمن ، حتى يشهد الناس ضلالهم وبهتانهم ، ويعلموا أن الحق هو ما دعا إليه الخليل ، كما قال موسى لفرعون : **﴿ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾**(١) .

ذلك ليكون للحق موقفه المشهود ، على مرأى ومسمع .

وبدأت المحاكمة : **﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾** .

وقد أراد إبراهيم بهذه الإجابة أن يبادرهم بالعلم ، بأن هؤلاء لا ينطقون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا ينفعون ولا يضرون .

**﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾** :

جاء فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : اثنتين فى ذات الله ، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله: ﴿ إنى سقيم ﴾ - قال : ,وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ،{ومعه سارة ، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل ، فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختى . قال : فاذهب فأرسل بها إلىّ ، فانطلق إلى سارة . فقال : إن هذا الجبار قد سألنى عنك ، فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذبينى عنده ، فإنك أختى فى كتاب الله ، وأنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ، ثم قام يصلى ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها ، فتناولها ، فأخذ أخذا شديدا . فقال : إدعى الله لى ولا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولين . فقال : إدعى الله فلا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأتنى بإنسان ، ولكنك أتيتنى بشيطان ، أخرجها ، وأعطها هاجر ، فأخرجت وأعطيت هاجر ، فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال : مهيم . قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر ، وأخدمنى هاجر )(٢) .

قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بنى ماء السماء .

قوله تعالى : **﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أفٍّ لكم**

(١) الآية ٥٩ من سورة طه .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٠٤ .

**ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾** .

**﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾** : أى:فرجعوا على أنفسهم بالملامة ، إذ علموا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على إلحاق الضر بمن ألحق به الأذى ، يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره ، أوجلب منفعة له ، وإذا فكيف يستحق أن يكون معبودا ؟

ثم بين ملامتهم لأنفسهم بقوله : **﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾** : أى:فقال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون بعبادة ما لاينطق ، وما هذا منكم إلا غرورا وجهل بما ينبغى أن تكون عليه حال المعبود .

ثم أبان أنهم أركسوا بعدئذ ، ورجعوا عن فكرة سليمة لا غبار عليها بوصفهم أنفسهم بالظلم ، إلى فكرة خاطئة ، وهى الحكم بصحة عبادتها مع اعترافهم ، بأن حالهم دون حال الحيوان ، فلا ينبغى لعاقل أن يعبدها .

فقال : **﴿ ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾** .

أى:لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا إنما اتخذناهم آلهة ، مع علمنا بأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ، وإنما قال ( ينطقون ) ولم يقل يسمعون أو يعقلون ، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، من قبل أن نتيجة السؤال الجواب ، وأن عدم نطقهم أبلغ فى تبكيتهم .

**﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾** :

أى:قال إبراهيم مبكتا لهم : أفتعبدون غير الله معبودات لا تنفعكم شيئا ، فتعلقوا رجاءكم بها ، ولا تضركم شيئا فتخافوها .

**﴿ أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾** : أى:تبًّا لكم وقبحا لمعبوداتكم التى اتخذتموها من دون الله .

**﴿ أفلا تعقلون ﴾** : أى:أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذى لا يروج إلا على جاهل فاجر ، وأنتم الشيوخ الذين بلوا الزمان حلوه ومره ، وحنكتهم تجارب الأيام ، فمن حقكم أن تعاودوا الرأى ، وتقلبوه ظهرا لبطن ، لعلكم ترشدون بعد الضلال ، وتهتدون بعد الغى ، والعمى .

قوله تعالى : **﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾** :

أصدرت محكمة الأرض حكمها على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، فأصدرت محكمة السماء حكمها لإبراهيم بالإفراج فوراً .

وهكذا قال الله للنار **﴿ كونى برداً وسلاماً ﴾** فلو قال لها : كونى برداً على إبراهيم ، لتجمد من شدة البرودة ، ولو قال : كونى سلاما على إبراهيم ، لتأذى من شدة حرارتها ولكنه تعالى جعلها برداً وسلاماً ، ليجمع له بين البرودة والسلامة من كل أذى ، فتنزع منها الحرارة والإحراق ، وأبقاها على

الإضاءة والإشراق ، فمن الذى بيده الأمر كله إلا الله .

تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وكن شديد الثقة فيمن بيده ملكوت السموات والأرض .

قال العلامة ابن كثير : لما دحضت حجتهم وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل ، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا : ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فجمعوا حطبا كثيراً جداً .

قال السدى : حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطبا لحريق إبراهيم ، ثم جعلوه فى جوبة من الأرض ، وأضرموها ناراً ، فكان لها شرر عظيم ، ولهب مرتفع ، لم توقد نار قط مثلها .

وجعلوا إبراهيم عليه السلام فى كفة المنجنيق ، بإشارة رجل من أعراب من فارس الأكراد .

قال شعيب الجبائى : اسمه هيزن ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

فلما ألقوه قال : ( حسبى الله ونعم الوكيل ) كما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال : ( حسبى الله ونعم الوكيل ) قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

وروى الحافظ أبو يعلى ، حدثنا أبو هشام ، حدثنا إسحق بن سليمان عن أبى جعفر ، عن عاصم ، عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( لما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك ) .

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : ( لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك ) .

وقال شعيب الجبائى : كان عمره إذ ذاك ست عشرة ، فالله أعلم .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما من الله فبلى .

وقال سعيد بن جبير : ويروى عن ابن عباس أيضاً قال : لما ألقى إبراهيم فى النار جعل خازن المطر يقول : متى أؤمر بالمطر فأرسله ؟ قال : فكان أمر الله أسرع من أمره ، قال الله : ﴿ يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ قال : لم يبق نار فى الأرض إلا طفئت .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد يومئذ بنار ، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه .

وقال على بن أبى حاتم بسنده عن المنهال بن عمر ، قال : أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار ، قال : فكان فيها إما خمسين ، وإما أربعين . قال : ما كنت أياما وليالى فقط أطيب عيشا إذ كنت فيها ، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها .

وقوله : ﴿ **وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ : أى:المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبى الله كيدا ، فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك .

وقال عطية العوفى : لما ألقى إبراهيم فى النار جاء ملكهم لينظر إليه ، فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته ، مثل الصوفة .

قوله تعالى : ﴿ **ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين * ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلًا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين * ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين** ﴾ .

﴿ **ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾ :

قال قتادة : كان بأرض فى العراق ، فأنجاه الله إلى الشام .

وقوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ :

قال عطاء ومجاهد : عطية .

وقال ابن عباس : النافلة ولد الولد ، يعنى أن يعقوب ولد إسحاق كما قال سبحانه : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾[1] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : سأل واحدا فقال : ﴿ **رب هب لى من الصالحين** ﴾ فأعطاه الله إسحاق ، وزاده يعقوب نافلة .

﴿ **وكلًا جعلنا صالحين** ﴾ : أى الجميع أهل خير وصلاح .

﴿ **وجعلناهم أئمة** ﴾ : أى: يقتدى بهم .

﴿ **يهدون بأمرنا** ﴾ : أى:يدعون إلى الله بإذنه ، ولهذا قال : ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة** ﴾ من باب عطف الخاص على العام .

﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾ : أى: فاعلين لما يأمرون الناس به .

ثم عطف بذكر لوط ، وهو لوط ابن هارون بن آزر ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه ، وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿ **فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى** ﴾ .

فآتاه الله حكما وعلما ، وأوحى إليه وجعله نبيا ، وبعثه إلى سدوم وأعمالها ، فخالفوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم فى غير موضع من كتابه العزيز .

قال تعالى فى سورة هود : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الرّوع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود * ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون**

(١) الآية ٧١ من سورة هود .

إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هُن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾(١) .

وقال تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ولوطا إذا قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرنى على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ :

هو كقوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدِر * وحملناه على ذات ألواح ودُسُر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابى ونذر ﴾(٣) .

وكقوله تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون * قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمى بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين * قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين * قال رب إن قومى كذبون * فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين * فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٤) .

---

(١) الآيات ٧٤ - ٨٣ من سورة هود .
(٢) الآيات ٢٦ - ٣٥ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيات ٩ - ١٦ من سورة القمر .
(٤) الآيات ١٠٥ - ١٢٢ من سورة الشعراء .

**قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون * ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين * ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾ :**

**قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نَفَشَتْ فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ :**

النفش : هو الرعى ليلاً ، أما الهمل فهو الرعى بالنهار .

والقضية ، قال ابن مسعود فى قوله : **﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ :**

**قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته ، قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبى الله . قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وقوله : ﴿ ففهَّمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلما ﴾ :**

قال ابن أبى حاتم بسنده : أن إياس بن معاوية لما استقصى ، أتاه الحسن ، فبكى ، فقال : مايبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ، بلغنى أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو فى النار ، ورجل مال به الهوى فهو فى النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة . فقال الحسن البصرى : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : **﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾** فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ، ثم قال ـ يعنى الحسن ـ : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لايشتروا به ثمناً قليلاً ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ، ثم تلا : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[1] ، وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾[2] ، وقال : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ﴾[3] .

قال ابن كثير : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر )[4] .

(١) الآية ٢٦ من سورة ص .

(٢) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الأحكام : ٣ . والبخارى فى الاعتصام : ٣ . والنسائى فى القضاء : ٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٨٧ ، وفى

وفى السنن : ( القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل بين الناس على جهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار )[١] .

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقه ؛ فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى )[٢] .

**﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾** :

وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويبا ، ولهذا لما مر النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جداً ، فوقف واستمع لقراءته ، وقال : ( لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود ) . قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً )[٣] .

وقوله تعالى : **﴿ وكنا فاعلين ﴾** : أى:وكنا فاعلين لأمثاله ، فليس ذلك ببدع منا ، وإن كنتم أنتم تعجبون منه ، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم كله فى نظرهم مسبحا ، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال ، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه .

ونحو الآية : **﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾**[٤] .

قوله تعالى : **﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾** : يعنى صنعة الدروع .

قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقا ، كما قال تعالى : **﴿ وألنَّا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد ﴾**[٥] أى:لا توسع الحلقة فتفلق المسمارة ، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ، ولهذا قال سبحانه : **﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾** يعنى فى القتال .

**﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾** : أى:أنعم الله عليكم ، لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأقضية : ٢ . وابن ماجة فى الأحكام : ٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٠ . ومسلم فى الأقضية : ٢٠ . والنسائى فى القضاة : ١٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٣١ . ومسلم فى المسافرين : ٢٣٥ ، ٢٣٦ . والترمذى فى المناقب : ٥٥ . والنسائى فى الافتتاح : ٨٣ . وابن ماجة فى الإقامة : ١٧٦ . والدارمى فى الصلاة : ١٧١ ، وفى فضائل القرآن : ٣٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦٩ .

(٤) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ١٠ ، ١١ من سورة سبأ .

وقوله : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ : أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ، ﴿ تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ يعنى أرض الشام .

﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ : ذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ، كما قال سبحانه : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾[2] .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال : ( كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسى ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتظلهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم ﷺ ، كل هذا وهو مطأطىء رأسه ، ما يلتفت يميناً ولا شمالاً ، تعظيماً لله عز وجل وشكراً، لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله عز وجل ، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه ) .

﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ : أي: فى الماء يستخرجون اللآلىء والجواهر ، وغير ذلك .

﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ : أي: غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ : أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل فى قبضته وتحت قهره ، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه ، بل هو يحكم فيهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ .

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية ، فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده ، فى سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وأفرد فى ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته ، كانت تقوم بأمره ، وقد قال ﷺ : ( أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل )[4] .

وفى الحديث الآخر : ( يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه )[5] .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة ص . (٢) الآية ١٢ من سورة سبأ .

(٣) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة ص .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ . والبخارى فى المرضى : ٣ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والدارمى فى الرقاق : ٦٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٩٨٥ ، وفى ٦ : ٣٦٩ .

(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والدارمى فى الرقاق ٦٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ .

وقد كان نبى الله أيوب عليه السلام غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .

وقال يزيد بن ميسرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ، ولم يبق شىء له أحسن الذكر ، ثم قال : أحمدك رب الأرباب الذى أحسنت إلىّ ، أعطيتنى المال والولد ، فلم يبق من قلبى شعبة إلا قد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كله منى ، وفرغت قلبى ، فليس يحول بينى وبينك شىء ، لويعلم عدوى إبليس بالذى صنعت حسدنى . قال : فلقى إبليس من ذلك منكرا .

قال : وقال أيوب عليه السلام : يارب إنك أعطيتنى المال والولد فلم يقم على بابى أحد يشكونى لظلم ظلمته ، وأنت تعلم ذلك وإنه كان يوطأ لى الفراش فأتركها ، وأقول لنفسى : يا نفس إنك لم تخلقى لوطء الفراش ، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك .

وقد روى أنه مكث فى البلاء مدة طويلة .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن الزهرى ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ( إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ، ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين . فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب عليه السلام : ما أدرى ما تقول ، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى ، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق .

قال : وكان يخرج فى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله فى ثوبه ، قال : فقيل له : يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يا رب ومن يشبع من رحمتك ) .

وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ :

قال ابن عباس : ردوا عليه بأعيانهم .

وقال بعض المفسرين : أى:وأعطيناه فى الدنيا مثل أهله عددا ، مع زيادة مثل آخر ، فولد له من الأولاد ضعف ما كان .

قوله : ﴿ رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾

أى:فعلنا به ذلك رحمة من الله به ، وذكرى للعابدين ، أى:وجعلناه فى ذلك قدوة ، لئلا يظن أهل البلاد إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به فى الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة فى ذلك .

(١) الآية ٤٢ من سورة ص .

**قوله تعالى : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ :**

فانظر إلى هذا الفضل العميم الذى أسبغه الله على هذه الكوكبة النورانية من الأنبياء ، وكيف أثنى عليهم بأنهم من الصابرين .

ثم جاء الفضل متمثلا فى الصلاح والتقوى ، حيث يقول تعالى : ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ .

فما أجمل الصبر ، وما أعظم الصلاح ، وما أحل الجزاء إذا كان إدخالاً فى رحمة الله .

كان أحد الصالحين يقول : عجبت لمن ابتلى بأربع كيف ينسى أربعاً : عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وقد قال الله جل شأنه : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾[1] .

وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ .

وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ .

وعجبت لمن ابتلى بالمكر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾[2] ، وقد قال تعالى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾[3] .

وبشر الصابرين .

ما أعظم جزاء الصابرين ، وما أجل قدره ، إنهم الذين قال الله فيهم : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[4] ، وقال فيهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[5] .

وعن أبى مالك الحارث بن عاصم الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات

(١) الآيتان ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٤٤ من سورة غافر .
(٣) الآية ٤٥ من سورة غافر .
(٤) الآية ١٠ من سورة الزمر .
(٥) الآيات ١٥٣ ـ ١٥٧ من سورة البقرة .

والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ﴾[١] رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : ( ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغنِ يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر )[٢] . متفق عليه .

وعن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له )[٣] . رواه مسلم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : ( لما ثَقُلَ النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة رضى الله عنها : واكرب أبتاه . فقال : ( ليس على أبيك كرب بعد اليوم ) . فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، فلما دفن قالت فاطمة رضى الله عنها : أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب )[٤] . رواه البخارى .

وعن أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وحِبهِ ، وابن حبه ، رضى الله عنهما ، قال : أرسلت بنت النبى ﷺ إن ابنى قد احتضر فاشهدنا ، فأرسل يقرىء السلام ويقول : ( إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب ) فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها ، فقام ومعه سعد بن عُباده ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورجال ، رضى الله عنهم ، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى فأقعده فى حجره ، ونفسه تقعقع ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال : ( هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده ) وفى رواية : ( فى قلوب من شاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء )[٥] . متفق عليه .

وعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( كان ملك فيمن قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلىّ غلاما أعلمه السحر ؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه ، وكان فى طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ،

---

(١) أخرجه مسلم فى الطهارة : ١ . والترمذى فى الدعوات : ٨٦ . والدارمى فى الوضوء : ٢ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٦٠ ، وفى ٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٠ ، وفى الزكاة : ١٨ ، ٥٠ ، ومسلم فى الزكاة : ١٢٤ . وأبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٧٦ . والنسائى فى الزكاة : ٨٥ ، ٨٩ . والدارمى فى الزكاة : ١٨ . والإمام مالك فى الصدقة : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣ ، ٩ ، ١٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٩٣ ، ٤٠٣ ، ٤٣٤ ، وفى ٤ : ١٣٨ .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى المغازى : ٨٣ . وابن ماجه فى الجنائز : ٦٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٤١ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٢ ، وفى الإيمان : ٩ ، وفى المرضى : ٩ ، وفى التوحيد : ٢٥ . ومسلم فى الجنائز : ٩ ، ١١ . وأبو داود فى الجنائز : ٢٤ ، وفى الأدب ؛ ٥٨ ، والنسائى فى الجنائز : ٢٢ . وابن ماجه فى الجنائز : ٥٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو على ذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بُنىَّ أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على ، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء .

فسمع جليس للملك كان قد عَمِىَ ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى . فقال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله تعالى ، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله تعالى ، فشفاه الله تعالى ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربى . قال : ولك رب غيرى ؟! قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجىء بالغلام . فقال له الملك : أى بنى ، قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل . فقال : إنى لا أشفى أحداً إنما يشفى الله تعالى ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب .

فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شِقَّاه .

ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به ، حتى وقع شقاه .

ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل بأصحابك فقال : كفانيهم الله تعالى .

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به ، فاحملوه فى قُرقُور وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم أكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل بأصحابك ؟ فقال كفانيهم الله تعالى .

فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلُبُنى على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتى ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمنى ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى .

فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم فى صُدغه ، فوضع يده فى

صدغه فمات . فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فأتى الملك ، فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس .

فأمر بالأخدود بأفواه السكك ، فَخُدَّت وأضرم فيها النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبرى فإنك على الحق )[١] . رواه مسلم .

( **ذروة الجبل** ) : أعلاه ، و ( **القُرقُور** ) بضم القافين : نوع من السفن ، **والصعيد** هنا : الأرض البارزة ، ( **الأخدود** ) : الشقوق فى الأرض ، ( **أضرم** ) : أوقد ، ( **انكفأت** ) : انقلبت ، ( **تقاعست** ) : توقفت وجَبُنت .

وعن أنس رضى الله عنه قال : مر النبى ﷺ بامرأة تبكى عند قبر ، فقال : « اتقى الله واصبرى » . فقالت : إليك عنى ، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتى ! ولم تَعرِفْه ، فقيل لها : إنه النبى ﷺ فأتت النبى ﷺ فلم تجدْ عنده بوَّابين ، فقالت : لم أعرفك . فقال : ( إنما الصبرُ عند المصيبة الأولى )[٢] . متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : [ ما لعبدى المؤمن عندى جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة ][٣] . رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه « كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء ، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع فى الطاعون فيمكث فى بلده صابراً محتسباً ، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثلُ أجر الشهيد »[٤] . رواه البخارى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة )[٥] . يريد عينيه . رواه البخارى .

وعن عطاء بن أبى رباح قال : قال لى ابن عباس رضى الله عنهما : ( ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت : إنى أصرع ، وإنى أتكشَّف فادع الله تعالى لى . قال : ( إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يُعافيك ) فقالت : أصبر ، فقالت : إنى أتكشف ، فادع الله أن لا أتكشَّف فدعا لها )[٦] . متفق عليه .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال كأنى أَنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى أن نبيا من

(١) أخرجه مسلم فى الزهد : ٧٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٢ ، ٤٣ ، وفى الأحكام : ١١ . ومسلم فى الجنائز : ١٤ ، ١٥ . وأبو داود فى الجنائز : ٢٣ . والترمذى فى الجنائز : ١٣ . والنسائى فى الجنائز : ٢٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٣٠ ، ١٤٣ ، ٢١٧ .

(٣) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٢٣ . والبخارى فى الرقاق : ٦. والإمام أحمد فى ٢ : ٤١٧ .

(٤) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٥٤ ، وفى الطب : ٣١ . والإمام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ١٥٤ ، ٢٥٢ .

(٥) أخرجه البخارى فى المرضى : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٤٤ .

(٦) أخرجه البخارى فى المرضى : ٦ . ومسلم فى البر : ٥٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٤٧ .

الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم ، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ، يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون »[١] . متفق عليه .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه »[٢] متفق عليه . ( والوصب : المرض ) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك فقلت : يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً قال : « أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم » . قلت : ذلك أن لك أجرين ؟ قال : « أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها إلا كفرّ الله بها سيئاته ، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها »[٣] . متفق عليه . و « الوعك » مغثُ الحمى وقيل الحُمَّى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يُصبْ منه »[٤] . رواه البخارى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنَّين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلاً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى »[٥] . متفق عليه .

وعن خبَّاب بن الأرت رضى الله عنه : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعلُ نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[٦] . رواه البخارى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ( لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً فى القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حفص مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة . فقال رجل : والله إن هذه قسمة ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجه

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء ٥٤ ، وفى المرتدين : ٥ . ومسلم فى الجهاد : ١٠٤ . وابن ماجة فى الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى المرضى : ٣ ، ١٣ ، ١٦ . ومسلم فى البر : ٤٥ ، والدارمى فى الرقاق : ٥٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨١ ، ٤٤١ ، ٤٥٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى المرضى : ٣ ، ١٦ . ومسلم فى البر : ٤٥ . وابن ماجه فى الأدب : ٥٦ . والدارمى فى الرقاق : ٥٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨١ ، ٤٤١ ، ٤٥٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى المرضى : ١ . والإمام مالك فى العين : ٧ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٧ .

(٥) أخرجه البخارى فى المرضى : ١٩ ، وفى الدعوات : ٢٩ . ومسلم فى الذكر : ١٠ . وأبو داود فى الجنائز : ٩ . والترمذى فى الجنائز : ٣ ، وفى الزهد : ٣١ ، ٣٧ . والنسائى فى السهو : ٦٢ ، وفى الجنائز : ١ . وابن ماجه فى الزهد : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٧١ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢٤٧ ، ٢٨١ ، وفى ٤ : ٢٦٤ .

(٦) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٢٩ ، وفى المناقب : ٢٥ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٥٧ ، وفى ٦ : ٣٩٥ .

الله ، فقلت : والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته ، فأخبرته بما قال : فتغير وجهه حتى كان كالصِّرف . ثم قال : ( فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ ) ثم قال : ( يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر ) فقلت :( لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثا )[١] متفق عليه . و « الصِّرف » : صبغ أحمر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة »[٢] .

وقال النبى ﷺ : « إن عِظَمَ الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سَخِطَ فله السُّخط »[٣] . رواه الترمذى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان ابنٌ لأبى طلحة رضى الله عنه يشتكى ، فخرج أبو طلحة ، فقُبِض الصبى ، فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابنى ؟ قالت أم سُلَيْم وهى أم الصبى : هو أسكن ما كان ، فقرَّبَت إليه العشاء فتعشَّى ، ثم أصاب منها ، فلما فرغ قالت : واروا الصبى ، فلما أصبح أبو طلحة ، أتى رسول الله ﷺ فقال : « أعرَّستم الليلة ؟ » قال : نعم ، قال : « اللهم بارك لهما » . فولدت غلاماً ، فقال لأبى طلحة : احمله حتى تأتى به النبى ﷺ وبعث معه بتمرات ، فقال : « أمعه شىء ؟ » قال : نعم ، تمرات ، فأخذها النبى ﷺ فمضغها ، ثم أخذها من فيه فجعلها فِى فِى الصبى ، ثم حكه وسماه عبد الله )[٤] . متفق عليه .

وفى رواية للبخارى : قال ابن عيينه : فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرؤ وا القرآن ، يعنى من أولاد عبد الله المولود .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[٥] . متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله ، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة »[٦] . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : « إنها ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها ! قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم ، وتسألون الله الذى لكم »[٧] متفق عليه . و « الأثرة » : الانفراد بالشىء عمَّن له فيه حقٌّ .

(١) أخرجه البخارى فى الخمس : ٨٩ وفى الأنبياء : ٢٧ ، وفى المغازى : ٥٦ ، وفى الأدب : ٥٣ ، ٧١ ، وفى الاستئذان : ٤٧ . ومسلم فى الزكاة : ١٤٠ ، ١٤١ . والترمذى فى المناقب : ٦٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٣٩٦ ، ٤١١ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ٤٢٧ - ٤٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٤٥ ، وفى العقيقة : ١ ، وفى الأدب : ١٠٩ . ومسلم فى الأدب : ٢٣ - ٢٨ . والترمذى فى المناقب : ٤٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٩ ، وفى ٦ : ٩٣ ، ٣٤٧ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٠٢ . ومسلم فى البر : ١٠٦ - ١٠٨ . والإمام مالك فى حسن الخلق : ١٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٢ ، وفى ٢ : ٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٥١٧ .

(٦) أخرجه مسلم فى المنافقين : ٥٨ . والترمذى فى الزهد : ٥٧ ، وفى الأدب : ٧٩ . وابن ماجة فى الفتن : ٣٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٣٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٤٥٠ ، ٥٢٣ .

(٧) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٨ . ومسلم فى الإمارة : ٤٥ ، ٤٨ .

وعن أسيد بن الحضير رضى الله عنه أن رجلاً من الأنصار قال : يا رسول الله ألا تستعملنى كما استعملت فلاناً . فقال : « إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض »[١]. متفق عليه .

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو ، انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال النبى ﷺ : « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم »[٢]. متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ :

قال العلامة ابن كثير : هذه القصة مذكورة ههنا ، وفى سورة الصافات ، وفى سورة نٓ .

وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهى قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مفاجئاً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا من ذلك ، وعلموا أن النبى لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾[٣].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فلججت بهم ، وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾[٤] أى وقعت عليه القرعة ، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم ألقى نفسه فى البحر ، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتا يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنما بطنك تكون له سجناً .

وقوله تعالى : ﴿ وذا النون ﴾ : يعنى الحوت ، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة .

---

(١) أخرجه البخارى فى الفتن : ١ ، ٢ ، وفى الجنائز : ٧٢ ، وفى الخمس : ١٩ ، وفى المناقب : ٢٥ ، وفى مناقب الأنصار : ٨ ، وفى المغازى : ٥٦ ، وفى الرقاق ٧٠ ، ٥٣ ، وفى التعبير : ٣٠ ، وفى التوحيد : ٢٤ . ومسلم فى الزكاة : ١٣٢ ، وفى الإمارة : ٤٥ ، وفى الفضائل : ٢٧ ، ٢٨ . والترمذى فى القيامة : ٩ ، وفى الفتن : ٢٥ ، والنسائى فى القضاة : ٤ . والدارمى فى المقدمة : ١٤ . وللإمام أحمد فى ٣ : ٥٧ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ٢٢٤ ، ٣٤٥ ، وفى ٤ : ٤٢ ، ٢٩٢ ، وفى ٥ : ١٨٢ ، ١٩٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١١٢ ، ١٥٦ . ومسلم فى الجهاد : ٢٠ ، وأبو داود فى الجهاد : ٨٩ ، . والإمام فى ٤ : ٣٥٤ .

(٣) الآية ٩٨ من سورة يونس .

(٤) الآية ١٤١ من سورة الصافات .

وقوله : ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ : قال الضحاك : لقومه ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ : أى:نضيق عليه فى بطن الحوت .

﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ .

قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

قال محمد بن إسحق بسنده؛عن أم سلمة أنها سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً ، فقال فى نفسه : ما هذا ؟ . فأوحى الله إليه وهى فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : وسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا : ياربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة . قال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر ، قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح . قال : نعم . قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل » ، كما قال تعالى : ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾[1] رواه ابن جرير ، ورواه البزار فى سنده عن طريق محمد بن إسحق عن عبد الله بن رافع عن أبى هريرة .

وروى ابن أبى حاتم بسنده أن يزيد الرقاشى قال : سمعت أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ « أن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت ، قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال : أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : لا يارب ومن هو ؟ قال : عبدى يونس . قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة . قالوا : يارب أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء . قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه فى العراء » .

وقوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ : أى:أخرجناه من بطن الحوت ، وتلك الظلمات .

﴿ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ أى:إذا كانوا فى الشدائد ، ودعونا منيبين إلينا ، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء . فقد جاء الترغيب فى الدعاء به عن سيد المرسلين ﷺ .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : ( مررت بعثمان بن عفان رضى الله عنه فسلمت عليه ، فملأ عينيه منى ثم لم يرد علىَّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب . فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث فى الإسلام شىء مرتين . قال : لا ، وما ذاك ؟ قلت : لا إلا أنى مررت بعثمان آنفا فى المسجد ، فسلمت عليه فملأ عينيه منى ، ثم لم يرد علىَّ السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال

(١) الآية ١٤٥ من سورة الصافات .

سعد : قلت : بلى حتى حلفت وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر ، فقال : بلى وأستغفر الله ، وأتوب إليه إنك مررت بى آنفا ، وأنا أحدث نفسى بكلمة . سمعتها من رسول الله ﷺ ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة . قال سعد : فأنا أنبئك بها ، أن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : « من هذا ، أبو إسحاق ؟ » قال : قلت : نعم يا رسول‌الله . قال : ( فمه ) قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك . قال : ( نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت **﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾** فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له )[1] . رواه الترمذى والنسائى .

وأخرج ابن جرير بسنده عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبى وقاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى » قال : قلت : يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : ( هى ليونس بن متى خاصة ، ولجماعة المسلمين عامة ، إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل : **﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾** فهو شرط من الله لمن دعاه به » .

قوله تعالى : **﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾** :

قال العلامة ابن كثير :

يخبر تعالى عن عبده زكريا ، حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا ، وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة مريم ، وفى سورة آل عمران أيضاً ، وههنا أخصر منها .

**﴿ إذ نادى ربه ﴾** : أى خفية عن قومه ، **﴿ رب لا تذرنى فرداً ﴾** أى لا ولد لى ، ولا وارث يقوم بعدى فى الناس ، **﴿ وأنت خير الوارثين ﴾** : دعاء وثناء مناسب للمسألة .

قال الله تعالى : **﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾** :

أى امرأته ، قال ابن عباس : كانت عاقرا لا تلد ، فولدت .

وقوله تعالى : **﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾** :

أى كانوا يسارعون فى عمل القربات ، وفعل الطاعات .

**﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾** : قال الثورى : رغباً فيما عندنا ، ورهباً مما عندنا .

**﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾** : قال ابن عباس : مصدقين بما أنزل الله .

وقال مجاهد : مؤمنين حقاً .

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٨١ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٠ .

وقال أبو العالية : خائفين .

وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف الملازم للقلب لا يفارقه أبداً .

وقال الحسن وقتادة : خاشعين ، أى متذللين لله عز وجل وكل هذه الأقوال متقاربة .

وأخرج ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله القرشى عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال : ( أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسئلة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ :

هكذا يذكر تعالى قصة مريم ، وابنها عيسى عليهما السلام ، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر أولاً قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير ، قد طعن فى السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر ، هكذا وقع فى سورة آل عمران ، وسورة مريم ، وههنا ذكر قصة زكريا . ثم أتبعها بقصة مريم بقوله :

﴿ والتى أحصنت فرجها ﴾ : يعنى مريم عليها السلام ، كما قال تعالى فى سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ : أى دلالة على أن الله على كل شىء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ : أى إن الدين عند الله هو الانقياد له وحده ، لا يقبل غيره ، وعليه اتفق جميع الأنبياء والشرائع .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ : يقول دينكم دين واحد .

وقال الحسن البصرى : فى هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون ، ثم قال : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ : أى سنتكم سنة واحدة ، فقوله : إن هذه ، إن واسمها ، وأمتكم خبر إن ، أى هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم .

﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ : كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾[3]

وقال رسول الله ﷺ : ( نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد )[4] .

(١) الآية ١٢ من سورة التحريم . (٢) الآية ٢٥٩ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة المؤمنون .

(٤) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٨ . ومسلم فى الفضائل : ١٤٣ ، ١٤٤ . وأبو داود فى السنة : ١٣ .

يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[1] .

## الجزاء العادل

قال تعالى :

وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

**المفـردات** ﴿ تقطعوا أمرهم بينهم ﴾ : أي: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا .

﴿ حـرام ﴾ : أي: ممتنع .

﴿ وقرية ﴾ : أي: أهلها .

﴿ أهلكناها ﴾ : أي: قدرنا هلاكها .

﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ : تقدم الكلام فيهما وفى بيان أصلها .

﴿ وحدب ﴾ : أي: مرتفع من الأرض .

﴿ ينسلون ﴾ : أي: يسرعون .

﴿ واقترب ﴾ : أي: قرب .

﴿ الوعد الحق ﴾ : هو يوم القيامة .

﴿ شاخصة ﴾ : أي: مرتفعة أجفانها لا تكاد تطرف من شدة الهول .

﴿ الويل ﴾ : الهلاك .

﴿ الحصب ﴾ : ما يُرمى بِهِ فى النار لاشتعالها .

**والزفير** : صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف .

**والحسنى** : أي: الكلمة الحسنى التى تتضمن البشارة بثوابهم حين الجزاء على أعمالهم .

**والحسيس** : الصوت الذى يحس من حركتها .

**والسجل** : هو الصحيفة .

**الزبور** : الكتب التى أنزلت على الأنبياء .

**والذكر** : اللوح المحفوظ .

**البلاغ** : الكفاية .

**والعابد** : من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

**مسلمون** : أي: منقادون خاضعون .

**تولوا** : أي: أعرضوا .

**آذنتكم** : أي: أعلمتكم وكثر استعماله فى الإنذار كما فى قوله : ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾[1] .

**ما توعدون** : من غلبة المسلمين عليكم .

**فتنة** : أي: اختبار .

**واحكم** : أي: اقض .

**وبالحق** : أي: العدل ، والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم .

**ما تصفون** : أي: ما تقولون وتفترون من الكذب كقولكم : ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾[2] ، وقولكم : إن للرحمن ولدا ، سبحان الله عما يصفون .

(١) الآية ٢٧٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٥ من سورة الأنبياء .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص جمع من الأنبياء : كنوح وإبراهيم وإدريس وموسى وعيسى ، وبيّن مما أوتوا من الشرائع والأحكام على وجه الإجمال ، وأن الدين عند الله واحد ، فعليكم أيها المسلمون أن تحافظوا على وحدة دينكم ، وألا تجعلوه عضين ، وكأنه يقول لهم : عليكم ألا تركنوا إلى خوارق العادات كما رأيتم فى قصص موسى ، ولا تدعوا نظم الدولة بل سوسوها كما كان يفعل داود وسليمان ، ولا تذروا الصبر فى جميع الأعمال كما رأيتم فى قصص أيوب ومن بعده .

وبعد أن ذكر ذلك سبحانه ، نعى على المسلمين ما سيحدث منهم فى مستأنف الزمان حين يتفرقون شيعا ، يذيقون بعضهم بأس بعض ، ويجعلون الدين قطعاً فيما بينهم ، كما تتوزع الجماعة الشىء يقتسمونه ، فيصير لهذا نصيب ، ولذاك آخر .

وهذا إخبار بالغيب لما سيحصل فى هذه الأمة الإسلامية ، وقد حدث فعلا وافترقت الأمة سياسياً واجتماعيا بوساطة بعض رؤساء الدين ، فأعرض الله عن هؤلاء المختلفين وقطعهم بين الأمم ، كما قطعوا أمرهم بينهم واقتسموه .

ثم بين سبحانه أنه يثيب عباده على صالح الأعمال إذا كانت القلوب عامرة بالإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإن كل عمل جلّ أو قلّ فهو مكتوب محفوظ لديه ، لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وأن جميع الخلق إليه راجعون ، فيثيب كل إنسان بما عمل من خير أو شر ، وأن الساعة قد اقترب ميقاتها ، ثم أخبر أن المشركين يدعون إذ ذاك على أنفسهم بالويل والثبور ، ويقولون يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، وكنا ظالمين لأنفسنا ، ولا ينفع الندم إذ ذاك .

ثم بين سبحانه ما يئول إليه أمرهم بعد الحساب ، وأنهم يكونون هم ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان حطبا للنار حين يردونها ، وأنهم من شدة العذاب فيها يكون لهم أنين وزفير ، حتى لا يسمع بعضهم أصوات بعض ، لفظاعة ما هم فيه من العذاب .

أما من كتبت له السعادة والنجاة من النار ، فأولئك يكونون مبعدين عنها ، لا يسمعون صوت لهيبها ، ولا يخافون من أهوالها وآلامها ، بل يكونون فى نعيم دائم ، وتستقبلهم الملائكة مهنئين لهم قائلين : هذا يومكم الذى كنتم توعدون فى الدنيا .

ثم أعقب ذلك بذكر حال السماء حينئذ ، وأنها تطوى طيا ، وكأنها لم تكن ، كما يطوى الكاتب الطومار الذى يكتب فيه ، ويحوّل ذلك العالم المشاهد إلى عالم آخر ، فيخلق الله أرضا جديدة ، وكواكب جديدة ، ويعيد الناس للحساب ، وهو القادر على ذلك ، فكما قدر على خلقه أول مرة يعيده فى حالة أخرى كما قال : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه أن الدنيا ليست كالآخرة ، فلا يرثها إلا من كان قادرا على إصلاحها ، والانتفاع بخيراتها ، والاستفادة مما على ظاهرها وباطنها ، فمن كان أحصف رأيا ، وأحكم فكرا ملكها وتسلط عليها ، وجنى ثمارها واهتدى إلى ما أودع فيها من الخير .

(١) الآية ٤٨ من سورة إبراهيم .

ثم بين أن ما أوحى إلى الرسول من الشرائع وضروب الهداية كاف جدَّ الكفاية لمن يعتبر بسنن الله في الكون ، فيستفيد منها ما ينفعه فى دينه ودنياه . وبين سبحانه أن الرسول رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين ، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد ، ومن نأى عنه ضل وسار فى طريق الغواية والعناد .

لما ذكر سبحانه وتعالى أن عقيدة الأنبياء واحدة ، وأن ملتهم لا تختلف فكلهم عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، أخبر سبحانه بعد ذلك أن الأمم قد اختلفت على أنبيائها ، وتفرقوا شيعاً ، فمن مصدق بالرسالات إلى مكذب وجاحد عنيد .

قال سبحانه : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ : كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[(١)] .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾ : فالكل إلى الله مرجعهم كما قال سبحانه : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾[(٢)] .

ثم بين الجزاء العادل الذى لا يختلف ولا يتخلف ، فقال سبحانه : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾[(٣)] .

وهنا يقول سبحانه فى بيان هذا الجزاء الأوفى: ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون ﴾ .

فالله جلت قدرته لا يضيع عمل عامل ، ولا يظلم أحداً : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾[(٤)] .

غدا توفى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ :

قال ابن عباس : وجب يعنى قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، وفى رواية عنه أيضاً : أنهم لا يرجعون ،أى: لا يتوبون .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ :

يستمر هذا الحكم الذى حكم الله به على تلك القرى الظالمة إلى أن يفتح السد ، أى حتى يقترب الحساب والبعث بفتح سد يأجوج ومأجوج ، الذى قال الله فيه : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾[(٥)] .

(١) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة المؤمنون
(٢) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الكهف .
(٥) الآية ٩٨ من سورة الكهف .

وإذا الناس يسرعون من كل مكان تلبية لأمر الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾[1] .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ **واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين** ﴾ .

إن الوعد الحق والبعث والجزاء ، وإنه حق ثابت . كما سمى الله هذا اليوم : بالواقعة ، والحاقة ، والطامة ، والصاخة ، والقارعة ، وكان وعد ربى حقاً ، فكل كلام الله صدق : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[2] وسماه الله باليقين : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[3] .

فما حال الظالمين ، وما موقف الكافرين ، إن أبصارهم من هذا اليوم شاخصة أجفانها مرتفعة ، لا تكاد تطرف من هول الساعة ، فياله من يوم ما أطوله ، وياله من جبار ما أعدله ، وياله من خطب ما أهوله .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[4] .

إنهم يقولون بلسان الندم والحسرة عندما يرون الحقائق شاخصة أمامهم : ﴿ **ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا** ﴾ :

أى يا هلاكنا أحضر فهذا أوان مجيئك ، لقد كنا فى غفلة من أمر ربنا ووعده ، وذلك لما أنكروه وجحدوه من وعد الله ووعيده ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين * ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون ﴾[5]

ثم أقروا على أنفسهم بعد ذلك ، فقالوا : ﴿ **بل كنا ظالمين** ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ .

وكما قال جل شأنه : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[6] .

قوله تعالى : ﴿ **إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى**

---

(١) الآية ٩٩ من سورة الكهف .
(٢) الآية الأولى من سورة النحل .
(٣) الآية ٩٩ من سورة الحجر .
(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٥) الآيات ٢٧ ، ٣١ من سورة الأنعام .
(٦) الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الطور .

**أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ .**

أخرج أبوبكر بن مردويه بسنده عن ابن عباس ، قال : جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ فقال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم ، كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا ؟ فنزلت : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يَصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾[١] ، ثم نزلت : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾ .

وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن أن هؤلاء الكافرين ومعبوداتهم فى النار ، ليكون لهم فى ذلك عبرة وتصديق ، لما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾[٢] .

إنهم وما يعبدون من دون الله وقود لجهنم وحطب لها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾[٣] .

فكل هؤلاء واردون لها هم وآلهتهم ، ولو كان هؤلاء المبعدون آلهة ما دخلوها ، ولدفعوا العذاب عنهم ، لكن هؤلاء وآلهتهم ليس لهم من الأمر شىء ، ومن ثم ﴿ **فكل فيها خالدون** ﴾ .

﴿ **لهم فيها زفير** ﴾ أى قال تعالى : ﴿ **لهم فيها زفير وشهيق** ﴾ والزفير إخراج النفس ، والشهيق إدخاله ، فهم يتنفسون فى النار ﴿ **وهم فيها لا يسمعون** ﴾ : أى وهم فى النار لا يسمع بعضهم زفير بعض ، لعظم الهول وفظاعة العذاب .

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء الذين عبدوهم ، استثنى الصالحين كالملائكة وعيسى وعزير ومريم ، فقال سبحانه : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ أى: سبقت لهم رحمتنا ووعدنا بالجنة ، أولئك عن النار مبعدون ، لا يسمعون صوت العذاب ، فهم ﴿ **فى جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة** ﴾[٤]

﴿ **وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ أى: نفخة البعث ، كما قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾[٥] ، وكما قال تبارك اسمه : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾[٦] .

---

(١) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٥٥ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ٦ من سورة التحريم .
(٤) الآيات ١٠ - ١٦ من سورة الغاشية .
(٥) الآية ٨٩ من سورة النمل .
(٦) الآية ٨٧ من سورة النمل .

قوله تعالى : ﴿ **وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾ :

كما قال جل شأنه : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾(١) .

فما أعظم تلك البشرى ، وما أجل وقعها على ذوى النفوس المطمئنة : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون * نزلا من غفور رحيم ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ .

إن هؤلاء لا يلحقهم الفزع حين تطوى السماء وتزال ، وتأتى سماء أخرى جديدة ، وكواكب أخرى .

﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ : هو كقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾(٣) ، وقوله جل شأنه : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾(٤) .

﴿ **وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ : أى: هذا وعد على ذاته أخذه على نفسه ، والله لا يخلف الميعاد ، ووعد الله لايختلف ولا يتخلف ، لأنه القادر ، لذا قال سبحانه : ﴿ **إنا كنا فاعلين** ﴾ .

فسبحان من لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا .

تزود من حياتك للمعاد ... وقم لله واجمع خير زاد
ولاتركنن إلى الدنيا كثيرا ... فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

قوله تعالى : ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ :

قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى:﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر** ﴾ .

فقال : الزبور : التوارة،والإنجيل ، والقرآن .

وقال مجاهد : الزبور الكتب .

وقال سعيد بن جبير : الذكر الذى فى السماء .

وقال مجاهد : الذكر أم الكتاب عند الله .

والخلاصة أن الله تعالى كتب فى أم الكتاب كما كتب فى الكتب السماوية من بعد ذلك أن الأرض ميراث للصالحين من عباده ، فهم المستخلفون فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ إن الأرض

---

(١) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .
(٢) الآيات ٣٠ - ٤٢ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٤٨ من سورة الكهف .

لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[٢] .

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ : إن فى هذا الذى جاء فى هذه السورة الكريمة من الأحكام والوعد والوعيد والقصص ، لبلاغاً لقوم عابدين ، يستطيعون به أن يعرفوا طريق الوصول إلى الله ، وأن يعلموا أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فهى دار سفر،والآخرة دار مقر ، فليأخذوا من سفرهم إلى مقرهم .

ثم يذكر مولانا بعد ذلك حقيقة الرسالة المحمدية ، فيقول سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ : فهو الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير ، رحم الله به العالمين ، حيث أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، وفى هذه الآية دليل على عموم رسالته ﷺ ، فالعالم هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾[٤] ، ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون * فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون * وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين * قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ :

الاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ : يفيد الأمر ، أى:فاسلموا لهذا الإله الواحد ، كما فى قوله تعالى: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾[٦] أى: انتهوا .

﴿ فإن تولوا ﴾ عما جئتهم به من الدين الخالص ، والعقيدة الصافية : ﴿ فقل آذنتكم على سواء ﴾ : أى:أعلمتكم أنى حرب لكم ، كما أنكم حرب لى ، برىء منكم كما أنتم براء منى ، كقوله: ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾[٧]، وقال تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾[٨]، أى:ليكن علمك بنبذ العهود على السواء ، وهكذا ههنا . ﴿ فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ﴾ :

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٥٥ من سورة النور .
(٣) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج .
(٤) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٥) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٦) الآية ٩١ من سورة المائدة .
(٧) الآية ٤١ من سورة يونس .
(٨) الآية ٥٨ من سورة الأنفال .

والمراد بآذنتكم أى: أعلمتكم : ﴿ وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ : إذ علم ذلك عند ربى .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد ﴾ ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾[1] .

إن الذى يعلم ذلك هو الذى يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون .

﴿ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ : أى: وما أدرى سبب تأخير جزائكم ، ولعل ذلك زيادة فى افتتانكم وامتحانكم ، لينظر كيف تعملون ، وإنه ليؤخركم إلى حين ، كى تتمتعوا بلذات الدنيا مع إعراضكم عن الإيمان ، فيكون فى ذلك زيادة عذابكم ، لأن المعرض عن الإيمان مع توالى الآيات وتتابع البينات والنذر ، يكون عقابه أشد .

﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ : أى: قال الرسول : رب افصل بينى وبين من كذبنى من مشركى قومى ، وكفر بك ، وعبد غيرك ، بإحلال عذابك ، ونقمتك به بالعدل الذى يقتضى تعجيل العذاب به وتشديده عليه .

قال قتادة : كان الأنبياء يقولون : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾[2] ، فأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك .

﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أى: والله المستعان على ما تصفون ، من الشرك والكفر ، والكذب والأباطيل ، كقولكم إن الله اتخذ ولداً ، وقولكم فى رسول الله ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾[3] .

وقد كثر استعمال الوصف فى الكتاب الكريم بمعنى الكذب ، كقوله: ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾[4] ، وقوله : ﴿ سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾[5] .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٨٩ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ٥ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ١٣٩ من سورة الأنعام .

# سورة الحج

## مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق ، سوى ست آيات منها ، فهى مدنية : ﴿ **هذان خصمان** ﴾ إلى قوله : ﴿ **صراط الحميد** ﴾ .

**وعدد آياتها** : ثمان وسبعون فى عد الكوفيين ، وسبع للمدنيين ، وخمس للبصريين ، وأربع للشاميين .

**وكلماتها** : ألفان ومائتان وإحدى وتسعون كلمة .

**وحروفها** : خمسة آلاف وخمسة وسبعون .

وسميت سورة الحج ، لاشتمالها على مناسك الحج ، وتعظيم الشعائر ، وتأذين إبراهيم للناس بالحج .

## مقصود السورة إجمالاً

الوصية بالتقوى ، والطاعة ، وبيان هول الساعة ، وزلزلة القيامة ، والحجة على إتيان الحشر والنشر ، وجدال أهل الباطل مع أهل الحق ، والشكاية من أهل النفاق بعد الثبات ، وعيب الأوثان وعبادتها ، وذكر نصرة الرسول ﷺ وإقامة البرهان والحجة ، وخصومة المؤمن والكافر فى دين التوحيد .

وتأذين إبراهيم على الناس بالحج ، وتعظيم الحرمات والشعائر ، وتفضيل القربان فى الموسم ، والمنة على العباد بدفع فساد أهل الفساد ، وحديث البئر المعطلة ، وأنواع الحجة على إثبات القيامة ، وعجز الأصنام وعبادها ، واختيار الرسل من الملائكة والإنس ، وأمر المؤمنين بأنواع العبادة والإحسان ، والمنة عليهم باسم المسلمين ، والاعتصام بحفظ الله وحياطته ، فى قوله تعالى : ﴿ **واعتصموا بالله هو مولكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ .

## المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **يوم ترونها** ﴾ وبعده : ﴿ **وترى الناس سكارى** ﴾ : محمول على : أيها المخاطب كما فى قوله : ﴿ **وترى الفلك** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ ، كما فى سورة لقمان ، لأن هنا ما فى هذه السورة وافق ما قبلها من الآيات وهى : نذير ، القبور ، وكذلك فى لقمان وافق ما قبلها وما بعدها وهى الحيد والسعير والأمور .

قوله : ﴿ **من بعد علم** ﴾ بزيادة ( من ) لقوله : ﴿ **من تراب ثم من نطفة** ﴾ ، وقد جاءت آية

(١) الآية ١٤ من سورة النحل .

النحل بغير من فى قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾[1] لخلوها مما جاء فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ وفى آل عمران وغيرها ﴿ أيديكم ﴾ لأن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، وقيل فى أبى جهل ، وحده ، وفى غيرها نزلت فى الجماعة الذين تقدم ذكرهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى ﴾ قدم الصابئين لتقدم زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ وفى السجدة : ﴿ منها أعيدوا فيها ﴾ لأن المراد بالغم الكرب ، والأخذ بالنفس حتى لا يجد صاحبه متنفساً ، وما قبله من الآيات يقتضى ذلك ، وقوله ﴿ قطعت لهم ثياب من نار ﴾ إلى قوله : ﴿ من حديد ﴾ .

فمن كان فى ثياب من نار فوق رأسه جهنم يذوب من حره أحشاء بطنه ، حتى يذوب ظاهر جلده ، وعليه موكلون يضربونه بمقامع من حديد ، كيف يجد سرورا ومتنفسا من تلك الكرب التى عليه ، وليس فى السجدة من هذا ذكر ، وإنما قبلها : ﴿ فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ وذوقوا ﴾ وفى السجدة ﴿ وقيل لهم ذوقوا ﴾ القول هاهنا مضمر ، وخُص بالإضمار لطول الكلام بوصف العذاب ، وخصت سورة السجدة بالإظهار ، موافقة للقول قبله فى مواضع منها ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ﴿ وقالوا أئذا ضللنا ﴾ ، و ﴿ حق القول ﴾ وليس فى الحج من شىء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾مكررة الآية ٢٣ وموجب التكرار قوله : ﴿ هذان خصمان ﴾ . لأنه لما ذكر أحد الخصمين وهو﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ لم يكن بد من ذكر الخصم الآخر ، فقال سبحانه : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا جنات تجرى من تحتها الأنهار . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين ﴾ وفى سورة البقرة : ﴿ والعاكفين ﴾ لأن ذكر العاكف ههنا سبق فى قوله ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ .

ومعنى : ﴿ والقائمين والركع السجود ﴾ المصلون . وقيل : ﴿ القائمين ﴾ بمعنى المقيمين ، وهم العاكفون ، لكن لمّا تقدم ذكرهم عبر عنهم بعبارة أخرى .

قوله تعالى ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ كرر ؛ لأن الأول متصل بكلام إبراهيم وهو إعتراض ، ثم أعاده مع قوله ﴿ والبدن جعلناها لكم ﴾ .

(١) الآية ٧٠ من سورة النحل .
(٢) الآية ٢٠ من سورة السجدة .

قوله تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ وبعده : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها ﴾ خص الأول بذكر الإهلاك ؛ لاتصاله بقوله : ﴿ فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم ﴾ أى:أهلكتهم ، والثانى بالإملاء ؛ لأن قوله : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ دلّ على أنه لم يأتهم فى الوقت ، فحسن ذكر الإملاء .

قوله تعالى : ﴿ وإن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ هنا ، وفى لقمان ﴿ من دونه الباطل ﴾ لأن هنا وقع عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ، ولهذا أيضا زيد فى هذه السورة اللام فى قوله : ﴿ وإن الله لهو الغنى الحميد ﴾ وفى لقمان : ﴿ إن الله هو الغنى الحميد ﴾ ، إذا لم يكن سورة لقمان بهذه الصفة .

وإن شئت قلت : لمّا تقدم فى هذه السورة ذكر الله سبحانه وتعالى ، وذكر الشيطان ، أكدهما ؛ فإنه خبر وقع بين خبرين ، ولم يتقدم فى لقمان ذكر الشيطان ، فأكد ذكر الله ، وأهمل ذكر الشيطان ، وهذه دقيقة .

## مناسبتها لما قبلها

ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه :

١ - إن آخر السورة قبلها كان فى أمر القيامة كقوله : ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ﴾ ، وقوله : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ ، وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية .

٢ - إنه قد أقيمت فى السورة السالفة الحجج الطبيعية على الوحدانية ،وفى هذه جعل العلم الطبيعى من براهين البعث .

٣ - فى السورة السالفة وما قبلها قصص الأنبياء وبراهينهم لقومهم ، وفى هذه السورة خطاب من الله للأمم الحاضرة ، وهو خطاب يسترعى السمع ويوجب علينا ولو إجمالاً أن نعرف صنع الله فى أرضه وسمائه ، وتدبيره خلق الأجنة والنبات والحيوان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

## المفــردات

**التقوى** : التباعد عن كل ما يكسب الإثم من فعل أو ترك .

**والزلزلة** : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها .

**والذهول** : الدهش الناشىء عن الهمّ والغم الكثير .

**والمرضعة** : الأنثى حال الإرضاع ، والمرضع ما من شأنها أن ترضع ، ولو لم ترضع حال وصفها به .

بدأ الله تعالى السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن الكريم وهى سورة النساء بقوله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[١] .

وفى هذا إشارة إلى المبدأ ، كما بدأ السورة الرابعة من النصف الثانى من القرآن الكريم بقوله : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم** ﴾ .

وفى هذا إشارة إلى المعاد ، لذا ناسب أن يأتى الخطاب إلى الناس جميعاً ، إذ جميعهم يشتركون فى المبدأ والمعاد ( كلكم لآدم وآدم من تراب )[٢] ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾[٣] ، كما أن الجميع سيبعثون ﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾[٤] ، ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾[٥] .

وإذا كان ذلك كذلك فكلهم مأمورون بتقوى الله ، وهل التقوى إلا الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وفى هذه السورة ، إنذار شديد بزلزلة الساعة ، وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة ، هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة قبل قيام الناس من أجداثهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها ﴾[٦] ، وقال تعالى: ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة ﴾[٧] ، وقال تعالى : ﴿ إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بساً ﴾[٨]

فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة .

---

(١) الآية الأولى من سورة النساء .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٤٩ : ٥ ، وفى المناقب : ٧٣ . وأبو داود فى الأدب : ١١١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٥٢٤ .

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٤) الآية ٩٩ من سورة الكهف .

(٥) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الزلزلة .

(٧) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحاقة .

(٨) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الواقعة .

وقال ابن جرير عن علقمة فى قوله: ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ قال : قبل الساعة .

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك فى حديث الصور عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض والصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر ) قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الصور ؟ قال:( قرن ) قال : فكيف هو؟ قال : ( قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء ، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر وهى التى يقول الله تعالى ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾[1] فتسير الجبال فتكون ترابا وترج الأرض بأهلها رجا ، وهى التى يقول الله تعالى:﴿ يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة ﴾[2] فتكون الأرض كالسفينة الموبقة فى البحر ، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها ، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح ، فيمتد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتى الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ، ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضاً ، وهى التى يقول الله تعالى:﴿ يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[3] .

فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ،ورأوا أمرا عظيماً ، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به . ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ، ثم خسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ، ثم كشطت عنهم . قال رسول الله ﷺ : ( والأموات لا يعلمون بشىء من ذلك ) قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : ﴿ ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ﴾[4] قال : ( أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، ووقاهم الله شر ذلك اليوم ، وآمنهم ، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه ، وهو الذى يقول : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة فى العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير ، واحتجوا بأحاديث :

روى الإمام أحمد بسنده عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره ، وقد تقارب من أصحاب السير ، رفع بهاتين الآيتين صوته : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس

---

(١) الدارمى فى الرقاق : ٧٩ . والترمذى فى تفسير سورة ٣٩ : ٨ ، ٦٨ ، وفى القيامة : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٢٦ ، ١٩٢ .

(٢) الآيات ٦ ـ ٨ من سورة النازعات .

(٣) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة غافر .

(٤) الآية ٨٧ من سورة النمل .

سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ . فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطى ، وعرفوا أنه عنده قول يقوله فلما دنوا حوله قال ﷺ : ( أتدرون أى يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : يا آدم ابعث بعثك إلى النار . فيقول : يارب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار ، وواحد فى الجنة ) . قال : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضا حكمه ، فلما رأى ذلك قال : ( أبشروا واعملوا فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتا : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس ) قال : فسرى عنهم ثم قال : ( اعملوا وابشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير ، أو الرقمة فى ذراع الدابة )[1] .

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية : عن أبى سعيد قال : قال النبى ﷺ : ( يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم . قال : قال النبى ﷺ : ( من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، وأنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود ، إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة . فكبرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة . فكبرنا )[2] .

وقال الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : ( إنكم تحشرون ، إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ) . قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض . قال : ( يا عائشة . إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك )[3] .

وقال الإمام أحمد عن السيدة عائشة أيضاً قالت : قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : ( يا عائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمن ادعى مع الله إلـها آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ـ قال : فينطوى عليهم ويرميهم فى غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر ، وأحدّ من السيف ، عليه كلاليب وحسك

---

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، وفى ٤ : ٤٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٧ ، وفى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، وفى الرقاق : ٤٥ ، ٤٦ ، وفى التوحيد : ٣٢ . ومسلم فى الإيمان ٣٧٩ ، وفى الفتن : ١١٦ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، وفى ٢ : ١٦٦ ، وفى ٣ : ٣٢ ، ٣٣ ، وفى ٤ : ٤٣٢ ، ٤٣٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ ، ٤٨ ، وفى تفسير سورة ٥ : ١٤ ، وفى الرقاق : ٤٥ . ومسلم الجنة : ٥٦ ، ٥٩ . والترمذى فى القيامة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٨٠ : ٢ . والنسائى فى الجنائز : ١١٨ ، ١١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٣ . والدارمى فى الرقاق : ٨٠ ، ٨١ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨ ، وفى ٦ : ٥٣ ، ٩٠ .

يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق ، وكالطرف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يارب سلم ، سلم . فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكور فى النار على وجهه )[١] .

ومهما يكن من أمر فإن الزلزلة واقعة لا محالة ، هذا وعد الله ، وكان وعد الله مفعولا .

﴿ يوم ترونها ﴾ : هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له : ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ : أى:فتنشغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتى هى أشفق الناس عليه ، تدهش عنه فى حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل مرضع .

وقال : ﴿ عما أرضعت ﴾ : أى عن رضيعها فطامه .

وقوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ : أى:قبل تمامه لشدة الهول .

﴿ وترى الناس سكارى ﴾ : أى:من شدة الأمر الذى قد صاروا فيه ، قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ، ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

## فريق من الناس

قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِـعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

## المناسبة وإجمال المعنى

أخرج ابن أبى حاتم : أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث ، وكان جدلا يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بلى وصار تراباً .

بعد أن أخبر سبحانه فيما سلف بأهوال يوم القيامة وشدتها ، ودعا الناس إلى تقوى الله ، وبين أنه مع هذا التحذير الشديد فإن كثيراً من الناس ينكرون هذا البعث ، ويجادلون في أمور الغيب بغير علم .

هذا فريق ضال من الناس يجادل فى ذات الله بأحكامه ، فمن قائل اتخذ الرحمن ولدا ، ومن قائل إن الملائكة بنات الله ، ومن منكر للبعث ، إلى غير ذلك من المذاهب الضالة والمشارب الآسنة ، وأصحاب العقول الطائشة المستهترة ، إنهم يجادلون بغير سلطان أتاهم ، لا علم ، ولا هدى ، إنما جهل وحيرة وضلال ، فحبذا لو كان الجدل بالتى هى أحسن ، ولا حبذا إذا كان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد قدّر على هذا المجال الذى سلك طريق الشيطان أن يضله بالوسواس ، ويكون المصير مشئوما ، حيث يهديه إلى عذاب السعير ، فالشيطان مريد عات لا يرحم . ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٢] .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ١١٠ .
(٢) الآية ٦ من سورة فاطر .

## البعث حق

**قال تعالى :**

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

**المفـــردات**

**الريب** : الشك .

**وأصل النطفة** : الماء العذب ويراد بها هنا ماء الرجل .

**والعلقة** : القطعة الجامدة من الدم .

**والمضغة** : القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ .

**والأجل المسمى** : هو حين الوضع .

**والطفل** : يكون للواحد والجمع .

**والأشد** : القوة .

**وأرذل العمر** : أدنؤه وأردؤه .

**هامدة** : أى: ميتة يابسة من قولهم همدت الأرض إذا يبست ودرست ، وهمد الثوب : بلى .

**واهتزت** : أى: اهتز نباتها وتحرك .

**وربت** : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات .

**زوج** : أى: حنيف .

**بهيج** : أى: حسن سارّ للناظرين .

**والحق** : هو الثابت الذى يحق ثبوته .

## المناسبة وإجمال المعنى

لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم فى البعث والحشر ، وذمهم على ذلك ، قفّى على هذا بإثباته عن وجهين :

١ - الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه فى الآية الأخرى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[١] وقوله : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ﴾[٢] .

٢ - الاستدلال بحال خلق النبات فى قوله: ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ .. الآية .

هذه آية أنتجت خمس نتائج :

الأولى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ .

والثانية : ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ .

والثالثة : ﴿ وأنه على كل شىء قدير ﴾ .

والرابعة : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ .

والخامسة : ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .

وفيها رد قوى ، وبرهان قاطع ، وحجة ساطعة ، على الذين ينكرون المعاد ، وفيهم يقول تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[٣] .

ففى هذا المشهد من سورة يس خمسة أدلة على أن البعث حق :

**أولها** : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ : أى:أن الذى قدر على الإيجاد من العدم قادر على الإعادة .

**وثانيها** : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ : أى:أن الذى قدر على جمع الأضداد فجعل من الشجر الأخضر ناراً ، قادر على أن يجمع بين برودة الموت وحرارة الحياة .

**ثالثها** : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ : أى:أن الذى قدر على خلق الكون الأكبر قادر على خلق الأدنى ، ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون * وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا

---

(١) الآية ٧٩ من سورة يس .

(٢) الآية ٥١ من سورة الإسراء .

(٣) الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة يس .

الصالحات ولا المسىء قليلاً ما تتذكرون * إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[١] .

رابع الأدلة : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ أى:أن الذى سيعيدنا بعد الموت لا يعجزه شىء ، فأمره بالكاف والنون ، ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٢] ، ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[٣] ، ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾[٤] ، ﴿ فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة ﴾[٥] .

خامس الأدلة : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾ . فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، هو الغنى الذى لا يفتقد إلى أحد ، القوى الذى لا يحتاج إلى معين ، على فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ :

أى:إن وقع الشك فى نفوسكم من البعث ، فإنا خلقنا أباكم آدم من تراب ، كما خلقناكم أنتم من عناصر هذا التراب ، مثل الكربون ، والدهن ، والماغنسيوم والفسفور والحديد والجير والكبريت والماء ، ثم تحول هذا التراب كما قال تعالى ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾[٦] .

وإنما بدأ الخلق هنا بالتراب ، لأننا سنصير ترابا فى القبور ، فالذى قدر على أن يخلق من التراب إنساناً قادر بالأولى أن يعيد هذا الإنسان من التراب، ﴿ وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٧] .

﴿ ثم من نطفة ﴾ : وهو ما يصب فى الأرحام من ماء الرجال .

﴿ ثم من علقة ﴾ : وهى تلك القطعة من الدم المتجمد .

﴿ ثم من مضغة ﴾ : وهو مقدار ما يمضغ من اللحم ، وهو قطعة اللحم .

﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ :

وهذه المضغة قد تكون مخلقة مسواة سالمة من العيوب والنقصان ، تمت فيها أحوال الخلق ورسومه ، وقد تكون غير مخلقة أى غير مستوية ، فيها نقص ، ولم يتم فيها رسوم الخلقة ، فسبحان من يصور خلقه .

﴿ لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ :

وقال مجاهد : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهى مضغة ، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح ، وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقى أو سعيد .

(١) الآيات ٥٧ ـ ٥٩ من سورة غافر .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٣) الآية ٥٠ من سورة القمر .
(٤) الآية ٧٧ من سورة النحل .
(٥) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة النازعات .
(٦) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة السجدة .
(٧) الآية ٢٧ من سورة الروم .

كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال:حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح »[1] .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير بسندهما عن عبد الله قال : ( النطفة إذا استقرت فى الرحم جاءها ملك بكفه ، فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل:غير مخلقة لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دماً ، وإن قيل:مخلقة قال : أى رب ذكر أو أنثى ، شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله . فيقال له : اذهب إلى الكتاب ، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة .

قال : فتخلق فتعيش من أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك ) .

ثم تلا عامر الشعبى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ .

فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع ، فكانت نسمة وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة .

وقوله تعالى : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ : أى:ضعيفاً فى بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئاً ، ويلطف به ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ : أى يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب ، وحسن المنظر .

﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ : أى:فى حال شبابه وقواه .

﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ : وهو الشيخوخة والهرم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر ، ولهذا قال : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ : هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى المقحلة التى لا ينبت فيها شىء .

وقال السدى : ميتة .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ١ ، وفى بدء الخلق : ٦ ، وفى القدر : ١ ، وفى التوحيد : ٢٨ . ومسلم فى القدر : ١ . وأبو داود فى السنة : ١٦ . والترمذى فى القدر : ٤ . وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(٢) الآية ٥٤ من سورة الروم .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ : أى:فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ، وربت أى:ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات ، فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ : أى:حسن المنظر طيب الريح .

وقوله:﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ : أى الخالق المدبر الفعال لما يشاء ، ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ : أى كما أحيا الأرض الميتة ، وأنبت منها هذه الأنواع .

﴿ إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير ) ، ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[1] .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ : أى:كائنة لا شك فيها ولا مرية .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ : أى:يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمما ، ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾[2] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله : « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليا به » ؟ . قلنا : بلى ، قال : « فالله أعظم » قال : قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : ( أما مررت بوادى أهلك ممولاً ؟ ) قال : بلى . قال : « ثم مررت به يهتز خضرا » ؟ قال : بلى . قال : « فكذلك يحيى الله الموتى ، وذلك آيته فى خلقه »[3] .

## فريق آخر من أهل الضلال

**قوله تعالى :**

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .
(٢) الآيات ٧٨ - ٨٠ من سورة يس .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١١ ، ١٢ .

﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

**المفـردات :** ﴿ الهدى ﴾ : الاستدلال والنظر الصحيح الموصل للمعرفة .

﴿ الكتاب المنير ﴾ : الوحى المظهر للحق .

﴿ ثانى عطفه ﴾ : أى: لاويا جانبه متكبرا مختالا .

﴿ الخزى ﴾ : الهوان والذل .

﴿ عذاب الحريق ﴾ : أى :عذاب النار التى تحرق داخليها .

﴿ على حرف ﴾ : أى :على طرف .

﴿ خير ﴾ : أى :سعة فى المال وكثرة فى الولد .

﴿ فتنة ﴾ : أى بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله.

﴿ على وجهه ﴾ : أى :على جبهته ويراد بذلك أنه ارتد ورجع إلى الكفر .

﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ : أى:ضيعهما ، إذ فاته فيهما ما يسره ، يدعو الأولى يراد بها يعبد ويدعو الثانية يراد بها يقول .

﴿ والمولى ﴾ : الناصر .

﴿ والعشير ﴾ : الصاحب والمعاشر .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فى الآية قبلها حال الضلال المقلدين الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصى ، أردف ذلك بذكر حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والمبتدعين .

ثم أعقب ذلك بذكر قوم مضطربى الإيمان مذبذبين فى دينهم ، لا ثبات لهم فى عقيدتهم ، ولا استقرار لهم فى آرائهم ، إن أصابوا خيرا فرحوا به وركنوا إليه ، وإن نالهم بلاء وشدة فى أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم ارتدوا كفاراً ، فلحقتهم الخسارة والدمار فى دينهم ودنياهم ، وذلك هو الخسران الذى لا خسران بعده ، وهم فى ذلك الحين يعبدون الأصنام والأوثان ، لتكشف عنهم ضرهم ، وتدفع عنهم ما نزل بهم من البلاء ، وقد ضلوا فى ذلك ضلالاً بعيداً ، وأنهم يوم القيامة ليجأرون ويصرخون ويقولون :

﴿ لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ .

روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النبى ﷺ مهاجرين من باديتهم ، فكان أحدهم إذا صح جسمه ، ونتجت فرسه مهراً حسناً ، أو ولدت امرأته غلاماً ، أو كثر ماله وماشيته ، رضى به ، واطمأن إليه ، وإن أصابه وجع ، أو ولدت امرأته جارية ، أو أجهضت رماكه .

(خيله) أو ذهب ماله، أو تأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان، وقال له: ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين، فينقلب عنه.

ويعود بنا النظم الكريم إلى الفريق المجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فيقول سبحانه: ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾.

فما دام قد فقد العلم فى الجدال، فإنه يجادل بجهل، وقد أدب الله تعالى عباده المؤمنين عندما يجادلهم الجاهلون، فقال سبحانه: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾[(١)].

وهذا الفريق يجادل بغير هدى، إذاً فهو على ضلال، قال تعالى: ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾[(٢)].

وهذا الفريق يجادل بغير كتاب منير، إذاً فهو يسبح فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور.

إذاً فهذا الفريق على جهل وضلال وظلمة، ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال * له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾[(٣)].

ثم يضيف القرآن الكريم إلى صفات هذا الفريق صفة أخرى، فيقول سبحانه: ﴿ **ثانى عِطْفِهِ ليضل عن سبيل الله** ﴾: أى: لاوى جنبه كبراً وعناداً واستكباراً فى الأرض، ومكر السىء، والكبر يعتمد على ركنين: بطر الحق، وغمط الناس.

وهذا الفريق قد استوفى هذه المواصفات، إنه يجادل بجهل وضلال، وفى ظلمة، ويتكبر على الحق فلا يغفله، ويحتقر الناس فيزدريهم.

ثم يبين لنا الكتاب الكريم، هدف هذا الفريق وغايته فيقول: ﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ ذلك لأنهما قصدا بالمجادلة عدم الوصول إلى الحق، إنما قصدا بها الإضلال، فهو ضال مضل، ثم يأتى الجزاء العادل، فيقول سبحانه: ﴿ **له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾.

ثم يأتى تعليل هذا الجزاء فى قوله سبحانه: ﴿ **ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾.

نعم إن الخزى لا يقتصر على دار الدنيا، أو على دار الآخرة، بل إنه كما قال تعالى: ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[(٤)].

إن الله تعالى هو الحكم العدل المقسط، لا يظلم أحداً، لذا فإنه حرم الظلم على نفسه، وحرمه على عباده، ونهاهم عنه.

---

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان.
(٢) الآية ٥٦ من سورة الكهف.
(٣) الآيتان ١٣، ١٤ من سورة الرعد.
(٤) الآيات ١٢٤ - ١٢٦ من سورة طه.

ومعنى : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ :

أى:ليس بذى ظلم ، فاللفظ وإن جاء بصيغة المبالغة إلا أنه يقصد به نفى نسبة الظلم إلى الله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾(١) ، ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(٢) ، ﴿ فكلًا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٣)

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ :

هذه حال فريق من الناس لم يعرفوا الله معرفةِ المتمكن الواثق ، ولم يعبدوه عبادة المؤمن الصادق ، إنما عبدوه على جانب يسير حسب التجربة ، فإن أصابهم خير من صحة ورزق وولد استمروا فى تلك العبادة الهامشية ، فإذا ابتلاهم الله بشدة من ضياع مال وفقد ولد انقلبوا على وجوههم ، وارتدوا على أعقابهم خائبين خاسرين ، وليس بعد هذا الخسران من خسران ، إنه الخسران المبين ، وليست هذه الصفات من الإسلام فى شىء ، ومن ثم فإن الناس من حيث صلتهم بالله أربعة أقسام :

هذا قسم منهم : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ : هؤلاء عبدوا الله فى الرخاء ، ونسوه فى الشدة .

والقسم الثانى : نسوا الله فى الرخاء والشدة ، فهم فى الرخاء معرضون ، وفى الشدة يائسون ، قال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً ﴾(٤) .

والقسم الثالث : قسم عرفوا الله فى الرخاء والشدة قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾(٥) .

والقسم الرابع : قوم اتجهوا إلى الله فى الشدة ، فلما كشف عنهم ما نزل بهم نسوا الله وأعرضوا عنه ، قال تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾(٦) .

إن الذين عبدوا الله على حرف يقول الله فيهم : ﴿ يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ .

إن الذين يدعون من دون الله ويعبدونهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فمن دعا أو عبد غير الله فقد وقع فى ضلال بعيد ، لأنه يدعو الذى ضره أقرب من نفعه ، لأن عبادته له ضرر كبير ، يودى به إلى الخلود فى النار .

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٢) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٣) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٤) الآية ٨٣ من سورة الإسراء .
(٥) الآيتان ١٣٣ ، ١٣٤ من سورة آل عمران .
(٦) الآية ١٢ من سورة يونس .

﴿ **لبئس المولى** ﴾ : أسلوب ذم لمن اعتقدوه ناصراً له . ﴿ **ولبئس العشير** ﴾ : أى الصاحب الملازم لعبادة هؤلاء .

إن الله تعالى يقول فى حديثه الجليل : [ أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه ][1] .

إن المؤمنين الصادقين عرفوا الله فى كل أحوالهم ، إنهم فى الرخاء شاكرون ، وفى البلاء صابرون .

عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو : فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها »[2] . رواه مسلم .

## معنى الحديث

**الطهور** : بالضم على الأفصح والمراد به الفعل والتطهير والنظافة والنقاء من الأوساخ والأقذار ، والبراءة من العيوب الباطنة . .

**الميزان** : يملأ ثوابها .

**سبحان الله** : بغرض الجسمية لو مثل ثواب قائل الحمد لله وشاكر ربه لرجحت كفة ميزانه وزاد وزنها ، ففيه الترغيب بكثرة الثناء على الله ، والإقبال عليه بأداء أوامره وشكره ، رجاء ثقل الميزان بكسب الحسنات .

**تملأ** : يملأ ثواب كل منهما لو حسم لقدر حجمه كما بين . السماء والأرض .

قال المناوى : وسبب عظم فضلها ما اشتملتا عليه من التنزيه لله تعالى ، بقوله : سبحان الله ، والتفويض والافتقار بقوله : الحمد لله .

فعليك ياأخى بكثرة تسبيح الله وتحميده وتمجيده . وذكره ، رجاء نيل أجر الله .

**الصلاة نور** : قال العلقمى : لأنها تمنع عن المعاصى ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتهدى إلى الصواب ، كما أن النور يستضاء به . وقيل : يكون أجر الصلاة نوراً لصاحبها يوم القيامة ، وقيل : لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف ، وانشراح القلب ، ومكاشفات الحقائق ، لفراغ القلب فيها ، وإقباله على الله ، وقيل:يكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة : وفى الدنيا أيضا : على وجهه بالبهاء ، بخلاف ما لم يصلّ .

**الصدقة برهان** : قال العلقمى : أى:حجة على إيمان فاعلها ، فإن المنافق يمتنع منها لكونه

(١) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .

(٢) أخرجه الدارمى فى الوضوء : ٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٢ ـ ٣٤٤ . والنسائى فى الزكاة : ١ . مسلم فى الطهارة : ١ . والترمذى فى الجمعة : ٨٠ ، وفى الدعوات : ٨٥ . وابن ماجه فى الطهارة : ٥ .

لا يعتقدها . زاد النووى قال صاحب التحرير : معناه يفزع إليها كما يفزع إلى البراهين ، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين فى جواب هذا السؤال ، فيقول : تصدقت به . وقال : ويجوز أن يوسم المتصدق بسيمة يعرف بها ، فتكون برهاناً له على حاله ، ولا يسأل عن مصرف ماله .

**الصبر ضياء** : قال العلقمى : قال النووى : معناه الصبر المحبوب فى الشرع وهو الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصيته ، والصبر أيضاً على النائبات ، وأنواع المكاره فى الدنيا ، والمراد أن الصبر المحبوب لا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب .

**فمعتقها** : فمبعدها من النار .

**موبقها** : أى:مهلكها .

قال العلقمى : معناه أن كل إنسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها : أى:يهلكها ، كأنه قيل:ما حال الناس بعد ذلك ؟ فأجيب كل الناس . .

بين النبى ﷺ فى هذا الحديث فوائد سبعة ، هن عماد الحياة ، ومنبع السعادة ، ومعين الخير ، وبحار المكارم ، وجالبة كل المحامد :

( أ ) النظافة والطهارة .

(ب ) الثناء على الله تعالى وشكره على جميع ما أنعم وتفضل .

(جـ ) تسبيحه وعبادته وذكره ، حتى لا يغفل القلب عن ربه .

( د ) إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة على أحسن وجه . وأكمله ، فمن صلى تلألأ وجهه نوراً ، وأشرق قلبه سروراً ، وامتلأ إيماناً وحبوراً ، والتصدق بطاقة الإجازة من العذاب ، والإنفاق لله شهادة صدق لصالح الأعمال ، والزكاة عنوان استقامة وطهارة ، وسبيل الهداية فى الحياة الدنيا ، وبرهان ناطق لسلوك فاعلها مناهج الأبرار الأخيار .

( هـ ) حبس النفس على المكاره اتقاء السخط ، والباعث على ذلك التجمل والتكمل المنبعث من أشعة الإيمان الساطعة فى القلب ، كما قال الحفنى : الصبر على المصائب مع عدم الضجر ، أو الصبر على الأوامر والمنهيات سبب فى حصول الضياء فى القلب ، أى النور الشديد الكامل .

( و ) وجود القرآن بين أظهرنا ، نسمع آياته ليل نهار ، شاهد عدل علينا ، ويكون شفيعاً لمن عمل به ، وتمسك بحبله ، واهتدى بقبسه ، وانتفع بآياته ، واسترشد بأحكامه ، ويكون خصماً ألد للفاسقين والعاصين والطغاة الفاجرين . يقرأ القارىء فيتحدثون فى مجالسه ، ويتكلمون ويشربون التبغ ، وتتشتت أفكارهم ، وشابهوا الكفار فى قول الله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن

والغَوْا فيه لعلكم تغلبون ﴾[1] ، ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذين كانوا يعملون ﴾[2] ، ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾[3] ، ﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾[4] .

﴿ والغوا فيه ﴾ : وعارضوه بالخرافات ، أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوا على القارىء .

﴿ دار الخلد ﴾ : دار إقامتهم .

﴿ يجحدون ﴾ ينكرون الحق أو يلغون .

﴿ أضلانا ﴾ : هما إبليس وقابيل ، فإنهما سنا الكفر والقتل .

﴿ نجعلهما ﴾ : قدمتهما انتقاماً منهما ، أو نجعلهما فى الدرك الأسفل مكاناً أو ذلاً أ ، هـ .

ثم بين ﷺ أننا فى الدنيا صنفان :

١ ـ صنف تقى نقى صالح طاهر ، عامل بالكتاب والسنة ، وهذا هو الفائز الناجح السعيد ، الذى ضرب بسهم صائب ، وبرز فى ميدان الفلاح بالسبق إلى رضوان الله ونعيمه ، فخلص نفسه من ربقة العذاب ، وأسر الشهوات ، فنجاه .

٢ ـ صنف خائب خاسر ، يسعى لحتفه بظلفه ، ويسترسل فى الدنايا والمعاصى ، فيقع فى الهاوية ، وينحط إلى الجحيم ، ويسود وجهه ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾[5] .

لماذا ؟ لأن القرآن والسنة أشرقتا بالأنوار ، فلم يهتد بهديهما ، ولم يعمل صالحاً فى حياته ، وغمس فى الترف والرفاهية ، وخلت صحيفته من كل مكرمة أو محمدة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

* وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر »[6] رواه البخارى ومسلم .

رواه الحاكم من حديث أبى هريرة مختصراً : « ما رزق الله عبداً خيراً له ولا أوسع من الصبر » . وقال : صحيح على شرطها .

* وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أربع لا يصبنى إلا بعجب : الصبر ، وهو أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله ، وقلة الشرع » . رواه الطبرانى والحاكم كلاهما من رواية العوام ابن جويرية ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد ، وتقدم فى الصمت .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٢٧ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٢٨ من سورة فصلت .
(٤) الآية ٢٩ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٦ من سورة المجادلة .
(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٠ ، وفى الزكاة : ٥٠ . ومسلم فى الزكاة : ١٢٤ . وأبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٧٧ . والنسائى فى الزكاة : ٨٥ . والدارمى فى الزكاة : ١٨ . والإمام مالك فى الصدقة : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٢ ، ٤٧ ، ٩٣ .

## المعــنى

أربعة أشياء تصادف المؤمن : حقبة يندهش لها الإنسان لعروضها على حالة شاقة .

وفى الغريب : العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشىء ، ولهذا قال بعض الحكماء : العجب مالا يعرف الإنسان سببه ، ولهذا قيل : لا يصح على الله التعجب ، إذ هو علام الغيوب ، لا تخفى عليه خافية ، يقال : عجبت عجباً ، ويقال للشىء الذى يتعجب منه عجب ، ولما لم يعهد مثله عجيب قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا ﴾[1] تبينها أنهم قد عهدوا مثل ذلك قبله : وها هى الأربعة :

( أ ) تحمل الآلام .

(ب ) اللين وكرم الأخلاق .

( جـ ) تسبيح الله وطاعته .

( د ) القناعة والرضا بالقليل .

* عن علقمة قال : قال عبد الله : ( الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ) ، رواه الطبرانى فى الكبير ورواته رواة الصحيح ، وهو موقوف ، وقد رفعه بعضهم .

واليقين : من صفة العلم فوق المعرفة والدراية ، يقال علم اليقين ، ولا يقال معرفة اليقين ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم ، قال تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾[2] . فالإيمان نهاية الثقة بالله تعالى .

* وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »[3] ، رواه مسلم .

## المعنى

عجباً : أعجب عجباً .

سراء : أشياء مفرحة .

ضراء : أشياء مؤلمة كارهة .

النبى ﷺ يبشر المؤمن بما يصيبه ، ويخبره أن كل شىء أحاطه كسب منه ثواباً : فإن أمده الله

---

(١) الآية ٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٠ من سورة الذاريات .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ ، ١٦ .

بنعم فحمده نال أجراً ، وإن أصابته سيئة فصبر نال ثوابها فهو فى الحالتين مكرم مثاب ومؤجر .

* وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « إن الله عز وجل قال : يا عيسى إنى باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم ، فقال : يا رب كيف يكون هذا : قال : أعطيهم من حلمى وعلمى » . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

* وروى عن شجيرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر ثم سكت فقالوا : يا رسول الله ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . رواه الطبرانى .

## المعـــانى

**احتسبوا** : سلموها لله تعالى طلباً لوجه الله تعالى وثوابه فالاحتساب من الحسب كالاعتداد من العد .

**صبروا** : تحملوا الآلام .

**لا حلم ولا علم** : ليس عندهم خلقاً الحلم والعلم .

**أعطيهم من حلمى وعلمى** : أهب لهم خلق الحلم بطول البال والأناة فلا يستفزهم غضب ، وأرزقهم التثبت فى الأمور والترتيب .

يبشر النبى ﷺ على لسان سيدنا عيسى عليه السلام بإكرام أمته ، وتفضله عليهم بالسداد فى الأمر والصواب فى العمل ، والحكمة والتوفيق .

* وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ابتلى الله عبداً ببلاء وهى على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وظهوراً ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عز وجل أو يدعو غير الله فى كشفه » .

رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض والكفارات

## المعـــانى

**كفارة** : ماحياً لذنوبه .

**البلاء بغير الله عز وجل** : مدة عدم إسناد هذا لغير الله وحده بمعنى أنه يثاب ، ما دام يعتقد أن هذا المرض ، أو المحن من الله تعالى ، وهو الذى يكشف الكروب وحده ، فإذا حاد وضجر ويئس وأسند ما أصابه إلى غير الله ، وشكا لغير الله ، فلا ثواب له البتة ، نسأل الله السلامة .

**أو يدعو غير الله فى كشفه** : يعتقد أن الطبيب يشفيه أوغيره يزيل همومه ، والنبى ﷺ يقول : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله »[1] .

يعلمك رسول الله ﷺ أن تصبر إذا أصابك مكروه ، رجاء ثواب الله سبحانه ، وأن تتحمل الآلام فى سبيل رضاه سبحانه ، والرضا بقضائه ، وألا تلجأ إلى مخلوق فى كشف هذا الضر ، فالله وحده مفرج الكروب ، مزيل الهموم ، كما قال محمد بن بشير :

كم من فتى قصرت فى الرزق خطوته ... ألفيته بسهام الرزق قد فلجا
إن الأمور إذا انسدت مسالكها ... فالعبد يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وإن طالت مطالبه ... إذا استعنت بعبد أن ترى يلجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمنى القرع للأبواب أن يلجا
قدر لرجلك قبل الخطو موضعها ... فمن علا زلقاً عن غرة زلجاً
ولا يغرنك صفو أنت شاربه ... فربما كان بالتكدير ممتزجا

## وعدٌ ووعيد

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٥٩ .

وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

**المفردات :** ﴿ **بسبب** ﴾ : أى بحبل .

﴿ **ليقطع** ﴾ : أى:ليختنق .

﴿ **فلينظر** ﴾ : أى:فليقدر فى نفسه النظر .

﴿ **كيده** ﴾ : أى:فعله .

﴿ **ما يغيظ** ﴾ : أى:غيظه .

﴿ **الذين هادوا** ﴾ : هم اليهود .

﴿ **والصابئين** ﴾ : قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور .

وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى : إن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابليهم الحنفاء ، وعمدة مذهبهم تعظيم النجوم وثوابتها وسياراتها ، والمجوس ( على ما قاله قتادة ) : قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران .

﴿ **والذين أشركوا** ﴾ : هم عباد الأوثان .

فالملل ستة : خمسة للشيطان ، وواحدة للرحمن .

﴿ **يفصل** ﴾ : أى:يقضى بإظهار المحق من المبطل .

﴿ **شـهيد** ﴾ : أى:عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

﴿ **ألم تر** ﴾ : أى:ألم تعلم .

﴿ **والسجود** ﴾ : لغة التطامن والتذلل ثم أطلق على التذلل لله وعبادته : وهو حزبان : سجود بالاختيار ، وهو خاص بالإنسان ، وبه يستحق الثواب ، وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه ، وهو دال على الذلة ، والافتقار إلى عظمته ، جلت قدرته .

﴿ **من فى السموات** ﴾ : هم الملائكة .

﴿ **ومن فى الأرض** ﴾ : هم الإنس والجن .

﴿ **وحق** ﴾ : أى:ثبت وتقرر .

﴿ خصمان ﴾ : واحدها خصم وهو من له رأى غير رأيك فى موضوع ما وكل منهما يحاج صاحبه فيه .

﴿ قطعت لهم ﴾ : أى:قدرت .

﴿ والحميم ﴾ : الماء الذى بلغت حرارته أقصى الغاية .

﴿ يصهر به ﴾ : أى:يذاب .

﴿ ومقامع ﴾ : واحدها مقمعة وهى السوط .

﴿ والغم ﴾ : الحزن الشديد .

﴿ والطيب من القول ﴾ : ما يقع فى محاورة أهل الجنة بعضهم بعضاً .

﴿ وصراط الحميد ﴾ : أى:الطريق المحمود فى آداب المعاشرة والاجتماع .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد** ﴾ :

هذا مقتضى منطق العدالة الإلهية ، فالذين آمنوا هم الذين صدقوا بقلوبهم ، وعملوا بكل ما جاء به نبيهم ،وأعلنوا كلمة التوحيد بألسنتهم ، ففضل الله وعدله وإحسانه وميزانه وتكرمه وسعة رحمته ، اقتضى كل هذا أن يجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، فيدخلهم دار كرامته وجناته بفضله ، وسلامة صدورهم ، وسخاوة نفوسهم ، إنها الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، أى من تحت قصورها وأشجارها ، وتغريد أطيارها ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾[1] .

﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ : لا يغلبه أحد ، ولا يقهره سلطان ، فهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، يثيب المحسنين ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا :

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ **من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ** ﴾ .

هذا وعد من الله تعالى بنصرة نبيه ودينه ، مهما تكالبت عليه الأعداء ، فإن قافلة الإسلام ستسير مهما كانت الذئاب تعوى ، ولن يضر السحاب نبح الكلاب .

ما يضر البحر أمسى ذاخراً إن رمى فيه غلام بحجر

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[2] .

(١) الآيات ١١ - ١٣ من سورة الإنسان . (٢) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الصف .

إن الاسلام للعالم كالضياء والماء والهواء ، لا تستقيم الحياة بدونها ، إنما تصير رفات سحيقة ، وصعيدا جرزا ، وصحراء جرداء أو قاحلة ، ذاك منطق الأشياء .

ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

فمن كان يظن أن الله تعالى لن ينصر محمداً ، فليأت بحبل ، وليمدد به إلى جهة السماء ، ثم يعلق نفسه به ، ثم ليقطع هذا الحبل ، إنه سيهوى إلى الأرض مهما اتخذ من الحبل ، ودبر من الكيد ، وذلك بمنطق قانون الجاذبية ، فهل استطاع كيده ، وهل تمكنت حيله ، من ذهاب الغيظ الذى ملأ قلبه على محمد ودينه ؟

إنه كناطح صخرة ليوهنها ، فلم يستطع أن يفعل شيئا ، إنما عاد بتحطيم رأسه .

فقل لأعداء الاسلام : على رسلكم ، إن الإسلام شامخ ، أشد من شموخ الجبال الراسيات ، بازغ كالشمس فى ضحاها ، راسخ كالأعلام ، فوفروا على أنفسكم حربه ، فإنه لن يزول ، وما كان الله ليضيع دينه ، ولا أمانته ، ولا ما بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم .

فكم زالت رياض من رباها وكم بادت نخيل فى البوادى
ولكن نخلة الإسلام تنمو على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الإسلام باق بقاء الشمس والسبع الشداد

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد ﴾ .

وكما سبق تفصيل الأدلة ، وقيام البراهين على البعث ، وما تبعه من أحكام ، أنزلت القرآن آيات بينات ، ودلائل باهرات ، ومن أراد الله له الهداية فهو السعيد المهتدى ﴿ ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾[1] .

**﴿ إن الذين آمنوا والذى هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾ :**

الكفر كله ملة واحدة ، مهما تعددت أشكاله ، واختلفت مشاربه ، وتنوعت مذاهبه ، فقد يبدو فى صورة عبادة الملائكة ، أو فى اعتناق اليهودية ، أو عبادة المسيح ، أو عزير ، أو عبادة النار ، أو الأصنام .

طريق الإيمان واحد ، وطرق الكفر متعددة ، وقد يكون الكفر كفر نفاق ، أو جحود ، ككفر الشيوعية ، أو كبر ككفر فرعون ، إلى غير ذلك من طرق الضلال ، لذلك فإن الله أفرد النور ، وجمع الظلمات ، فى قوله : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾[2] .

الحق واحد لايتعدد والباطل مذاهب شتى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله

(١) الآية ١٧ من سورة الكهف . (٢) الآية الأولى من سورة الأنعام .

فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾[١] .

إن الذى يفصل بين أهل الحق والباطل يوم القيامة هو الله ، ﴿ وما من غائبة فى السموات والأرض إلا فى كتاب مبين * إن هذا القرآن يقضى على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون * وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين * إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم * فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾[٢] .

إن الله تعالى علم من العباد ما كان وما يكون وما سيكون ومالا يكون ، لو كان كيف كان يكون ، هو الحكم العدل المقسط ، يفصل فى الأمور بحكمه ، ويقضى بين العباد بعلمه ، إن الله على كل شىء شهيد ، حاضر لا يغيب .

**قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾ :**

السجود خضوع وإذعان وانقياد للخالق ، وقد يكون طوعا واختيار ، سجود الإنس والجن والملائكة ، وقد يكون خضوعاً : تسخيريا كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر ، فانظر إلى السماء وارتفاعها ، وإلى الأفلاك ومدارها ، وإلى الجبال ورسوخها ، وإلى البحار وأمواجها ، وإلى الأرض واتساعها ، وإلى كل ظاهر وكامن ومتحرك وساكن ، الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكره ، ولا يغفل عن شكره .

ولما كانت هذه المخلوقات ساجدة سجود انقياد وتسخير ، لم يتخلف منها شىء عن السجود لله ، أما الإنسان فقد سجد كثير من نوعه ، ولم يسجد كله لذا قال تعالى : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ إن من سجد لغير الله فقد ذلّ ، ومن سجد لله ما ذل ولا مل ولا اختل ولا ضل .

قال تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ : ذلك لأن العزة كلها فى طاعة الله .

﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾[٣] .

﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ : فهو المريد ، ذو الحكمة البالغة ، والعلم المحيط بالأشياء .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت     فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

**﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾ :**

هذا تفصيل للجزاء الذى سيناله كل فريق ، إن بين الحق والباطل خصومة وصراعاً ، فأهل الإيمان فى جانب ، وبقية هذه الفرق فى جانب : اليهود والصابئون والنصارى والمجوس والذين أشركوا وغير ذلك من ملل الضلال فى جانب ، وخصومة كلا الفريقين فى الله ، فالمؤمنون عبدوه وحده ، ووحدوه فى الألوهية والربوبية ، وغير المؤمنين انحرفوا عن الطريق السوى ، والصراط المستقيم ، ولكل جزاؤه .

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس .
(٢) الآيات ٧٦ - ٧٩ من سورة النمل .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النور .

وقد بين الله تعالى جزاء أهل الضلال فى قوله : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ :

هذا هو النوع الأول من العذاب الحسى ، فتصور كيف يصنع من النار ما يستر أجسامهم من الثياب ، أى عذاب هذا ، بل وأى إهانة تلك ، لقد كانوا فى الدنيا يستمتعون بالحرير والذهب ، فصاروا فى العذاب يلبسون ثيابا من نار ، سرابيلهم من قطران .

ثم يأتى النوع الثانى من العذاب الحسى : ﴿ يصب من فوق رءوسهم الحميم ﴾ : الماء الذى بلغ درجة من الغليان لا تسامى .

ثم يأتى النوع الثالث : ﴿ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ﴾ :

إن هذا الماء يذيب أمعاءهم وجلودهم:﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[1] .

أخرج عبد بن حميد ، والترمذى فى جماعة ، عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحميم ينصب على رءوسهم فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما فى جوفه حتى يبلغ قدميه ، وهو القهر ، ثم يعاد كما كان »[2] .

ثم يأتى النوع الرابع من العذاب الحسى ، فيقول تعالى : ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ .

يضربون بها ، وما من شك فى أن تلك المقامع فيها الإهانة كلها . والإيلام الذى بلغ مداه ، فما أبعد هذا الشقاء وما أشده :

ثياب من نار ، يصب من فوق رؤ وسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، فاللهم قنا عذابك ، يوم يبعث عبادك .

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله ﴿ كالمهل ﴾ قال : « كعكر الزيت ، فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه منه »[3] رواه أحمد .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ :

قال : ( يقرب إلى فيه فيكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ، قال الله عز وجل : ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾[4] ويقول : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب ﴾[5][6] رواه أحمد والترمذى .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لو أن دلواً من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا »[7] . رواه الترمذى .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف. (٤) الآية ١٥ من سورة محمد. (٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٤ . (٦) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .

(٣) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة : ٧٠ ، وفى جهنم : ٤ .

(٧) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٨ ، ٨٣ .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر . ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة ، قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهم »[١] . رواه أحمد .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٢] فقال رسول الله ﷺ : ( لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ )[٣] رواه الترمذى .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون : ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاؤ الكافرين إلا فى ضلال ﴾[٤] قال : فيقولون : ادعو مالكا ، فيقولون : ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾[٥] قال : فيجيبهم : ﴿ إنكم ماكثون ﴾ .

قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام . قال : فيقولون : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون : ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾[٦] قال : فيجيبهم : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾[٧] قال : فعند ذلك يئسوا منه كل خير ، وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل [٨] . رواه الترمذى والبيهقى .

ثم يأتى العذاب النفسى بعد العذاب الحسى ، وكلاهما مر ، قال سبحانه : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ :

لذا قيل إن أشد آية على أهل النار قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾[٩] .

إن الغم هو الحزن الشديد الذى يمزق نياط القلوب ، تنخلع له الأفئدة ، وتنفطر من هوله الأكباد .

﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾[١٠] قالوا : إنه لا يرد عليهم إلا بعد ألف سنة ، فيقول لهم : إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون .

(١) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٣٩٩ .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .
(٣) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٠١ ، ٣٣٨ .
(٤) الآية ٥٠ من سورة غافر .
(٥) الآية ٧٧ من سورة الزخرف .
(٦) الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة المؤمنون .
(٧) الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون .
(٨) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٥ .
(٩) الآية ٣٠ من سورة النبأ .
(١٠) الآية ٧٧ من سورة الزخرف .

ثم يعقب هذا العذاب النفسى نوعاً آخر من العذاب الحسى قال تعالى : ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ : وأشد عذاب للأجسام هو الحريق .

﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾(١) .

وبعد نار الوعيد يشرق نور الوعد ، فيقول سبحانه : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ .

أى:إن الله يدخل من آمن به وبرسله وعمل صالح الأعمال التى تزكى نفوسهم ، وتقربهم إلى ربهم ، جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الوارقة الظلال : الأنهار الواسعة ، يتمتعون بها كما شاءوا .

﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً** ﴾ : أى:يلبسون فى أيديهم حلية من ذهب ، وفى رءوسهم تيجانا من لؤلؤ .

﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ :

أى:ويلبسون الحرير الذى حرم عليهم لبسه فى الدنيا ، وكان فيها عنوان العزة والكرامة ، فأوتوه فى الآخرة ، إجلالا وتعظيما لهم .

﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول** ﴾ :

أى:وأرشدوا إلى القول الطيب ، وهو قولهم حين دخول الجنة : ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾(٢) .

﴿ **وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ :

وأى:وأرشدوا إلى الطريق الحميد ، الذى يجعل أقوالهم وأفعالهم مرضية عند ربهم ، محمودة لدى معاشريهم وإخوانهم ، لما فيها مما يجمل فى المعاشرة والاجتماع .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام . والله لايجدها عاق ولاقاطع رحم » . رواه الطبرانى .

وعن على رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ : عن هذه الآية:﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾(٣) إلى آخرها قال : قلت:يا رسول الله ما الوفد إلا ركبٌ ؟ قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض ، لها أجنحة ، عليها رحال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر ، وينتهون إلى باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء

---

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ٧٤ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٨٥ من سورة مريم .

على صفائح الذهب ، وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من أحدهما جرت في وجوههم بنضرة النعيم ، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدا ، فيضربون الحلقة بالصفيحة ، فلو سمعت طنين الحلقة بأ على فيبلغ كل حوراء ، أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة ، فتبعث قيمها ، فيفتح له الباب ، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجدا مما يرى من النور والبهاء ، فيقول : أنا قيمك الذى وكلت بأمرك ، فيتبعه فيقفوا أثره ، فيأتى زوجته فتستخفها العجلة ، فتخرج من الخيمة فتعانقه ، وتقول : أنت حبى وأنا حبك ، وأنا الراضية فلا أسخط أبدا ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبداً ، وأنا الخالدة فلا أظعن أبداً . فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت ، طرائق حمر ، وطرائق خضر ، وطرائق صفر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبتها .

فيأتى الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشا ، على كل فراش سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقيها من باطن الحلل ، يقضى جماعهن فى مقدار ليلة ، تجرى من تحتهم أنهار مطردة ، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل ، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها ، من أى الألوان شاءوا ، ثم تطير فتذهب ، وفيها ثمار متدلية إذا اشتهوها انبعث الغصن إليهم فيأكلون من أى الثمار شاءوا ، إن شاء قائما ، وإن شاء متكئاً : وذلك قوله : ﴿ وجنا الجنتين دان ﴾[1] ( وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ ) . رواه ابن أبى الدنيا .

وعن خالد بن عمير قال : خطبنا عتبة بن غزوان رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ( أما بعد:فإن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولت حذاء ، ولم يبق منها إلاّ صُبابة كصبابة الإناء ، يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما يحضرنكم ، ولقد ذكر لنا أن مابين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام )[2] رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، وهجر ومكة »[3] . رواه البخارى .

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الرحمن .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ١٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٧٤ ، وفى ٥ : ٦١ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٧ ، وفى الزهد : ١٤ . والترمذى فى القيامة : ١٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٣٦ ، وفى ٣ : ٢٩ ، وفى ٤ : ١٧٤ ، وفى ٥ : ٣ .

## المسجد الحرام والحج

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً
ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ
مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾
وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾
لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ
ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ
وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ
وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾
حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ
تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾
لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا
لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ
ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ
فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ
كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن
يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ المراد بالمسجد الحرام ﴾ : مكة ، وعبر به عنها لأنه المقصود المهم فيها .

﴿ العاكف ﴾ : المقيم .

﴿ والباد ﴾ : الطارىء القادم عليها .

﴿ والإلحاد ﴾ : العدول عن الاستقامة .

﴿ بظلم ﴾ : أى بغير حق .

﴿ يقال بوأه منزلا ﴾ : أى أنزله فيه وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم أطلق على كل مأوى متخذ من حجر أو مدر أو صوف أو وبر والمراد به هنا الكعبة .

وقد بنيت عدة مرات فى أوقات مختلفة .

﴿ وأذن ﴾ : أى نادى بالحج : أى بالدعوة إليه .

﴿ رجالاً ﴾ : أى مشاة .

﴿ الضامر ﴾ : البعير الهزيل الذى أتعبته كثرة الأسفار ، ويطلق على الذكر والأنثى .

﴿ الفج ﴾ : الطريق .

﴿ والعميق ﴾ : البعيد .

﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ : أى يحمدوه ويشكروه .

﴿ والأيام المعلومات ﴾ : هى أيام النحر وهى ثلاثة أيام .

يوم العيد ، ويومان بعده .

﴿ بهيمة الأنعام ﴾ : المراد بها الإبل والبقر والضأن .

﴿ والبائس ﴾ : الذى أصابه البؤس والشدة .

﴿ وليقضوا ﴾ : أى ليزيلوا .

والتفث : الوسخ ، ويراد به هنا قص الشعور وتقليم الأظافر .

نذورهم : ما ينذر من أعمال البر فى الحج .

﴿ العتيق ﴾ : القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

﴿ ذلك ﴾ : أى الأمر هكذا ويقع للفصل بين كلامين أو بين وجهى كلام واحد كقوله : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾[1] .

حرمات : التكاليف الدينية ، من مناسك الحج وغيرها .

وتعظيمها : العلم بوجوبها والعمل على موجب ذلك .

والزور : الكذب .

(١) الآية ٥٥ من سورة ص .

**حنفاء** : واحدهم حنيف ، وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدين الحق .

**خرَّ** : سقط .

**تخطفه** : الخطف : الاختلاس بسرعة .

**تهوى** : أى : تسقط .

**سحيق** : أى : بعيد .

**والشعائر** : واحدها شعيرة : وهى العلامة ، والمراد بها البدن الهدايا .

**وتعظيمها** : أن تختار حسانا سمانا ، غالية الأثمان .

**والأجل المسمى** : هو أن تنحر وتذبح .

**ومحلها** : مكان نحرها .

**والمراد بالبيت العتيق** : ما يليه ويقرب منه وهو الحرم .

**المنسك** : ( بكسر السين وفتحها ) والنسك فى الأصل : العبادة مطلقا وشاع استعماله فى أعمال الحج .

والمراد به هنا الذبح ، وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .

**أسلموا** : أى : انقادوا له .

**المخبتين** : أى المتواضعين الخاشعين ، من أخبت الرجل إذا سار فى الخبت ، وهو المطمئن من الأرض .

**وجلت** : أى خافت .

**البُدن** : واحدها بدنة وهى الناقة ، أو البقرة التى تنحر بمكة ، وتطلق على الذكر والأنثى .

**وشعائر الله** : أعلام دينه التى شرعها لعباده .

**صوافّ** : أى : قائمات قد صفت أيديهن وأرجلهن ، واحدها صافة .

**وجبت جنوبها** : أى سقطت جنوبها على الأرض ، ويراد بذلك زهقت أرواحها ، وفقدت الحركة .

**القانع** : أى : الراضى بما عنده ، وبما يعطى من غير مسألة .

**والمعتر** : أى : المتعرض للسؤال .

**المحسنين** : أى : المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى أمور دينهم .

## المعـــنى

قوله تعالى : **﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾** .

عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ :

قال : ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام .

وقال مجاهد : ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل .

يخبر سبحانه وتعالى فى هذه الآية عن الذين كفروا وجحدوا وحدانية الله ، وأضافوا إلى هذا الكفر صد الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام ، الذى جعله الله تعالى سواء العاكف فيه والباد ، أى:النائى ، فكلاهما سواء فى هذا المسجد الآمن .

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾[2] .

فأين خبر إن ؟ إنه متصيد من الكلام تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، لهم عذاب أليم .

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً ﴾[3] .

﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[4] .

ثم تأمل معى فى قوله تعالى : ﴿ كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ . كيف عبر عن الكفر بصيغة الماضى ، وعن الصد بصيغة المضارع ، تجد فى ذلك دلالة عميقة عن ثبات الكفر ، واستمرار الصد ، وهم يدعون أنهم أهل البيت وأولياؤه .

قال تعالى : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون * وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾[5] .

إن الله تعالى قد حفظ هذا البيت ، وأحاطه بالرعاية والعناية .

﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ : أى:ومن تمل نفسه إلى إحداث ظلم فيه ، نذقه من عذاب أليم .

وما حادثة أصحاب الفيل عنك ببعيد ، عندما تحركت جيوش أبرهه ، وظنوا أن الطريق إلى البيت الحرام ممهد ، ونسوا أن للكون إلهاً ، وأن هذا البيت قد أضيف إليه إضافة تشريف وتكريم ومهابة

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٦٧ من سورة النساء .
(٤) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة النساء .
(٥) الآيات ٣٣ - ٣٦ من سورة الأنفال .

وتعظيم ، وعندما سولت لهم أنفسهم أن يهدموه صدرت الأوامر من القيادة العليا إلى سرب من سلاح الطيران الإلهى يحمل بين أصابعه القنابل الجارفة الحارقة ، وتحرك السرب من قاعدة ما ، وخف يحمل القنابل إلى مكان المعركة ، بعدما حبس الله الفيل عن دخول مكة .

فكان نتيجة المعارك كما جاء فى ذلك البيان الحربى القرآنى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

فيا أمة الإسلام ، ويا أتباع محمد خير الأنام : حافظوا على دعائم الإسلام : المصحف ، والمسجد الحرام ، وصلاة الجمع ، وعرفات ، ورمضان .

**قوله تعالى :**

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ .

جاء فى الصحيحين عن أبى ذر قال قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : ( المسجد الحرام ) . قلت : ثم أى ؟ قال : ( بيت المقدس ) . قلت : كم بينهما ؟ قال : ( أربعون سنة )[1] .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾[2] .

وبوأنا لإبراهيم أى هيأنا له هذا المكان وأرشدناه إليه .

ومعنى : ﴿ لا تشرك بى شيئاً ﴾ أى ابن هذا البيت لرفع راية التوحيد ، والتوحيد إفراد المعبود بالعبودية مع إعتقاد وحدته ذاتاً وصفات وأفعالاً .

﴿ وطهر بيتى للطائفين ﴾ : قال قتادة : أى من الشرك .

﴿ للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ : أى اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها .

﴿ والقائمين ﴾ : أى فى الصلاة ولهذا قال : ﴿ والركع السجود ﴾ ، فقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده ، والصلاة إليه فى غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة ، وفى الحرب ، والنافلة فى السفر .

فاللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه أو اعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وفضلاً .

(١) أخرجه مسلم فى المساجد ، والنسائى فى القسامة : ١٥ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٣ .

(٢) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .

إن الله تعالى ينزل على حجاج بيته كل يوم عشرين ومائة رحمة ، ستين للطائفين ، وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين .

قوله تعالى ﴿ وأذن فى الناس بالحج ﴾ : أى :ناد فى الناس بالحج داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يارب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ . فقام على مقامه ، وقيل على الحجر . وقيل على الصفا ، وقيل : على أبى قبيس ، وقال : يأيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه . فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من فى الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك .

هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ :

﴿ يأتوك رجالاً ﴾ : أى مشاة . ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ : أى راكبين .

وقد حج رسول الله ﷺ راكباً مع قدرته على المشى ، مما يدل على أن الركوب أفضل ، فالله تعالى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾[1] قال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ يأتين من كل فج عميق ﴾ :

هذه الآية استجابة لدعوة إبراهيم حين دعا : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[3] .

والفج والفجاج : هى الطريق ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾[4] .

والفج العميق هو البعيد .

فتأمل معى حين قال الله لإبراهيم أذن فى الناس بالحج ، قال إبراهيم : وما يبلغ صوتى يا رب العزة . قال له : يا إبراهيم : عليك الأذان وعلينا الإبلاغ ، فصعد إبراهيم جبل أبى قبيس ، ونادى : أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً فحجوه ، فلبت الأرواح : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

---

(١) الآية ١٧٨ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٣) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٣١ من سورة الأنبياء .

فما هو الحج ؟

قال الفقهاء :

قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾[1] .

**تعـــريفه :**

هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعى والوقوف بعرفة وسائر مناسك الحج ، استجابة لأمر الله ، وابتغاء مرضاته ، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وفرض من الفرائض التى علمت من الدين بالضرورة .

فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام ، والمختار لدى جمهور العلماء أن إيجابه ، كان سنة ست بعد الهجرة ، لأنه نزل فيها قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾[2] .

وهذا مبنى على أن الإتمام يراد به ابتداء الفرض .

ويؤيد هذا قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعى ( وأقيموا ) رواه الطبرانى بسند صحيح .

ورجح ابن القيم أن افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر .

**فضـــله :**

رغب الشارع فى أداء فريضة الحج ، وإليك بعض ما ورد فى ذلك :

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : ( إيمان بالله ورسوله ) . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ( الجهاد فى سبيل الله ) . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ( حج مبرور )[3] رواه البخارى ومسلم .

رواه ابن حبان فى صحيحه ولفظه : قال : رسول الله ﷺ : ( أفضل الأعمال عند الله تعالى : إيمان لا شك فيه ، وغزو لا غلول فيه ، وحج مبرور ) .

قال أبو هريرة : حجة مبرورة تكفر خطايا سنة .

( المبرور ) : قيل: هو الذى لا يقع فيه معصية ، وقد جاء من حديث جابر مرفوعا :

( إن بر الحج : إطعام الطعام وطيب الكلام وعند بعضهم : إطعام الطعام وإفشاء السلام )[4] .

---

( ١ ) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران ( ٢ ) الآية ١٩٦ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٨ ، وفى الحج : ٤ ، ٣٤ ، ١٠٢ ، وفى الجهاد : ١ ، وفى التوحيد : ٤٧ ، ومسلم فى الإيمان : ١٣٥ ، وفى الحج : ٢٠٤ ، ٤٣٧ ، والترمذى فى فضائل الجهاد : ٢٢ ، وفى الحج : ٨٨ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، ٥ ، ٦ ، وفى الجهاد : ١٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٣ ، والإمام مالك فى الحج : ٦٥ ، والدارمى فى الجهاد : ٤ . والإمام أحمد فى : ١ : ٢٤١ ، ٤٢٧ ، وفى ٢ : ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، وفى ٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٤٤٧ ، وفى ٤ : ٢٠٤ ، وفى ٥ : ٤٥١ ، وفى ٦ : ٣٧٢ .

( ٤ ) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٦ ، والترمذى فى تفسير سورة ٣٨ : ٢ ، ٤ ، والدارمى فى الأطعمة : ٣٩ والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٣٨٥ ، وفى ٥ : ٢٤٣ ، ٣٧٨ .

* وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه )[١] . رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ، والترمذى إلا أنه قال : ( غفر له ما تقدم من ذنبه ) .

( الرفث ) : بفتح الراء والفاء جميعاً : روى عن ابن عباس أنه قال :

**الرفث** : ما روجع به النساء .

وقال الأزهرى : **الرفث** : كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة .

**قال الحافظ** : الرفث : يطلق ويراد به الجماع ، ويطلق ويراد به الفحش ، ويطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة فيما يتعلق بالجماع ، وقد نقل فى معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء . والله تعالى أعلم .

* وعنه رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة )[٢] . رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والأصبهانى وزاد : ( وما سبح الحاج من تسبيحة ولا هلل من تهليلة ولا كبر من تكبيرة إلا بشر بها تبشيرة ) .

* وعن ابن شماسة رضى الله عنه قال : ( حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت فبكى طويلا.وقال : فلما جعل الله الإسلام فى قلبى ، أتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله : أبسط يمينك لأبايعك ، فبسط يده ، فقبضت يدى . فقال : مالك يا عمرو؟ قال : أردت أن أشترط . قال : تشترط ماذا ؟ قال : أن يغفر لى . قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله )[٣] .

رواه ابن خزيمة فى صحيحه هكذا مختصراً ، ورواه مسلم وغيره أطول منه .

* وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : ( جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى جبان ، وإنى ضعيف . فقال : هلم إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج ) .

رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورواته ثقات وأخرجه عبد الرزاق أيضا .

* وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ( قلت يا رسول الله : نري الجهاد أفضل الأعمال ، أفلا نجاهد ؟ فقال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور )[٤] . رواه البخارى .

( ١ ) أخرجه البخارى فى الحج : ٢٤ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٨ ، والترمذى فى الحج : ٢ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، وابن ماجه فى المناسك : ٣ ، والدارمى فى المناسك : ٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٤١٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٤ .

( ٢ ) أخرجه البخارى فى العمرة : ١ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٧ ، والترمذى فى الحج : ٢ ، ٨٨ ، والنسائى فى الحج : ٣ ، ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى المناسك : ٣ ، والدارمى فى المناسك : ٧ ، والإمام مالك فى الحج : ٦٥ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٧ ، وفى ٢ : ٢٤٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، وفى ٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٤٤٧ .

( ٣ ) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٩٢ .

( ٤ ) أخرجه البخارى فى الحج : ٤ ، وفى الصيد : ٢٦ ، وفى الجهاد : ١ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٧١ ، ٧٩ .

وابن خزيمة فى صحيحه ولفظه قالت : ( قلت : يا رسول الله هل على النساء من جهاد ؟ قال : عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة ) .

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج والعمرة )[1] . رواه النسائى بإسناد حسن .

* وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فى سؤال جبرائيل عليه السلام إياه عن الإسلام ؟ فقال : ( الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج وتعتمر ، وتغتسل من الجنابة ، وأن تتم الوضوء ، وتصوم رمضان . قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم . قال : صدقت )[2] رواه ابن خزيمة فى صحيحه وهو فى الصحيحين وغيرهما بغير هذا السياق .

* وروى ابن عمر رضى الله عنهما قال : ( كنت جالسا مع النبى ﷺ فى مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف فسلما ، ثم قالا : يا رسول الله جئنا نسألك . فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه فعلت ، وإن شئتما أن أمسك وتسألانى فعلت ؟ فقالا : أخبرنا يا رسول الله فقال : الثقفى للأنصارى : سل . فقال : أخبرنى يا رسول الله فقال • جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ، ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفات ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه من الإفاضة . فقال : والذى بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك . قال : فإنك خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام ، لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل عليه السلام ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفات فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا ، فيباهى بكم الملائكة . يقول : عبادى جاءونى شعثاً من كل فج عميق ، يرجون جنتى ، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل ، أو كقطر المطر ، أو كزبد البحر لغفرتها ، أفيضوا عبادى مغفوراً لكم ، ولمن شفعتم له . وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبير من الموبقات ، وأما نحرك فمدخور لك عند ربك . وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، ويمحى عنك بها خطيئة . وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول اعمل فيما تستقبل فقد غفر لك ما مضى ) .

رواه الطبرانى فى الكبير ، والبزار واللفظ له .

* وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( الحج جهاد كل ضعيف )[3] . رواه ابن ماجه عن أبى جعفر .

---

( ١ ) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٨ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢١ ، وفى ٦ : ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .

( ٢ ) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٤ ، ٣٧ ، وفى الشهادات : ٢٦ ، وفى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، ومسلم فى الإيمان : ٥ ، ٧ ، ٨ ، وأبو داود فى السنة : ١٦ ، والترمذى فى الإيمان : ٤ ، والنسائى فى الإيمان : ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى المقدمة : ٩ ، ١٠ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥٢ ، ١٦٢ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ ، ٣٨٥ ، ٤٤٦ ، وفى ٥ : ٣ .

( ٣ ) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٨ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢١ ، وفى ٦ : ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .

* وعن عمرو بن عتبة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : ( أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ) . قال : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : ( الإيمان ) . قال : وما الإيمان ؟ قال : ( أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ) . قال : فأى الإيمان أفضل ؟ قال : ( الهجرة ) . قال : وما الهجرة ؟ قال : ( أن تهجر السوء ) قال : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : ( الجهاد ) قال : وما الجهاد ؟ قال : ( أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم ). قال : فأى الجهاد أفضل ؟ قال : ( من عقر جواده وأهريق دمه ) . قال رسول الله ﷺ : ( ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما : حجة مبرورة ، أوعمرة مبرورة )[1] . رواه أحمد بإسناد صحيح ورواته محتج بهم فى الصحيح والطبرانى وغيره ورواه البيهقى عن أبى قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه .

* وعن ماعز رضى الله عنه عن النبى ﷺ : أنه سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال : ( إيمان بالله وحده ، ثم الجهاد ، ثم حجة برة ، تفضل سائر الأعمال كما بين مطلع الشمس إلى مغربها )[2] . رواه أحمد والطبرانى ورواه أحمد إلى ماعز رواة الصحيح .

## ( قال الفقهاء )

الحج يجب مرة واحدة :

أجمع العلماء على أن الحج لا يتكرر ، وأنه لا يجب فى العمر إلا مرة واحدة ، إلا أن ينذره ، فيجب الوفاء بالنذر ، وما زاد فهو تطوع .

* فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : ( يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ) فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال ﷺ : ( لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم ) ثم قال : ( ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه )[3] . رواه البخارى ومسلم .

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( يا أيها الناس كتب عليكم الحج ) فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال : ( لو قلتها لوجبت ، ولوجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا ، الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع )[4] .

رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وصححه .

---

( ١ ) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٨٧ ، وفى ٣ : ١١٤ ، ٤١٢ ، وفى ٤ : ٣٤٢ .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٢ .

( ٣ ) أخرجه البخارى فى الاعتصام : ٢ ، ومسلم فى الحج : ٤١١ ، وفى الفضائل : ١٣١ ، والترمذى فى العلم : ١٧ ، والنسائى فى الحج : ١ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١ .

( ٤ ) أخرجه أبو داود فى المناسك : ١ ، والدارمى فى المناسك : ٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٥ ، ٢٩١ ، ٣٥٢ ، ٣٧١ .

## وجوبه على الفور أو التراخى

ذهب الشافعى والثورى والأوزاعى ومحمد بن الحسن : إلى أن الحج واجب على التراخى ، فيؤدى فى أى وقت من العمر ، ولا يأثم من وجب عليه بتأخيره متى أداه قبل الوفاة ، لأن رسول الله ﷺ أخر الحج إلى سنة عشرة ، وكان معه أزواجه ، وكثير من أصحابه ، مع أن إيجابه كان سنة ست ، فلو كان واجباً على الفور لما أخره ﷺ .

**قال الشافعى** : فاستدللنا على أن الحج فرضه مرة فى العمر ، أوله البلوغ ، وآخره أن يأتى به قبل موته .

وذهب **أبو حنيفة ومالك وأحمد** وبعض أصحاب الشافعى **وأبو يوسف إلى أن الحج واجب على الفور** لحديث ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : ( من أراد الحج فليعجل ، فإنه قد يمرض المريض ، وتضل الراحلة ، وتكون الحاجة )[1] .

رواه أحمد والبيهقى والطحاوى وابن ماجه .

وعنه أنه ﷺ قال : ( تعجلوا الحج ـ يعنى الفريضة ـ فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له )[2] رواه أحمد والبيهقى وقال : ( ما يعرض له من مرض أو حاجة ) .

وحمل الأولون هذه الأحاديث على الندب ، وأنه يستحب تعجيله والمبادرة به ، متى استطاع المكلف أداءه .

## شروط وجوب الحج

اتفق الفقهاء : على أنه يشترط لوجوب الحج ، الشروط الآتية :

١ ـ الإسلام .

٢ ـ البلوغ .

٣ ـ العقل .

٤ ـ الاستطاعة .

فمن لم تتحقق فيه هذه الشروط فلا يجب عليه الحج ، وذلك أن الإسلام والبلوغ والعقل شرط التكليف فى أية عبادة من العبادات .

وفى الحديث : أن النبى ﷺ قال : ( رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل )[3] .

وأما الاستطاعة فلقول الله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[4] .

---

( ١ ) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٥٥ .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣١٤ .

( ٣ ) أخرجه البخارى فى الحدود : ٢٢ ، وفى الطلاق : ١١ ، وأبو داود فى الحدود : ١٧ ، والترمذى فى الحدود : ١ ، وابن ماجه فى الطلاق : ١٥ ، والدارمى فى الحدود : ١ ، والإمام أحمد فى ٦ : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٤ .

( ٤ ) الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

## بم تتحقق الاستطاعة

تتحقق الاستطاعة التى هى شرط من شروط الوجوب بما يأتى :

١ ـ أن يكون المكلف صحيح البدن ، فإن عجز عن الحج لشيخوخة أو زمانة أو مرض لا يرجى شفاؤه ، لزمه إحجاج غيره عنه إن كان له مال .

٢ ـ أن يكون مالكاً للزاد والراحلة .

والمعتبر فى الزاد : أن يملك ما يكفيه مما يصح به بدنه ، ويكفى من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية ، من ملبس ومسكن ومركب وآلة حرفة ، حتى يؤدى الفريضة ويعود . والمعتبر فى الراحلة أن تمكنه من الذهاب والإياب ، سواء أكان ذلك عن طريق البر أو البحر أو الجو ، وهذا بالنسبة لمن لا يمكنه المشى لبُعده عن مكة .

فأما القريب الذى يمكنه المشى فلا يعتبر وجود الراحلة فى حقه ، لأنها مسافة قريبة يمكنه المشى إليها .

وقد جاء فى بعض روايات الحديث : أن رسول الله ﷺ فسر السبيل بالزاد والراحلة .

* فعن أنس رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال : ( الزاد والراحلة ) . رواه الدارقطنى وصححه .

قال الحافظ : والراجح إرساله ؛ وأخرجه الترمذى من حديث ابن عمر أيضا .

* وعن على رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( من ملك زاداً أو راحلة ، تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً )[1] . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[2] رواه الترمذى .

والأحاديث وإن كانت بها ضعف إلا أن أكثر العلماء يشترط لإيجاب الحج : الزاد والرحلة لمن نأت داره ، فمن لم يجد زاداً ولا راحلة فلا حج عليه .

قال ابن تيمية : فهذه الأحاديث ـ مسندة من طرق حسان ومرسلة وموقوفة ، تدل على أن مناط الوجوب الزاد والراحلة ، مع علم النبى ﷺ أن كثيراً من الناس يقدرون على المشى .

وأيضاً فإن الله قال فى الحج : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ إما أن يعنى القدرة المعتبرة فى جميع العبادات ، وهو مطلق المُكنة ـ أو قيداً زائداً على ذلك فإن كان المعتبر الأول لم يحتج إلى التقييد ، كما لم يحتج إليه فى آية الصوم والصلاة ، فعلم أن المعتبر قدر زائد على ذلك ، وليس هو إلا المال ، وأيضاً فإن الحج عبادة مفتقرة إلى مسافة فافتقر وجوبها إلى ملك الزاد والراحلة كالجهاد .

وفى المهذب : وإن وجد ما يشترى به الزاد والراحلة وهو محتاج إليه لدين عليه لم يلزمه حالاً كان الدين أو مؤجلاً .

---

( ١ ) أخرجه الترمذى فى الحج : ٣ .

( ٢ ) الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

لأن الدين الحال على الفور ، والحج على التراخى ، فقدم عليه والمؤجل يحل عليه ، فإذا صرف مامعه فى الحج لم يجد ما يقضى به الدين .

قال : وإن احتاج إليه لمسكن لابد من مثله ، أو خادم يحتاج إلى خدمته لم يلزمه ، وإن احتاج إلى النكاح ـ وهو يخاف العنت ـ قدم النكاح ، لأن الحاجة إلى ذلك على الفور .

وإن احتاج إليه فى بضاعة يتجر فيها ليحصل منها ما يحتاج إليه للنفقة ، فقد قال أبو العباس ابن سريج : لا يلزمه الحج لأنه محتاج إليه ، فهو كالمسكن والخادم .

وفى المغنى : إن كان دين على ملىء باذل له يكفيه للحج لزمه ، لأنه قادر ، وإن كان على معسر أو تعذر استيفاؤه عليه لم يلزمه .

وعند الشافعية : أنه إذا بذل رجل لآخر راحلة من غير عوض لم يلزمه قبولها ، لأن عليه فى قبول ذلك منة ، وفى تحمل المنة مشقة ، إلا إذا بذل له ولده ما يتمكن به من الحج لزمه ، لأنه أمكنه الحج من غير منة تلزمه .

وقالت الحنابلة : لايلزمه الحج ببذل غيره ولا يصير مستطيعاً بذلك ، سواء كان الباذل قريباً أو أجنبياً .

وسواء بذل له الركوب والزاد ، أو بذل له مالا .

## حج الصبى والعبد

لا يجب عليهما الحج ، لكنهما إذا حجا صح منهما ولا يجزئهما عن حجة الإسلام .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبى ﷺ : ( أيما صبى حج ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج مرة أخرى ، أيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى ) . رواه الطبرانى بسند صحيح .

وقال السائب بن يزيد : ( حج أبى مع رسول الله ﷺ فى حجة الوادع وأنا ابن سبع سنين )[١] رواه أحمد والبخارى والترمذى .

وقال : قد أجمع أهل العلم : على أن الصبى إذا حج قبل أن يدرك فعليه الحج إذا أدرك ، وكذلك المملوك إذا حج فى رقه ثم أعتق فعليه الحج إذا وجد إلى ذلك سبيلاً .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن امرأة رفعت إلى رسول الله ﷺ صبياً فقالت ألهذا حج ؟ قال : ( نعم ولك أجر ) .

* وعن جابر رضى الله عنه قال : ( حججنا مع رسول الله ﷺ ومعنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم )[٢] رواه أحمد وابن ماجه .

ثم إن كان الصبى مميزا أحرم بنفسه وأدى مناسك الحج ، وإلا أحرم عنه وليه . ولبى عنه وطاف

---

(١) أخرجه البخارى فى الصيد : ٢٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٦٨ .

به وسعى ووقف بعرفة ورمى عنه . ولو بلغ قبل الوقوف بعرفة أو فيها : أجزأ عن حجة الإسلام كذلك العبد إذا أعتق .

وقال مالك ، وابن المنذر : لا يجزئهما ، لأن الإحرام انعقد تطوعاً فلا ينقلب فرضاً .

## حـج المـــرأة

يجب على المرأة الحج كما يجب على الرجل سواء بسواء إذا استوفت شرائط الوجوب التى تقدم ذكرها ، ويزاد عليها بالنسبة للمرأة أن يصحبها زوج أو محرم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يخلون رجل بإمرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم ) فقام رجل فقال : يا رسول الله : إن امرأتى خرجت حاجّة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا فقال : ( انطلق فحج مع امرأتك )[١] . رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم .

وعن يحيى بن عبادة قال : كتبت امرأة من أهل الرى إلى إبراهيم النخعى : إنى لم أحج حجة الإسلام وأنا موسرة ليس لى ذو محرم فكتب إليها : إنك ممن لم يجعل الله له سبيلاً .

وإلى اشتراط هذا الشرط وجعله من حملة الاستطاعة ، ذهب أبو حنيفة وأصحابه والنخعى والحسن والثورى وأحمد وإسحق .

قال الحافظ : والمشهور عند الشافعية اشتراط الزوج أو المحرم أو النسوة الثقات ، وفى قول : تكفى امرأة واحدة ثقة ، وفى قول ـ نقله الكرابيسى وصححه فى المهذب ـ تسافر وحدها إذا كان الطريق آمناً .

وهذا كله فى الواجب من حج أو عمرة .

وفى سبل السلام : وقال جماعة من الأئمة : يجوز للعجوز السفر من غير محرم .

وقد استدل المجيزون لسفر المرأة من غير محرم ولا زوج إذا وجدت رفقة مأمونة ، أو كان الطريق آمنا ، بما رواه البخارى عن عدى بن حاتم قال : ( بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قال : قلت:لم أرهما وقد أنبئت عنهما . قال : فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ( أى الهودج فيه امرأة أم لا ) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله )[٢] .

واستدلوا أيضاً : بأن نساء النبى ﷺ حججن بعد أن أذن لهن عمر فى آخر حجة حجها ، وبعث معهن عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف .

---

( ١ ) أخرجه مسلم فى الحج : ٤٢٤ ، والبخارى فى النكاح : ١١١ ، ١١٢ ، والترمذى فى الرضاع : ١٦ ، وفى الفتن : ٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٢ ، وفى ٣ : ٣٣٩ ، ٤٤٦ .

( ٢ ) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٥٧ ، ٣٧٨ .

وكان عثمان ينادى : ألا لايدنو أحد منهن ولا ينظر إليهن وهن فى الهوادج على الإبل .

إذا خالفت المرأة وحجت دون أن يكون معها زوج أومحرم صح حجها .

وفى سبل السلام : ( قال ابن تيمية : إنه يصح الحج من المرأة بغير محرم ومن غير المستطيع ) .

**وحاصله** : أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة مثل المريض والفقير والمعضوب والمرأة بغير محرم وغير ذلك ، إذا تكلفوا شهود المشاهد أجزأهم الحج .

ثم منهم من هو محسن فى ذلك ، كالذى يحج ماشياً ، ومنهم من هو مسىء فى ذلك كالذى يحج بالمسألة ، والمرأة تحج بغير محرم ، وإنما أجزأهم لأن الأهلية تامة ، والمعصية إن وقعت فى الطريق لا فى نفس المقصود .

وفى المغنى : لو تجشم غير المستطيع مشقة وسار بغير زاد وراحلة فحج ، كان حجه صحيحاً مجزئاً .

## استئذان المرأة زوجها

يستحب للمرأة أن تستأذن زوجها فى الخروج إلى الحج الفرض ، فإن أذن لها خرجت ، وإن لم يأذن لها خرجت بغير إذنه ، لأنه ليس للرجل منع امرأته من حج الفريضة ، لأنها عبادة وجبت عليها ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولها أن تعجل به لتبرىء ذمتها كما لها أن تصلى أول الوقت ، وليس له منعها ويلحق به الحج المنذور ، لأنه واجب عليها كحجة الإسلام .

وأما حجة التطوع فله منعها منه .

لما رواه الدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ - فى امرأة كان لها زوج ولها مال فلا يأذن لها فى الحج - قال - : ( ليس لها أن تنطلق إلا بإذن زوجها ) .

## من مات وعليه حج

من مات وعليه حجة الإسلام أو حجة كان قد نذرها ، وجب على وليه أن يجهز من يحج عنه من ماله ، كما أن عليه قضاء ديونه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال : ( نعم ، حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء )[1] . رواه البخارى .

وفى الحديث دليل على وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أو لم يوص ، لأن الدين يجب قضاؤه مطلقاً ، وكذا سائر الحقوق المالية من كفارة أو زكاة أو نذر .

وإلى هذا ذهب ابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ، والشافعى ، ويجب إخراج الأجرة من رأس المال عندهم .

(١) أخرجه البخارى فى الصوم : ٤٢ ، وفى الزكاة : ١٨ ، ومسلم فى الصيام : ١٤٥ ، ١٥٥ .

وظاهر أنه يقدم على دين الآدمى ، إذا كانت التركة لا تتسع للحج والدين لقوله ﷺ:( فالله أحق بالوفاء )[١] .

وقال مالك : إنما يحج عنه إذا أوصى .

أما إذا لم يوص فلا يحج عنه لأن الحج عبادة غلب فيه جانب البدنية فلا يقبل النيابة . وإذا أوصى حج من الثلث .

## الحـج عن الغـير

من استطاع السبيل إلى الحج ثم عجز عنه بمرض أو شيخوخة لزمه إحجاج غيره عنه ، لأنه أيسر من الحج بنفسه لعجزه ، فصار كالميت فينوب عنه غيره .

ولحديث الفضل بن عباس : أن امرأة من خثعم قالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً ، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ قال ( نعم ) وذلك فى حجة الوداع : رواه الجماعة وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال الترمذى أيضاً : وقد صح عن النبى ﷺ فى هذا الباب غير حديث ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم ، يرون أن يحج عن الميت .

وقال مالك : إذا أوصى أن يحج عنه حج عنه .

وقد رخص بعضهم أن يحج عن الحى إذا كان كبيراً وبحال لا يقدر أن يحج ، وهو قول ابن المبارك والشافعى .

وفى الحديث دليل على أن المرأة يجوز لها أن تحج عن الرجل والمرأة ، والرجل يجوز له أن يحج عن الرجل والمرأة ، ولم يأت نص يخالف ذلك .

## إذا عوفى المعضوب

إذا عوفى المريض بعد أن حج عنه نائبه ، فإنه يسقط الفرض عنه ولا يلزمه الإعادة ، لئلا تفضى إلى إيجاب حجتين ، وهذا مذهب أحمد .

وقال الجمهور : لا يجزئه ، لأنه تبين أنه لم يكن ميئوساً منه وأن العبرة بالانتهاء .

ورجح ابن حزم الرأى الأول ، فقال : إذا أمر النبى ﷺ بالحج عمن لا يستطيع الحج راكباً ولا ماشياً ، وأخبر أن دين الله يقضى عنه فقد تأدى الدين بلا شك ، وأجزأ عنه .

وبلا شك أن ما سقط وتأدى فلا يجوز أن يعود فرضه بذلك ، إلا بنص ولا يعنى ههنا أصلاً بعودته .

ولو كان ذلك عائداً بين عليه الصلاة والسلام ذلك ، إذ قد يقوى الشيخ فيطيق الركوب .

---

(١) أخرجه البخارى فى الصيد : ٢٢ ، وفى الإيمان : ٣٠ ، وفى الاعتصام : ١٢ .

فإذا لم يخبر النبى ﷺ بذلك ، فلا يجوز عودة الفرض عليه بعد صحة تأديته .

## شرط الحج عن الغير

يشترط فيمن يحج عن غيره أن يكون قد سبق له الحج عن نفسه .

لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : لبيك عن شبرمة ، فقال : أحججت عن نفسك ؟ قال : لا : قال ( فحجَّ عن نفسك ثم حج عن شبرمة ) .

رواه أبو داود وابن ماجه .

وهذا قول أكثر أهل العلم : أنه لا يصح أن يحج عن غيره من لم يحج عن نفسه مطلقاً ، مستطيعاً كان أو لا .

لأن ترك الاستفصال والتفريق فى حكاية الأموال دالٌ على العموم .

## من حج لنذر وعليه حجة الإسلام

أفتى ابن عباس وعكرمة : بأن من حج لوفاء نذر عليه ولم يكن حج حجة الإسلام أنه يجزىء عنهما .

وأفتى ابن عمر وعطاء : بأنه يبدأ بفريضة الحج ، ثم يفى بنذره .

قوله تعالى : **﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾** .

الحج مؤتمر إسلامى كبير له من الأهداف ما لا يحصى ، ومن الغايات ما لا يستقصى ، وقد كان عمر رضى الله عنه يجعل من الحج موسماً يناقش فيه عمال الأقاليم ويحاسبهم ، أيام كانت الخلافة الراشدة تجمع شتات الأمة وتوحدها صفاً وهدفا .

وقد جاءت كلمة المنافع فى قوله تعالى : **﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾** جاءت بصيغة التذكير الذى يفيد التكثير والتعظيم وتلك المنافع تشتمل منافع الآخرة والدنيا .

قال ابن عباس : منافع الدنيا والآخرة : أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات ، ومن منافع الدنيا ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾[1] . فلا بأس للحاج أن يتاجر ويؤاجر ويتكسب وهو يؤدى أعمال الحج والعمرة .

قال ابن عباس : ( إن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون : بـ( منى ) ، و( عرفة ) وسوق ( ذى المجاز ) ومواسم الحج ، فخافوا البيع وهم حرم فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فى موسم الحج ) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

---

( ١ ) الآية ١٩٨ من سورة البقرة .

وعن ابن عباس أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ قال : ( كانوا لا يتجرون بـ « منى » فأمروا أن يتجروا إذا أفاضوا من « عرفات » )[١] . رواه أبو داود :

وعن أبى أمامة الغنيمى : أنه قال لابن عمر : إنى رجل أكرى فى هذا الوجه ، وإن أناساً يقولون لى : إنه ليس لك حج . فقال ابن عمر : أليس تحرم وتلبى وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمى الجمار ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فإن لك حجاً ، جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن مثل ما سألتنى فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية وقال : لك حج )[٢] رواه أبو داود ، وسعيد بن منصور .

وقال الحافظ المنذرى : أبو أمامة لا يعرف اسمه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلاً سأله فقال : أؤجّر نفسى من هؤلاء القوم فأنسك معهم المناسك ألِىَ أجر ؟ قال ابن عباس : ( نعم أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ) . رواه البيهقى والدارقطنى .

قوله تعالى: ﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ .

قال شعبة عن ابن عباس رضى الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر .

وقال البخارى عن محمد بن عرعرة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : ( ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه ) قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ( ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء )[٣] رواه الإمام أحمد .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد )[٤] .

وقال البخارى : ( وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما ) .

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعا أن ( هذا هو العشر الذى أقسم الله به )[٥] فى قوله : ﴿ والفجر * وليال عشر ﴾[٦] .

وقال بعض السلف إنه المراد بقوله: ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ .

وفى سنن أبى داود : ( أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ) .

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة . الذى ثبت فيه صحيح مسلم عن أبى قتادة قال سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال : ( احتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية ، ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر ) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى المناسك : ٦ .
(٢) أخرجه أبو داود فى المناسك : ٦٠ .
(٣) أخرجه البخارى فى العيدين : ١١ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٢٤ ، ٣٣٨ ، وفى ٢ : ٧٥ ، ١٣٢ .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٧ .
(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الفجر .

وعن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( أفضل أيام الدنيا العشر ) : يعنى عشر ذى الحجة . قيل : ولا مثلهن فى سبيل الله ؟ قال : ( ولا مثلهن فى سبيل الله إلا رجل عُفِّرَ وجهه بالتراب ) رواه البزار بإسناد حسن .

وأبو يعلى بإسناد صحيح ولفظه قال : ( ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذى الحجة ) قال فقال رجل : يا رسول الله ! هن أفضل أم عدتهن جهاداً فى سبيل الله ؟ قال : ( هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله إلا عفير يعفر وجهه فى التراب ) . الحديث ورواه ابن حبان فى صحيحه .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد له فيها من عشر ذى الحجة يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر )[١] رواه الترمذى وابن ماجه والبيهقى .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من أيام أفضل عند الله ولا العمل فيهن أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام يعنى من العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير وذكر الله وإن صيام يوم منها يُعدلُ بصيام سنة والعمل فيهن يضاعف بسبعمائة ضعف ) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان يقال فى أيام العشر بكل يوم ألف يوم ، ويوم عرفة عشرة آلاف يوم . قال يعنى : فى الفضل . رواه البيهقى والأصبهانى .

وعن الأوزاعى رضى الله عنه قال : بلغنى أن العمل فى اليوم من أيام العشر كقدر غزوة فى سبيل الله يصام نهارها ، ويحرس ليلها ، إلا أن يختص امرؤ بشهادة . قال الأوزاعى :

( قول ثان ) : فى الأيام المعلومات :

قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس : الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، ويروى هذا عن ابن عمر ، كان يقول : الأيام المعلومات المعدودات هن جميعهن أربعة أيام ، فالأيام المعلومات يوم النحر ، ويومان بعده ، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، وهذا إسناد صحيح إليه .

وقاله السدى : وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعنى به ذكر الله عند ذبحها .

( قول رابع ) إنها يوم عرفة ويوم النحر . ويوم آخر بعده ، وهو مذهب أبى حنيفة .

وقال ابن وهب عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال : المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾[٢] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصيام : ٣٩ .
(٢) الآية ١٤٤ من سورة الأنعام .

كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾[١] .

والمقصود بقوله تعالى : **﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾** :

الأكثرون على أن الأمر هنا للاستحباب لا على الوجوب ، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هدية أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها .

قال عبد الله بن وهب قال:لى مالك أحب أن يأكل من أضحيته ، لأن الله يقول **﴿ فكلوا منها ﴾** .

وقال سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم **﴿ فكلوا منها ﴾** قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبحائهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل .

والمقصود بالبائس الفقير كما قال عكرمة : هو المضطر الذى يظهر عليه البؤس ، وهو الفقير المتعفف .

وقال مجاهد : هو الذى لا يبسط يده .

وقال قتادة : هو الزمن .

وقال مقاتل بن حيان : هو الغرير .

## قال الفقهاء فى الهدى

* **الهـــدى :**

هو ما يُهدى من النعم إلى الحرم تقرباً إلى الله عز وجل ، قال الله تعالى : **﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون * لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾** .

وقال رضى الله عنه : اهدوا ، فإن الله يحب الهدى . وأهدى رسول الله ﷺ مائة من الإبل ، وكان هديه تطوعاً .

* **الأفضل فيه :**

أجمع العلماء : على أن الهدى لا يكون إلا من النعم ، واتفقوا : على أن الأفضل الإبل ، ثم البقر ، ثم الغنم ، على هذا الترتيب .

لأن الإبل أنفع للفقراء لعظمها ، والبقر أنفع من الشاة كذلك .

واختلفوا فى الأفضل للشخص الواحد :

هل يهدى سبع بدنة ، أوسُبع بقرة ، أويهدى شاة ؟

والظاهر أن الاعتبار بما هو أنفع للفقراء .

(١) الآية ٦ من سورة الزمر .

* **أقل ما يجزىء فى الهدى :**

للمرء أن يهدى للحرم ما يشاء من النعم .

وقد أهدى رسول الله ﷺ مائة من الإبل ، وكان هديه هدى تطوع .

وأقل ما يجزىء عن الواحدة شاة أو سُبع بدنة أو سُبع بقرة ، فإن البقرة أو البدنة تجزىء عن سبعة .

قال جابر رضى الله عنه : ( حججنا مع رسول الله ﷺ فنحرنا البعير عن سبعة ، والبقرة عن سبعة )[١] . رواه أحمد ومسلم .

ولا يشترط فى الشركاء أن يكونوا جميعاً ممن يريدون القربة إلى الله تعالى .

بل لو أراد بعضهم التقرب ، وأراد البعض اللحم جاز ، خلافاً للأحناف الذين يشترطون التقرب إلى الله من جميع الشركاء .

* **متى تجب البدنة ؟**

ولا تجب البدنة إلا إذا طاف للزيارة جنباً أو حائضاً أو نفساء ، أو جامع بعد الوقوف بعرفة وقبل الحلق ، أو نذر بدنة أو جزوراً . ومن لم يجد بدنة فعليه أن يشترى سبع شياه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : ( أن النبى ﷺ أتاه رجل فقال : إن على بدنة وأنا موسر بها ولا أجدها فأشتريها . فأمره ﷺ أن يبتاع سبع شياه فيذبحهن )[٢] . رواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح .

* **أقسـامـه :**

ينقسم الهدى إلى مستحب ، وواجب .

فالهدى المستحب : للحاج المفرد والمعتمر المفرد ، والهدى الواجب : أقسامه كالآتى :

١ ، ٢ - واجب على القارن ، والمتمتع .

٣ - واجب على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار والإحرام من الميقات ، والجمع بين الليل والنهار فى الوقوف بعرفة ، والمبيت بالمزدلفة أو منى ، أو ترك طواف الوداع .

٤ - واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام غير الوطء كالتطيب والحلق .

٥ - واجب بالجناية على الحرم كالتعرض لصيده أو قطع شجرة ، وكل ذلك مبين فى موضعه كما تقدم .

---

( ١ ) أخرجه مسلم فى الحج : ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، والترمذى فى الأضاحى : ٨ ، ٩ ، والنسائى فى الضحايا : ١٦ ، والدارمى فى الأضاحى : ٥ ، والإمام مالك فى الضحايا : ٩ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٥٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣١١ ، ٣١٢ .

## شروط الهـدى

يشترط فى الهدى الشروط الآتية :

١ ـ أن يكون ثنياً إذا كان من غير الضأن .

أما الضأن فإنه يجزىء منه الجذع فما فوقه ، وهو ماله ستة أشهر ، وكان سمينا . والثنى من الإبل : ما له خمس سنين ، ومن البقر : ما له سنتان ، ومن المعز ما له سنة تامة . فهذه يجزىء منها الثنىُّ فما فوقه .

٢ ـ أن يكون سليماً : فلا تجزىء فيه العوراء ولا العرجاء ولا الجرباء ولا العجفاء .

وعن الحسن : أنهم قالوا : إذا اشترى الرجل البدنة أو الأضحية وهى وافية فأصابها عور أو عرج أو عجف قبل يوم النحر فليذبحها وقد أجزأته . رواه سعيد بن منصور .

## استحباب اختيار الهـدى

روى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول لبنيه : يا بنى لا يُهدِ أحدكم لله تعالى من البدن شيئاً يستحى أن يهديه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء وأحق من اختير له .

وروى سعيد بن منصور : أن ابن عمر رضى الله عنهما سار فيما بين مكة على ناقة بختية فقال : بخ بخ ، فأعجبته فنزل عنها فأشعرها وأهداها .

## إشعار الهدى وتقليده

الإشعار : هو أن يشق أحد جنبى سنام البدنة أو البقرة إن كان لها سنام ، حتى يسيل دمها ، ويجعل ذلك علامة لكونها هدياً فلا يتعرض لها .

والتقليد : هو أن يجعل فى عنق الهدى قطعة جلد ونحوها ، ليعرف بها أنه هدى .

وقد أهدى رسول الله ﷺ مرة غنماً وقلدها ، وقد بعث بها مع أبى بكر رضى الله عنه عندما حج سنة تسع وثبت عنه : أنه ﷺ قلد الهدى وأشهره وأحرم بالعمرة وقت الحديبية .

وقد استحب الإشعار عامة العلماء ما عدا أبا حنيفة .

## الحكمة فى الإشعار والتقليد

والحكمة فيهما تعظيم شعائر الله وإظهارها وإعلام الناس بأنها قرابين تساق إلى بيته ، تذبح له ، ويتقرب بها إليه .

## وقت الذبح

اختلف العلماء فى وقت ذبح الهدى .

فعند الشافعي : أن وقت ذبحه يوم النحر وأيام التشريق لقوله ﷺ : ( وكل أيام التشريق ذبح )[١] . رواه أحمد .

فإن فات وقته ذبح الهدى الواجب قضاء .

وعند مالك وأحمد وقت ذبح الهدى - سواء أكان واجباً ، أم تطوعاً - أيام النحر .

وهذا رأى الأحناف بالنسبة لهدى التمتع والقرآن ، وأما دم النذر والكفارات والتطوع فيذبح فى أى وقت ، وحكى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن والنخعى وقتها من يوم النحر إلى آخر ذى الحجة .

## مكان الذبح

الهدى سواء أكان واجباً أم تطوعاً - لا يذبح إلا فى الحرم ، وللمهدى أن يذبح فى أى موضع منه .

فعن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( كل منىً منحر ، وكل المزدلفة موقف ، وكل فجاج مكة طريق ومنحرٍ )[٢] . رواه أبو داود وابن ماجه .

والأولى بالنسبة للحاج أن يذبح بمنى ، وبالنسبة للمعتمر أن يذبح عند المروة ، لأنها موضع تحلل كل منهما .

فعن مالك أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ قال - بمنى -: هذا المنحر وكل منى منحر وفى العمرة : هذا المنحر - يعنى المروة - وكل فجاج مكة وطرقها منحر .

* **استحباب نحر الإبل وذبح غيرها :**

يستحب أن تنحر الإبل وهى قائمة معقولة اليد اليسرى ، وذلك للأحاديث الآتية :

● لما رواه مسلم عن زياد بن جبير : أن ابن عمر رضى الله عنهما أتى على رجل وهو ينحر بدنته باركة فقال : ( ابعثها قياماً مقيدة سنة نبيكم ﷺ )[٣] .

● وعن جابر رضى الله عنه : ( أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدنة معقولة اليسرى قائمة على ما بقى منها )[٤] . رواه أبو داود .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها صواف** ﴾ أى: قياما على ثلاث . رواه الحاكم . أما البقر والغنم فيستحب ذبحها مضطجعة .

فإن ذبح ما ينحر ونحر ما يذبح ، قيل : يكره وقيل : لا يكره .

ويستحب أن يذبحها بنفسه إن كان يحسن الذبح وإلا فيندب له أن يشهده .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٨٢ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الصوم : ٥ ، وفى المناسك : ٢٤ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧٣ ، والدارمى فى المناسك : ٥٠ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١١٨ ، وأبو داود فى المناسك : ٢٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣ .

(٤) أخرجه أبو داود فى المناسك : ٢٠ .

* **ألا يعطى الجزار الأجرة من الهدى :**

لا يجوز أن يعطى الجزار الأجرة من الهدى ، ولا بأس بالتصدق عليه منه لقول على رضى الله عنه : ( أمرنى رسول الله ﷺ أن أقوم على بدنة وأقسم جلودها وجلادها وأمرنى ألا أعطى الجزار منها شيئاً وقال : نحن نعطيه من عندنا )[١] . رواه الجماعة .

وفى الحديث ما يدل على أنه يجوز أن ينيب عنه من يقوم بذبح هديه ، وتقسيم لحمه وجلده وجلاله .

وأنه لا يجوز أن يعطى الجزار منه شيئاً على معنى الأجرة ، ولكن يعطى أجرة عمله بدليل قوله : ( نعطيه من عندنا ) .

وروى عن الحسن أنه قال : لا بأس أن يعطى الجزار الجلد .

* **الأكل من لحوم الهدى :**

أمر الله بالأكل من لحوم الهدى ، فقال : ﴿ **فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾ .

وهذا الأمر يتناول ـ بظاهره ـ هدى الواجب ـ وهدى التطوع .

وقد اختلف فقهاء الأمصار فى ذلك .

فذهب أبو حنيفة وأحمد : إلى جواز الأكل من هدى المتعة وهدى القرآن وهدى المتطوع ، ولا يأكل مما سواها .

وقال مالك : يأكل من الهدى الذى ساقه لفساد حجه ، ولفوات الحج ، ومن هدى المستمتع ومن الهدى كله إلا فدية الأذى وجزاء الصيد وما نذره للمساكين ، وهدى التطوع إذا عطب قبل محله .

وعند الشافعى : لا يجوز الأكل من الهدى الواجب مثل الدم الواجب فى جزاء الصيد وإفساد الحج ، وهدى التمتع والقرآن ، وكذلك ما كان نذراً أوجبه على نفسه .

أما ما كان تطوعاً فله أن يأكل منه ويهدى ويتصدق .

* **مقدار ما يأكله من الهدى :**

للمهدى أن يأكل من هديه الذى يباح له الأكل منه أى مقدار يشاء أن يأكله بلا تحديد .

وله كذلك أن يهدى أو يتصدق بما يراه .

وقيل : يأكل النصف ويتصدق بالنصف .

وقيل : يقسمه ثلاثاً فيأكل الثلث ويهدى الثلث ويتصدق الثلث .

قوله تعالى : ﴿ **ثم ليقضوا تفثهم** ﴾ : أى : ليزيلوا ما علق بهم من العرق والتراب وغير ذلك .

---

( ١ ) أخرجه مسلم فى الحج : ٣٤٨ ، وأبو داود فى اللقطة ، والدارمى فى المناسك : ٨٩ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٦٠ .

وعن ابن عباس المقصود به وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ، ونحو ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ وفيها أقوال لأئمة التفسير :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى نحر ما نذر من أمر البدن .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ نذر الحج والهدى ، وما نذر الإنسان من شيء يكون فى الحج .

وقال إبراهيم بن ميسرة عن مجاهد : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال : الذبائح .

وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ كل نذر إلى أجل .

وقال عكرمة : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال : حجهم .

وكذا روى الإمام أحمد عن بن أبى يعمر : حدثنا سفيان فى قوله:﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ . قال : نذور الحج فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة والمزدلفة ورمى الجمار على ما أمروا به .

قوله تعالى : ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

المراد به القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

والمراد بالطواف هنا الطواف الواجب يوم النحر فبعد رمى الجمار وذبح الهدى والحلق يطوف بالبيت سبع مرات ، وهو المسمى طواف الزيارة ، أو الإفاضة ، أو الركن .

وقال ابن أبى حاتم عن أبى حمزة قال : قال لى ابن عباس أتقرأ سورة الحج ؟ يقول الله تعالى: ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق : قلت : وهكذا صنع رسول الله ﷺ ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمى الجمرة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه ، وحلق رأسه ، ثم أفاض بالبيت .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ :

قال ابن جريج : قال مجاهد فى قوله:﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ قال : الحرمة مكة والحج والعمرة ، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها .

والمقصود باسم الإشارة فى قوله تعالى ( ذلك ) أى:ذلك الذى أمرتكم به من مناسك الحج ، وأثيبكم عليه ، وأعطيكم الأجر الجزيل ، ومن هذه الأشياء التى يثيب الله عليها تعظيم حرماته .

وقد تكرم الله تعالى على عباده فأحل لنا الأنعام ، لتكون طعاماً طيباً ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ : فإن الله تعالى ما جعل من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام .

وقوله تعالى: ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ إلا ما بين الله حرمته فى قوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ﴾(١) .

فيامعشر المسلمين : التزموا أحكام الله فإنه تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها : ﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(٢) .

فاللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع . ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾(٣) .

يا معشر المسلمين : هذا هو شرعكم الحنيف ، وإسلامكم العظيم ، وقرآنكم المجيد ، ما أمر بشىء وقال العقل ليته ما أمر ، وما نهى عن شىء وقال العقل ليته ما نهى ، هو للشعوب البدائية كالوالد الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، إنه الدين الذى يأمر بالحلال الطيب : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ .

﴿ من الأوثان ﴾ : بيان للرجس ، أى:الذى هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(٥) .

ومنه شهادة الزور ، وهى من أكبر الكبائر ، ذلك لأنها تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وبسببها تضيع الحقوق .

صح فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ) قلنا : بلى يا رسول الله

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .
(٢) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ١١٤-١١٧ من سورة النحل .
(٥) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

قال : ( الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور ) فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت )[١] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أيمن بن خريم قال : ( قام رسول الله ﷺ خطيبا فقال :(يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله )[٢] . ثلاثاً . ثم قرأ ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ **حنفاء لله** ﴾ : أى:مائلين عن الشرك ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، ثم أكد هذا المعنى لأنه أساس الإسلام فقال : ﴿ **غير مشركين به** ﴾ .

ثم ضرب للمشرك مثلاً غاية فى الإيضاح ، فقال : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ .

فتصور معى إنساناً سقط من أعلى ، وبحكم الجاذبية أخذ يهوى ثم يهوى بعد ما خطفته الطير ، وأخذت تقطعه ، ثم تهوى به الريح والعواصف فى مكان بعيد ، وهوة سحيقة ، إنه الضياع كله ، والتمزق بأدق معانيه : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ﴾[٣] .

وقد ضرب الله تعالى للمشركين مثلاً آخر فى سورة الأنعام ، وهو قوله : ﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾[٤] .

قوله تعالى :

﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب * لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق** ﴾ .

ذلك أى الذى سبقت الإشارة إليه من الأمر باجتناب الرجس من الأوثان ، وقول الزور ، والتزام التوحيد حق لا مراء فيه .

﴿ **ومن يعظم شعائر الله** ﴾ .

والمراد بالشعائر البدن والهدايا ، وتعظيمها بمعنى تسمينها وتحسينها .

عن ابن عباس : تعظيمها واستحسانها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأقضية : ١٥ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٣٢ ، والإمام أحمد ٤ : ١٧٨ ، ٢٣٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، وفى ٥ : ٣٦ ، ٣٨ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأقضية : ١٥ ، والترمذى فى الشهادات : ٣ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٣٢ ، والإمام أحمد فى ٤ : ١٧٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٣) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ٧١ من سورة الأنعام .

وقال أبو أمامة عن سهل : ( كنا نسمن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمنون )[١] . رواه البخارى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين )[٢] . رواه أحمد .

وقالوا : العفراء : هى البيضاء بياضاً ليس بناصع ، فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها يجزىء أيضاً .

ثبت فى صحيح البخارى عن أنس ( أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين )[٣] .

وعن أبى سعيد ( أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل يأكل فى سواد ، وينظر فى سواد ، ويمشى فى سواد )[٤] رواه أهل السنن والترمذى - أى: فيه نكتة سوداء فى هذه الأماكن .

ومن تعظيم الشعائر ألا تكون بها عيوب ، فإنها هدية يقصد بها التقرب إلى الله تعالى .

فعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : ( أربع لا يجوز فى الأضاحى : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ضلعها ، والكسيرة التى لا تنقى )[٥] . رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : البدن من شعائر الله .

وقال محمد بن أبى موسى : الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والحلق والبدن من شعائر الله .

وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت .

فمن عظم تلك الشعائر ، وعرف لها قدرها ، كان ذلك التعظيم دليلاً على تقوى القلوب ، وسلامة المقصد ، واتباع سبيل المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ **لكم فيها منافع إلى أجل مسمى** ﴾ :

المراد بالمنافع هنا الأصواف والأوبار والأشعار والألبان واللحوم .

قوله : ﴿ **ثم محلها إلى البيت العتيق** ﴾ : أى: نهايتها إلى الكعبة ، شرفها الله تعالى .

**قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .**

---

(١) أخرجه البخارى فى الأضاحى : ٧ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٤١٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١١٧ ، ١١٩ وأبوداود فى الأضاحى : ٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى الأضاحى : ١٩ ، وأبوداود فى الأضاحى : ٣ ، والترمذى فى الأضاحى : ٤ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٧٨ .

(٥) أخرجه النسائى فى الضحايا : ٥-٧ ، وابن ماجه فى الأضاحى : ٨ ، والدارمى فى الأضاحى : ٣ ، والإمام مالك فى الضحايا : ١ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

المنسك ( بكسر السين وفتحها ) . والنسك فى الأصل : العبادة وشاع استعماله فى أعمال الحج ، والمراد به هنا الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .

**قوله تعالى : ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ :**

كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : ( أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ، ووضع رجله على صفاحهما )[١] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن زيد بن أرقم قلت : أو قالوا : يا رسول الله ما هذه الأضاحى ؟ قال : ( سنة أبيكم إبراهيم ) . قالوا : مالنا منها ؟ قال ( بكل شعرة حسنة ) قال : فالصوف ؟ قال ( بكل شعرة من الصوف حسنة )[٢] . وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد .

**قوله تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ :**

أى إن اختلفت الشرائع ونسخ بعضها بعضاً . فإن عقيدة الأنبياء واحدة : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٣] ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾[٤] ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾[٥] ، ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[٦] .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله ، قال صلوات الله وسلامه عليه : ( أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله )[٧] .

يا من عنت له الوجوه بأسرها رهباً وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى كل القلوب تقر له وتشهد

**﴿ فله أسلموا ﴾ :**

الإسلام هو الانقياد والإذعان لله تعالى ، فله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾[٨] .

---

( ١ ) أخرجه مسلم فى الأضاحى : ١٧ ، ١٨ ، والبخارى فى الأضاحى : ٩ ، ١٣ ، ١٤ ، والترمذى فى الأضاحى : ٢ ، والنسائى فى الأضاحى : ١٤ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، وابن ماجه فى الأضاحى : ١ ، ١٣ ، والدارمى فى الأضاحى : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١١٥ ، ١٧٠ ، ١٨٣ ، ١٨٩ .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٥٠ ، ٢٦٥ . ( ٤ ) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .

( ٣ ) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء . ( ٥ ) الآية ٥٢ من سورة المؤمنون . ( ٦ ) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .

( ٧ ) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٨ ، ٣٣ ، ومسلم فى الإيمان : ١ ، ٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، وأبو داود فى الصلاة : ٣٥ ، ١٧٨ ، والترمذى فى الصلاة : ١٨٥ ، والنسائى فى الأذان : ٣ ، ٥ ، وابن ماجه فى المقدمة : ٩ ، ١٠ ، والدارمى فى المقدمة : ٢ ، والإمام مالك فى السفر : ٨٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٨ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٩١ ، ٩٢ .

( ٨ ) الآية ٨٣ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ وبشر المخبتين ﴾ أى الخاشعين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم خوفاً ورهباً .

والذكر على سبعة أنحاء : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ : فالصبر دليل الرضا بما قضى الله .

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قلت:يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال : ( الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة )[1] . رواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا والترمذى .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك ، عليه قطيفة ، فوضع يده فوق القطيفة فقال : ما أشد حماك يا رسول الله ؟ قال : ( إنا كذلك يشدد علينا البلاء ، ويضاعف لنا الأجر ) ثم قال : يا رسول الله من أشد الناس بلاء ؟ قال : ( الأنبياء ) . قال : ثم من ؟ قال : ( العلماء ) قال : ثم من ؟ قال : ( الصالحون ، كان أحدهم يبتلى بالعمل حتى يقتله ، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها ، ولأحدهم كان أشد فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء )[2] رواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض )[3] . رواه الترمذى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : ( يؤتى بالشهيد يوم القيامة فيوقف للحساب ، ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاد فلا ينصب ميزان ولا ينصب لهم ديوان ، فيصب عليهم الأجر صباً ، حتى إن أهل العافية ليتمنون فى الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا أحب الله عبداً أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً ، وثجه ثجاً ، فإذا دعا العبد قال : يا رباه ، قال الله : لبيك يا عبدى لا تسألنى شيئاً إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك ، وإما أن أدخره لك ) . رواه ابن أبى الدنيا .

يا أخا الإسلام :

تصبر ففى اللأواء قد يحمد الصبر ... ولولا صروف الدهر لم يعرف الحر
وإن الذى أبلى هو العون فانتدب ... جميل الرضا يبقى لك الذكر والأجر
وثق بالذى أعطى ولاتك جازعاً ... فليس بحزم منك أن يردعك الضر
فلا نعم تبقى ولا نقم . . ولا ... يدوم كلا الحالين عسر ولا يسر
تقلب هذا الأمر ليس بدائم ... لديه من الأيام حلو ولامر

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ ، وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ ، والدارمى فى الرقاق : ٦٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ٢٣ .
(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٩ .

إنى رأيت الصبر خير معول في النائبات لمن أراد معولا
ورأيت أسباب القناعة أكدت بعرى الفتى فجعلتها لى معقلا
فإذا بنى لى منزل جاوزته وجعلت منه غيره لى منزلا
وإذا تلا شىء على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

* * *

بنى الله للأخيار بيتا سماؤه هموم وأحزان وحيطانه الضر
وأدخلهم فيه وأغلق بابه وقال لهم مفتاح بابكم الصبر

ومما وصف الله به المخبتين : إقامة الصلاة : فقال : ﴿ **والمقيمى الصلاة** ﴾ ثم قرن إقامة الصلاة بالإنفاق فقال : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

وقد اقترنت الصلاة بالزكاة في صور عديدة فى القرآن الكريم : جاء الاقتران فى صيغة الماضى ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾[١] .

وجاءت بصورة المضارع ، كما فى قوله جل جلاله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾[٢] .

وجاءت فى صيغة الأمر كما فى قوله تعالى ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾[٣] .

وجاء الإقتران بصيغة المصدر ، كما قال تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾[٤] .

كما جاء بصيغة الصفة كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾[٥] .

وإقامتها أداؤ ها كاملة مستوفاة للأركان والشروط والسنن ، وليست الإقامة مجرد الأداء ، لأن إقامة الشىء معناه أداؤ ه على وجه خاص باعتدال واستقامة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾[٦] .

فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان ، وطهارة أردان ، وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل ، يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناداة الرازق ، وأفضل ما يلوز به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع ، وتأمل آثارها فى

---

(١) الآية ١٨ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢٠ من سورة المزمل .
(٤) الآية ٣٧ من سورة النور .
(٥) الآية ١٦٢ من سورة النساء .
(٦) الآية ٧٧ من سورة الكهف .

المجتمع ، وكيف ساوت الصلية بالسمع ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة ، سواء فى عتبة الله .

لو علمت الأمة ما للصلاة من غايات وأهداف ما أهملت فى أدائها ، ولحافظت عليها ، قال نبى الله ﷺ : ( صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى صلاة : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة ) وفى رواية : ( اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه )[١] .

رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : ( إذا تطهر الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة ، كتب كاتباه ـ أو كاتبه ـ بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات ، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت ، ويكتب من المصلين . حتى من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه )[٢] . رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والأوسط .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من راح إلى مسجد الجماعة فخطوة تمحو سيئة ، وخطوة تكتب له حسنة ذاهباً وراجعاً )[٣] . رواه أحمد بإسناد حسن .

وعن النبى ﷺ قال : ( بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت )[٤] رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء قال : كذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا )[٥] . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

( الدرن ) بفتح الدال المهملة والراء جميعاً : هو الوسخ .

## المعـــنى

**نهراً** : مجرى الماء الفائض .

**من درنه** : منه قوله ﷺ : ( الصلوات الخمس تذهب الخطايا كما يذهب الماء الدرن )[٦] .

( ١ ) أخرجه البخارى فى الصلاة : ٨٧ ، وفى البيوع : ٤٩ .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٩ ، وفى ٤ : ١٥٧ ، وفى ٥ : ١٧٧ .

( ٣ ) أخرجه الإمام أحمد فى : ١ : ٣٨٢ ، ٤١٥ ، وفى ٢ : ٩٥ ، ١٧٢ ، ٢٠٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، وفى ٣ : ٤٠٢ ، ٤٣٤ ، وفى ٤ : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٥٤ .

( ٤ ) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١ ، ٢ ، وفى تفسير سورة ٢ : ٣٠ ، ومسلم فى الإيمان : ١٩ ـ ٢٢ ، والترمذى فى الإيمان : ٣ ، والنسائى فى الإيمان : ١٣ .

(٥) أخرجه البخارى فى المواقيت : ٦ ، والترمذى فى الأدب : ٩٠ ، والنسائى فى الصلاة : ٧ ، والإمام مالك فى السفر : ٩١ .

(٦) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٩٣ .

**يمحو** : يزيل : فأنت ترى المحافظة على أداء الصلوات تكفر الذنوب الصغيرة ، وتحتم على اجتناب الكبيرة ومتى حافظ العبد على الصلوات تاب الله عليه وسامحه وعفا عنه .

أيها المسلمون : إن نبيكم خير الخلق ﷺ ضرب مثلاً أعلى فى التربية ، ويعطى درساً شيقاً بوسائل محسوسة ، ليبين فائدة الصلاة ، وقد سبق علماء التربية الألمان والانجليز فى إعطاء الدرس الحسن الشيق الجذاب ، بالغ النهاية فى السمو والإيضاح ، موضوعه : ( بجوار منزلكم نهر حافظتم على الاستحمام فيه خمس مرات ، هل توجد وساخة على أجسامكم ؟ ) فهموا السؤال وأحسنوا الإجابة ( قالوا : لا ) هكذا أداء الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ينقى صحائفكم ، ويطهر أعمالكم ، ويرضى عنكم ربكم .

كما جعل تعالى ( النهر ) مثلاً لما يدر من فيضه وفضله فى الجنة على الناس ، قال عز شأنه: ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] من سورة القمر .

وقال تعالى : ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾[2] .

﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾[3] .

وأرى النبى ﷺ يحث على النظافة ، ويدعو إلى الاستحمام والطهارة ، ويذكر المسلمين أن المحافظة على الصلاة فى الدنيا توصل إلى نعيم الجنة وأنهارها .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( الصلوات الخمس والجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر )[4] . رواه مسلم والترمذى .

## المعـــنى

**كفارة** : مزيلة الصغائر التى ترتكب من وقت الصبح مثلاً إلى الظهر وهكذا أو من يوم الجمعة إلى يوم الجمعة الآخر .

**تغش** : تفعل : من غشى الشىء : لابسه .

**الكبائر** : كالإشراك ، وقتل النفس ، والزنا ، والسرقة ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، والربا ، والباطل ، وضياع الحق ، وأخذ أموال الناس ظلماً .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( الصلوات الخمس : كفارة لما بينها : ثم قال رسول الله ﷺ : أرأيت لو أن رجلاً كان يعتمل وكان بين منزله وبين معتمله خمسة أنهار ، فإذا أتى معتمله عمل فيه ما شاء الله فأصابه الوسخ أو العرق ، فكلما مر بنهر اغتسل ، ما كان ذلك يبقى من درنه ، فكذلك الصلاة كلما عمل خطيئة فدعا واستغفر غفر له ما كان قبلها ) . رواه البزار والطبرانى فى الأوسط والكبير .

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .

(٢) الآية ١٧ من سورة نوح .

(٣) الآية ٢٥ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه مسلم فى الطهارة : ١٤ ، والترمذى فى المواقيت : ٤٦ ، وابن ماجه فى الإقامة : ٧٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٨٤ .

## المعـــنى

**يعتمل** : يلى عملا ، أو يعمل .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا ) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن لله ملكاً ينادى عند كل صلاة : يا بنى آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها فأطفئوها ) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( يبعث منادٍ عند حضرة كل صلاة فيقول يا بنى آدم : قوموا فأطفئوا ما أوقدتم على أنفسكم فيقومون فيتطهرون ويصلون الظهر فيغفر لهم ما بينهما فإذا حضرت العصر فمثل ذلك فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك فإذا حضرت العتمة فمثل ذلك فينامون فمدلج فى خير ومدلج فى شر ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

## المعـــنى

**يتطهرون** : يتوضأون .

**العتمة** : المراد العشاء والفجر .

**أدلج** : سار من أول الليل والمعنى بعد صلاة العشاء ينام الإنسان أو يسير فى طريق الخير ، ويسهر فى السمر البرىء ، والأنس الذى يرضى الله جل وعلا ، أو يقضى باقى ليله فى طاعة وعبادة .

والصنف الثانى : يتم ليله فى لهو ومحرمات وسهر ، يغضب الله جل وعلا ، وينسى واجب زوجه ، ويعربد ويسكر ، ويذهب إلى الملاهى والمواخير ومحال الفجور ، والدعارة ، أو يقطع الطريق ، ويسلب أموال الناس أو يسرق ، وهكذا من أفعال الشر ، ويريد النبى ﷺ أن يرشد المسلمين إلى أن الصلوات الخمس أزالت ما اقترفوه ، ويوصيهم أن ينتهى ليلهم كما يحب الله ورسوله ، ولا يتخلل زمنه ما يكثر من السيئات ويحبط الحسنات .

﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾[1] .

﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾[2] .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٣ من سورة النساء .

﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾[١] .

ما أسعد من ينتهى ليله فى طاعة ، ينام ليستريح ، أو يؤنس أهله ويسرى عنهم متاعب الحياة ، ويمتعهم برؤيته وحديثه العذب ، ويكرم ضيوفه . ويؤدى واجب زوجه حتى لا تنظر إلى غيره . ويتفقد مصالحه ، ويرعى طعام ماشيته ، هل أدى الخدم ما يلزم لها من سقى أو علف أو نظافة ؟

ويقتدى برسول الله ﷺ بما رواه البخارى أنه عليه الصلاة والسلام ( كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها )[٢] . وأعنى بالحديث الذى يجلب غضب الرب ويذهب فى لهو ولغو أو مجالس الفسوق .

وعن طارق بن شهاب أنه بات عند سلمان الفارسى رضى الله عنه لينظر ما اجتهاده قال : ( فقام يصلى من آخر الليل ، فكأنه لم ير الذى كان يظن ، فذكر ذلك له فقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة ) . رواه الطبرانى فى الكبير موقوفاً .

ومما وصف الله به المخبتين قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ :

أى: ينفقون بعض ما رزقناهم ، وهذا فضل وعدل ، فلو أن الله تعالى أمر عباده أن ينفقوا كل ما رزقهم ما فعلوا ، قال تعالى : ﴿ ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾[٣] أى : كلها .

لذلك شاءت حكمته ألا يكلف الناس ما لا يطيقون : فقال : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ فمن هنا تفيد التبعيض ، أى: ينفقون بعض ما رزقناهم : كربع العشر فى زكاة النقدين وعروض التجارة ، والخمس فى زكاة الركاز ، والعشر أو نصفه فى زكاة الزرع والثمار ، ومع ذلك فإن هناك من الناس من يملكوا ويملكون ثم ينجلون ويبخلون ، إذا دعاهم داعى الله أمسكوا ، فإذا ما دعاهم داعى الشيطان أسرفوا وندروا وأنفقوا ببذخ وبغير حساب : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[٤] .

ألا فليعلم العقلاء أن الرزق ليس مقصوراً على المال ، إنما هو أوسع أفقاً ، وأرحب مجالاً ، فالصحة رزق وزكاتها أن تغيث الملهوف ، وتعين الضعيف ، والعلم رزق وزكاته ألا تبخل به على أحد ، فهو كالشمس والماء والهواء ، والذكاء رزق وزكاته أن تسخره فيما ينفع بعيداً عن الشر ، ووقت الفراغ رزق وزكاته ألا تضيعه فى لهو ولعب .

---

( ١ ) الآية ١٤ من سورة النساء .

( ٢ ) أخرجه البخارى فى المواقيت ١٣ ، ٢٣ ، ٣٩ ، وفى الأذان : ١٠٤ ، ومسلم فى المساجد : ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، والترمذى فى الصلاة : ١١ ، والنسائى فى المواقيت : ٢ ، ١٦ ، ٢٠ ، وابن ماجه فى الصلاة : ١٢ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٤٢٠ ، ٤٢٣ ـ ٤٢٥ .

( ٣ ) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة محمد .

( ٤ ) الآية ٣٨ من سورة محمد .

قال ﷺ : ( نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ )[١] .

إن الله تعالى لما أمر بالإنفاق ، كان ذلك لحكمة سبقت وعلم كشف كل الكائنات ، فلن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ، والقادر عندما ينفق لا يمن لأنه يؤدى حق الفقير إليه .

قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم ﴾[٢] .

ولو علم البخلاء ماذا ينتظرهم من عذاب ما بخلوا : قال جل شأنه : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم.يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾[٣] .

فانظر كيف يعذبون بأموالهم التى كنزوها ، فتكوى بها الجباه التى أعرضت عن الفقراء كبرا ، كما تكوى بها الجنوب التى تمرغت فى الحرير وبلهنية العيش ، وتكوى بها الظهور التى طالما نامت . وأعرضت عن ذكر الله ، لذلك فإن الصالحين أدركوا هذه المعانى ، فكان السخاء والكرم والعطاء والبذل من أهم صفاتهم .

ها هو ذا محمد بن كعب القرظى رضى الله عنه ، كان يملك من المال الكثير والكثير ، ولما نام على فراش الموت سأله بعض عواده : ماذا تركت لأولادك من المال ؟ فقال بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين : إدخرت مالى لنفسى عند ربى ، وادخرت ربى لأولادى .

نعم : ﴿ فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾[٤] .

إن ابن آدم عندما يموت يصاب بمصيبتين لم يصب بمثلهما قبل الأولى : أنه يترك ماله كله ، والثانية : أنه يسأل عنه كله : ( لا تزول قدما عبد من بين يدى الله عز وجل حتى يسأل عن أربع : شبابك فيما أبليته ، وعمرك فيما أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته ، وفيم أنفقته وعلمك ماذا صنعت فيه )[٥] .

وعن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( والذى نفسى بيده ثلاث مرات ، ثم أكبَّ فأكب كل رجل منا يبكى ، لا يدرى على ماذا حلف ؟ ثم رفع رأسه وفى وجهه البشرى ، فكانت أحب إلينا من حمر النعم ، قال : ما من عبد يصلى الصلوات الخمس

---

( ١ ) أخرجه البخارى فى الرقاق : ١ ، والترمذى فى الزهد : ١ ، وابن ماجه فى الزهد : ١٥ ، والدارمى فى الرقاق : ٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٨ ، ٢٤٤ .

( ٢ ) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

( ٣ ) الآيتان ٣٤، ٣٥ من سورة التوبة .

( ٤ ) الآية ٦٤ من سورة يوسف .

( ٥ ) أخرجه الترمذى فى القيامة : ١ .

ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة . وقيل له : ادخل بسلام )[١] . رواه النسائى .

## المعــنى

**أكبّ** : استمر، من أكب على عمله : أى؛ لزمه .

**حمر النعم** : بيضاء النعم ويراد المال الوفير والإبل الكثير والمسرات والترف .

**الكبائر السبع** :

فسرها ﷺ فى حديث البخارى ( اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات )[٢] . رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

فالسعادة ونيل النعيم وكسب الخير فى أربعة : فى صلاة وزكاة وصوم واستقامة ، والأجرة تبشرك ملائكة الرحمة بالأمان من عذاب الله . والتنعم بفضل الله ، وجنى ثمار جنة الله .

**قيل له ادخل بسلام** : تأمره ملائكة الرحمة لا تخف عقابا . وادخل آمنا سالماً من كل الأهوال ، لماذا ؟ لأن صحائفه نقية من المعاصى وأدران الذنوب ، ونهته صلاته عن كل فاحشة ، وأثمرت زكاته بطهارة نفسه من البخل ، فتحلى بالسخاء ، وللإمام الشافعى رضى الله عنه :

يغطى بالرحمة كل عيب    وكم عيب يغطيه السخاء

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ( أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إنى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرنى كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله ﷺ : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل )[٣] . رواه أحمد .

**ذو مال** : صاحب ثروة .

**حاضرة** : مورد خير ينزل عليه الناس ليستقوا أو ليستفيدوا ، وفى النهاية فى حديث عمر بن سلمة الجرمى ( كنا بحاضر يمر بنا الناس )[٤] .

**الحاضر** : القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه ويقال للمناهل : المحاضر للاجتماع والحضور عليها .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( خمس من جاء بهن مع إيمان دخل

---

(١) أخرجه النسائى فى الزكاة : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٢٣ ، وفى الحدود ، وفى الطب : ٤٨ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود فى الوصايا .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٣٦ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ١٣٣ .

الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً ، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : ( كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ؟ قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت )[١] . رواه أحمد .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( الزكاة قنطرة الإسلام ) .

المعنى : أن المسلم يمر يوم القيامة على جسر ممدود على متن جهنم ، والمزكى يعبرها ، وغير المزكى حينما يصل إليها لا يمكنه العبور ، فيسقط فى نار جهنم .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ( ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، ولا يتولى الله عبداً فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة )[٢] . رواه أحمد .

## المعنى

يقسم النبى ﷺ مؤكدا ليبشر المسلمين : أن المصلى والمزكى والصائم له ثواب وأجر ، وسهم فى الإسلام : أى:نصيب من فضل الله ونعيمه ، ويكون الله تعالى ناصره وتحت رعاية مولاه فى الدنيا ، فكذلك سبحانه يرعاه بالرحمة فى الآخرة .

**ويتولى** : أى:يكفل وفى أسماء الله تعالى الولى : أى:الناصر ، وقيل : المتولى لأمور العالم القائم بها . ومن أسمائه عز وجل الوالى : أى مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها ، وفيه الحث على هذه الفرائض تؤدى كاملة ليحوز صاحبها رضا الله فى حياته وبعد موته .

**فيوليه** : فتكون عليه سلطة تامة لغيره يوم القيامة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : لمن حوله من أمته : ( أكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ، قلت : ما هى يا رسول الله ؟ قال : الصلاة ، والزكاة ، والأمانة ، والفرج ، والبطن ، واللسان ) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

**واكفلوا** : أى اضمنوا ومنه ( أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة )[٣] .

**والكفيل** : الضمين .

---

( ١ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٧٣ ، وفى ٥ : ٢٣١ ، ٣٧٣ ، ٤١٧ .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ١٤٥ ، ١٦٠ .

( ٣ ) أخرجه البخارى فى الطلاق : ٢٥ ، وفى الأدب : ٢٤ ، ومسلم فى الزهد : ٤٢ ، وأبو داود فى الأدب : ١٢٣ ، والترمذى فى البر : ١٤ ، والإمام مالك فى الشعر : ٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٥ ، وفى ٥ : ٣٣٣ .

وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهى عن المنكر سهم ، والجهاد فى سبيل الله سهم ، وقد خاب من لا سهم له ) . رواه البزار مرفوعاً .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله : أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره ) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

## المعـــنى

**فقد ذهب عنه شره** : أى:حفظ من السرقة فى الدنيا وبورك فيه ، واستعمل فى الخير ، وأنفق فى الطاعة ، ولم يعذب صاحبه به فى قبره فلا يمثل له بشجاع أقرع يلدغه ويعذبه ، كما قال ﷺ لغير المزكى ( مثل له يوم القيامة بشجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزميته ) يعنى شدقيه - ثم يقول : ( أنا مالك . أنا كنزك )[1] ثم تلا ﷺ : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون ﴾[2] . رواه البخارى .

وعنه عليه الصلاة والسلام : ( ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً فى عنقه يوم القيامة )[3] . ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾[4] .

وله فيهما ما يتوارث ، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ، ولا ينفقون فى سبيله ، أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله بهلاكهم ، وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( حصِّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع ) . رواه أبو داود فى المراسيل .

وروى عن علقمة رضى الله عنه أنهم أتوا رسول الله ﷺ قال : فقال لنا النبى ﷺ : ( إن تمام إسلامكم أن تؤدوا زكاة أموالكم ) . رواه البزار .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( كل مال وإن كان تحت سبع أرضين تؤدى زكاته فليس بكنز وكل مالٍ لا تؤدى زكاته وإن كان ظاهراً فهو كنز ) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

## المعـــنى

**كل ذى مال** : أى:الغنى الذى أعطاه الله ثروة طائلة ، ومالا وفيراً ، فزكى وعمل بالشرع ، واستعمل ماله فى حقوق الله . وما يرضيه ، فيخزن كما يشاء ، وفى أسفل الأرض ، وقد أحل الله له ذلك ، وأما إذا بخل ولم يخرج زكاته ووضعه فى المصارف أو فى الخزانة الحديدية ، الظاهرة لنا ، فهو مقصر فى إخراج حقوق الله ، ويطلق على ماله كنز لم تؤد زكاته ، وإذا مات عذبه الله به ، وسلط

---

( ١ ) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٣ : ١٤ ، وفى الحيل : ٣ ، والنسائى فى الزكاة : ٦ ، ٢٠ ، وابن ماجه فى الزكاة : ٢ ، والإمام مالك فى الزكاة : ٢٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٧٧ ، وفى ٢ : ٩٨ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ٣١٦ ، ٣٥٥ ، ٤٨٩ .

( ٢ ) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

( ٣ ) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٣ : ٢١ ، والنسائى فى الزكاة : ٢ .

( ٤ ) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

عليه أفعى تنهشه بصورة ماله المكنوز ، وعد من ناقصى الإسلام ، وصدق عليه قوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾(١) .

**أيها المسلمون :**

أنعم الله علينا بالمال لننتفع به وننفق منه فى سبيل الخير والمال وديعة فى يد الأغنياء ، لينظر الله إليهم أيحسنون ؟ أيتصدقون على الفقراء والمساكين ؟ أيزيلون ألم جوعهم ، وضر أمراضهم ، وظلمة جهالتهم فيرجون ثوابه سبحانه ، وينشئون المستشفيات والملاجىء ومعاهد العلم ، لتعليم أبناء الأمة الفقراء ، وإيواء العجزة الضعفاء ومعالجة المرضى ، حتى لا تضطرهم الحاجة إلى السرقة أو المؤامرة على قتل الأغنياء ، أو الإقدام على ارتكاب الجرائم لدفع غيلة الفقر المدقع ، وأن الله تعالى أوعد البخلاء بالعذاب الأليم ، وأعلن كرههم فيكرههم الله والناس ، ويبغضهم ربى ، ويأمر سبحانه بإيقاد النار على أموالهم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، جزاء بخلهم ، ومنعهم الإحسان والمعروف .

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله    على قومه يستغنى عنه ويذمم

وعن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وحجوا أو اعتمروا ، واستقيموا يستقم بكم ) . رواه الطبرانى فى الثلاثة .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وحج البيت ، وصام رمضان ، وقرى الضيف ، دخل الجنة ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من كان يؤمن بالله ورسوله فليؤد زكاة ماله ، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليقل حقاً أو ليسكت ، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليكرم ضيفه ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

## المعنى

**يقل حقاً** : أى: ينطق بالصواب ويرشد إلى الحق ويقول قولا يوافق آداب الشرع .

**ليصمت** : أى:ليحذر أن ينطق فيما يغضب ربه فباللسان يدخل الجنة أو النار ويمدح أو يذم ويكرم أو يهان :

الصمت زين والسكوت سلامة    فإذا نطقت فلا تكن مكثاراً
ما إن ندمت على سكوتى مرة    ولقد ندمت على الكلام مراراً

* * *

وانطق بحيث العى مستقبح    واصمت بحيث الخير فى سكتتك

(١) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة .

وعن أبى أيوب رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبى ﷺ : ( أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ؟ قال : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم )[1] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : ( تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فلما ولى قال النبى ﷺ : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا )[2] . رواه البخارى ومسلم .

وعن عمرو بن مرة الجهنى رضى الله عنه قال : جاء رجل من قضاعة إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وصمت رمضان وقمته ، وآتيت الزكاة . فقال رسول الله ﷺ : ( من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء ) . رواه البزار بإسناد حسن .

وعن عبد الله بن معاوية الغاضري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده ، وعلم أن لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، رافدة عليه كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة ، ولكن من وسط أموالكم . فإن الله لم يسئلكم خيره ولم يأمركم بشره )[3] . رواه أبو داود .

## المعنى

**قوله رافدة عليه** : من الرفد وهو الإعانة ، ومعناه أن يعطى الزكاة ونفسه تعينه على أدائها بطيبها ، وعدم حديثها له بالمنع .

**والشرط** : بفتح الشين المعجمة والراء هى الرذيلة من المال كالحسنة والعجفاء ونحوهما .

**والدرنة** : هى الجرباء .

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : ( بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم )[4] . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ومن جمع مالاً حراماً ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصراره عليه ) . رواه ابن خزيمة .

وعن زر بن حبيش : ( أن ابن مسعود رضى الله عنه كان عنده غلام يقرأ فى المصحف وعنده

---

( ١ ) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٧ ، وفى الزكاة : ١ ، وفى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الأدب : ١٠ ، ومسلم فى الإيمان : ٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، والنسائى فى الإيمان : ٦ ، وفى الصلاة : ١٠ ، وابن ماجه فى الفتن : ١٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٠٧ ، ٣٤٢ .

( ٢ ) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١ ، ومسلم فى الإيمان : ١٥ ، وفى فضائل الصحابة : ١٥٠ ، وابن ماجه فى الرؤيا : ١٠ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤٢ ، وفى مواقيت الصلاة ، ٣ ، وفى الزكاة : ٢ ، وفى الشروط : ١ ، ومسلم فى الإيمان : ٩٧ ، ٩٨ ، والنسائى فى البيعة : ٦ ، ١٧ ، والدارمى فى البيوع : ٩ .

أصحابه ، فجاء رجل يقال له حضرمة فقال : يا أبا عبد الرحمن : أى درجات الإسلام أفضل ؟ قال : الصلاة . قال : ثم أى ؟ قال : الزكاة ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن عبيد بن عمير الليثى رضى الله عنه عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : ( إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلاة الخمس التى كتبهن الله عليه ، ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه ، ويؤتى الزكاة . محتسباً بها طيبة نفسه ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله : وكم الكبائر ؟ قال : تسع أعظمهن : الإشراك بالله ، وقتل المؤمن بغير حق ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين المسلمين ، واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً ، لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، إلا رافق محمداً ﷺ فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

## أدلة الإنفاق من القرآن الكريم

هذه أقوال الفقهاء تنير لك سبيل إخراج الزكاة ، وتضىء لك كيفية الإنفاق الشرعى ، لتعلم أن الله تعالى يحب من عبده أن يجود بماله فى طرق الخير ، ويقيم مشروعات البر ، وصروح الإحسان ، وإقراء القرآن ، يا أخى تجد الأمر بالصلاة ، فإذا أعزت هذه الطاعة لله أنتجت الزكاة ، وحب الإنفاق فى طاعة الله ، قال تعالى : يبشر المنفق بالخير المضاعف ، والفلات المباركة ، والزيادة المرجوة :

١ - ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

مثل نفقة المحسنين كمثل باذر حبة يخرج منها ساق ، يتشعب لكل منه سبع شعب ، لكل منها سنبلة ، فيها مائة حبة ، وتلك المضاعفة بفضل الله على حسب حال المنفق فى إخلاصه وتعبه ، ومن أجل ذلك تتفاوت الأعمال فى مقادير الثواب .

﴿ والله واسع ﴾ : لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿ عليم ﴾ فيه المنفق وقدر إنفاقه .

ثم أنزل الله تعالى الآية الثانية تطميناً لسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومن اقتدى به فقد جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلامها ، ( وسيدنا عبد الرحمن بن عوف ) فإنه أتى النبى ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة .

والمن : أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه .

بخ بخ أيها المسلم : اتق الله وأكثر من الإنفاق تربح .

---

( ١ ) الآيتان ٢٦١ ، ٢٦٢ من سورة البقرة .

٢ ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾(١) .

فالله تعالى ينادى المؤمنين ويأمرهم بالإنفاق فيما وجب علينا إنفاقه من مال وزروع وثمار وماشية ، من قبل أن يأتى يوم لا يقدر الإنسان فيه على تدارك ما فاته ، وما فرط فى أدائه ، ولا خلاص من عذابه إذ لا بيع فيه ، فتحصلون أيها المؤمنون ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب ، ولا خلة حتى يعينكم عليه أخلاؤكم ، أو يسامحونكم به ، ولا شفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولاً ، حتى تتكلوا على شفاعة تنفع وتشفع لكم .

﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾ : قال البيضاوى : يريد التاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم ، أو وضعوا المال فى غير موضعه ، وصرفوه على غير وجهه ، فوضع الكافرون موضعة تغليظاً لهم ، وتهديداً ، كقوله: ﴿ ومن كفر ﴾ مكان ومن لم يحج ، وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار ، لقوله تعالى : ﴿ وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة ﴾(٢) .

وإن الله جل جلاله أخبر عن المتقين الذين عملوا فى الحياة فأفلحوا وفازوا بالسعادة ، وجعل من خلالهم إخراج زكاة أموالهم ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾(٣) .

أى: فاز أولئك الذين اتصفوا بهذه الخلال الحميدة :

**أولاً** : الخائفون من الله سبحانه وتعالى ، المتذللون له ، الملزمون أبصارهم مساجدهم ، روى أنه ﷺ : كان يصلى رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده ، وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال : ( لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه )(٤) .

**ثانياً** : المعرضون عما لا يعنيهم من قول أو فعل ، لما بهم من الجد ما شغلهم عنه .

**ثالثاً** : البالغون الغاية فى القيام على الطاعات البدنية والمالية ، والتجنب على المحرمات ، وسائر ما توجب المروءة اجتنابه ، والزكاة تقع على المعنى ، وعلى العين .

**رابعاً** : عدم بذل الفرج إلا على الأزواج والسريات .

والجامعون لهذه الصفات أحقاء بالفردوس ، وهى أعلى مكان فى الجنة ، نعيمها دائم .

---

( ١ ) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

( ٢ ) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة فصلت .

( ٣ ) الآيات ١ ـ ١١ من سورة المؤمنون .

( ٤ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٤٥ .

قوله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ .

البدن : واحدها بدنة ، قال البعض : إنها تطلق على الإبل ذكوراً وإناثاً ، وقال آخرون : إنها تشمل الإبل والبقر .

وقد صح فى الحديث عن جابر بن عبد الله قال : ( أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الأخصاص : البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة )[١] .

وقد جعلها الله من الشعائر ، أى:من علامات تعظيم الله تعالى ، لما فيها من إطعام الطعام . قوله تعالى : ﴿ لكم فيها خير ﴾ :

أى:ثواب عظيم ، لما روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ( ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفساً ﴾[٢] . رواه ابن ماجه والترمذى .

وقال سفيان الثورى : كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن ، فقيل له : تستدين وتسوق البدن ؟ فقال : إنى سمعت الله يقول : ﴿ لكم فيها خير ﴾ .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما أنفقت الورق فى شىء أفضل من غيره فى يوم عيد ) . رواه الدارقطنى فى سننه .

وقد يكون المقصود بالخير أيضاً الأجر والمنافع ، لما يستفاد من ظهورها بالركوب ، ومن ضلوعها باللبن ، ومن جلودها وأوبارها وأشعارها .

قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ :

صواف. أى:قائمات ، قد صف أيديهن وأرجلهن واحدها صافة .

ويذكر اسم الله عند ذبحها أو نحرها امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾[٣] .

عن جابر بن عبد الله قال : ( صلينا مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى . فلما انصرف أتى بكبش فذبحه ، فقال : باسم الله والله أكبر اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى )[٤] رواه أحمد .

وقال محمد بن إسحق : عن ابن عباس عن جابر قال : ( ضحى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد . فقال حين وجههما : ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾

(١) أخرجه مسلم فى الحج : ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٦ ، والترمذى فى الحج : ٦٦ ، وفى الأضاحى : ٣ ، ٥ ، والإمام مالك فى الضحايا : ٩ ، والإمام أحمد فى ١ : ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ٢٧٥ ، وفى ٤ : ٤٠٩ ، وفى ٥ : ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الأضاحى : ١ ، وابن ماجه فى الأضاحى : ٣ .

(٣) الآية ١١٨ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى٣ : ٨ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٨ ، والترمذى فى الأضاحى : ١٠ ، ٢٠ .

﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ اللهم منك ولك عن محمد وأمته . ثم سمى الله وكبر وذبح )[١] .

وعن على بن الحسين عن أبى رافع أن رسول الله ﷺ : ( كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين ، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم فى مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ، ثم يقول : اللهم هذا عن أمتى جميعها ، من شهد لك بالتوحيد ، وشهد لى بالبلاغ . ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ، ثم يقول : هذا عن محمد وآل محمد . فيطعمهما جميعاً للمساكين ، ويأكل هو وأهله منهما )[٢] . رواه أحمد وابن ماجه .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ : قال : قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى ، يقول : باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله اللهم منك ولك )[٣] .

وقد نحر رسول الله ﷺ فى حجة الوادع ثلاثاً وستين بدنة ، وأعطى بقية المائة علياً ، فنحرها .

قوله تعالى : ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ :

أى:سقطت على الأرض بعد نحرها وموتها ، فقد ورد فى الحديث : ( لا تعجلوا النفوس حتى تزهق ) .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته )[٤] .

ولا يجوز شرعاً قطع شىء من البهيمة قبل ذبحها أو نحرها ، فإن حدث ذلك فالجزء الذى قطع منها ميتة لا تؤكل .

قال رسول الله ﷺ : ( ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميتة )[٥] . رواه أحمد .

قوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ ﴾ :

الأمر هنا للاستحباب ، كما قال مالك ، أما بعض الشافعية فقالوا بالوجوب .

**المراد بالقانع** : الراضى بما عنده ، وبما يعطى من غير مسألة .

---

(١) أخرجه مسلم فى الأضاحى : ١٧ ، ١٨ ، والبخارى فى التوحيد : ١٣ ، وفى الأضاحى : ٩ ، ١٤ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٣ ، والترمذى فى الأضاحى : ٢ ، والنسائى فى الضحايا : ١٤ ، ٢٨ - ٣١ . وابن ماجه فى الأضاحى : ١ ، والدارمى فى الأضاحى : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٩٩ ، ١١٥ ، ١٨٣ ، ١٨٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأضاحى : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢ ، وفى ٦ : ٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٣٩١ .

(٣) أخرجه أبو داود فى المناسك : ٢٠ .

(٤) أخرجه مسلم فى الصيد : ٥٧ ، وأبو داود فى الأضاحى : ١١ ، والترمذى فى الديات : ١٤ ، والنسائى فى الضحايا : ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، وابن ماجه فى الذبائح : ٣ ، والدارمى فى الأضاحى : ١٠ ، والإمام أحمد فى ٤ : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) أخرجه أبو داود فى الأضاحى : ٢٣ ، وابن ماجه فى الصيد : ٨ ، والدارمى فى الصيد : ٩ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢١٨ .

قال لبيد :

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع

والمراد بالمعتر : أى: المتعرض للسؤال .

**والخلاصة** : أنه إذا سقطت وزهقت أرواحها ولم يبق لها حركة ، فكلوا منها وأطعموا القانع والمستغنى بما يعطونه وهو فى بيته بلا مسألة ، والمعتر الذى يتعرض لكم ويأتى إليكم لتطعموه من لحمها ، فكلوا وأطعموا .

وقوله :**﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾** :

أى: ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم ، خاضعة إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم حليتم ، وإن شئتم ذبحتم ، كما قال تعالى : **﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾**[١] .

وقال فى هذه الآية الكريمة : **﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾** .

قوله تعالى : **﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾** .

أى: لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها ، ولا الدماء المهراقة بالنحر ، ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة ، والإخلاص فيها ، بإرادة وجهه تعالى فحسب .

**والخلاصة** : لن يرضى المضحون ربهم إلا إذا أحسنوا النية ، وأخلصوا له فى أعمالهم ، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقرب بها شيئاً ، وإن كثر ذلك فقد جاء فى الصحيح :

( إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم )[٢] .

ثم كرر سبحانه التنبيه على عظم تسخيرها ، لافتاً أنظارهم إلى ما أوجب عليهم ، بقوله :

**﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ﴾** : أى: هكذا سخرها لكم لتشكروه على هدايته إياكم لمعالم دينه ، ومناسك حجه . فتقولوا : الله أكبر على ما هدانا ، ولله الحمد على ما أولانا .

ثم وعد من امتثل بقوله :

**﴿ وبشر المحسنين ﴾** : أى: وبشر أيها الرسول الذين أطاعوا الله فأحسنوا فى طاعتهم إياه فى الدنيا ، بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

# ثلاث مسائل

لما كانت السورة التى بين أيدينا هى سورة الحج ، ولما كانت الآيات السابقة قد تحدثت عن

( ١ ) الآيات ٧١ ـ ٧٣ من سورة يس .

( ٢ ) أخرجه مسلم فى البر : ٣٣ ، وابن ماجه فى الزهد : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٨٥ ، ٥٣٩ .

البيت الحرام والحج ومناسكه ، ولما كان ذلك كذلك رأينا من باب تمام الفائدة أن نتحدث أولا : عما جاء فى السنة عن فضل المناسك ، وثانياً : حجة الوداع ، وثالثاً : كيف تؤدى الحج ؟ .

*** المسألة الأولى : فضل المناسك :**

## الوقوف بعرفة والمزدلفة وفضل يوم عرفة

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذى الحجة ) . قال : فقال رجل : يا رسول الله : هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله ؟ قال : ( هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله ، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بأهل الأرض أهل السماء ، فيقول : انظروا إلى عبادى جاءونى شعثاً غبراً ضاحين ، جاءوا من كل فج عميق ، يرجون رحمتى ، ولم يروا عذابى ، فلم ير يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة ) . رواه أبو يعلى والبزار وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

والبيهقى ولفظه : قال رسول الله ﷺ : ( إذا كان يوم عرفة فإن الله تبارك وتعالى يباهى بهم الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادى أتونى شعثاً غبراً ضاحين من كل فج عميق ، أشهدكم أنى قد غفرت لهم . فتقول الملائكة : إن فيهم فلاناً مرهقاً وفلاناً . قال : يقول الله عز وجل : قد غفرت لهم . قال رسول الله ﷺ : ما من يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة ) .

ولفظ بن خزيمة نحوه ، لم يختلفا إلا فى حرف أو حرفين .

**المرهق** : هو الذى يغشى المحارم ويرتكب المفاسد .

**قوله ضاحين** : هو بالضاد المعجمة والحاء المهملة ، أى : بارزين للشمس غير مستترين منها . يقال : لكل من برز للشمس من غير شىء يظله ويكنه : إنه لضاح .

وعن طلحة بن عبيد الله بن كريز رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( ما رؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى فيه من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بدر . فإنه رأى جبرائيل عليه السلام يزع الملائكة )[١] . رواه مالك والبيهقى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم عرفة : ( أيها الناس إن الله عز وجل تطول عليكم فى هذا اليوم فغفر لكم إلا التبعات ، فيما بينكم ، ووهب مسيئكم لمحسنكم ، وأعطى لمحسنكم ما سأل ، فادفعوا باسم الله ، فلما كان بجمع قال : إن الله عز وجل : قد غفر لصالحيكم وشفع صالحيكم فى طالحيكم تنزل الرحمة فتعمهم ، ثم تفرق المغفرة فى الأرض فتقع على كل تائب ممن حفظ لسانه ويده ، وإبليس وجنوده على جبال عرفات ينظرون ما يصنع الله بهم ، فإذا نزلت الرحمة دعا إبليس وجنوده بالويل والثبور ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

---

( ١ ) أخرجه الإمام مالك فى الحج : ٢٤٥ .

وعن ابن عباس بن مرداس رضى الله عنه : ( أن رسول الله ﷺ دعا لأمته عشية عرفة فأجيب أنى قد غفرت لهم ما خلا المظالم فإنى آخذ للمظلوم منه .

قال : أى رب إن شئت أعطيت المظلوم الجنة ، وغفرت للظالم ، فلم يجب عشية عرفة . فلما أصبح بالمزدلفة أعاد فأجيب إلى ما سأل . قال : فضحك رسول الله ﷺ - أو قال تبسم - فقال له أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : بأبى أنت وأمى إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها فما الذى أضحكك ؟ أضحك الله سنك . قال : إن عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائى وغفر لأمتى أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ، ويدعو بالويل والثبور ( أى النار والهلاك ) فأضحكنى ما رأيت من جزعه )[1] . رواه ابن ماجه .

وروى ابن المبارك عن سفيان الثورى عن الزبير بن عدى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ( وقف النبى ﷺ بعرفات وقد كادت الشمس أن تؤوب فقال : يا بلال أنصت لى الناس . فقام بلال فقال : أنصتوا لرسول الله ﷺ فأنصت الناس فقال : معشر الناس أتانى جبرائيل عليه السلام آنفا فأقرأنى من ربى السلام ، وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات ، وأهل المعشر ، وضمن عنهم التبعات ، فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله : هذا لنا خاصة ؟ قال : هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كثر خير الله وطاب )[2] .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال ؛ ( إن الله يباهى بأهل علاقات أهل السماء ، فيقول لهم : انظروا إلى عبادى جاءونى شعثاً غبراً[3] ) رواه أحمد .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يقول : ( إن الله عز وجل يباهى ملائكته عشية عرفات بأهل عرفة فيقول : انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً ) . رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والصغير .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ( ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو يتجلى . ثم يباهى بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ )[4] . رواه مسلم والنسائى .

وعن عبد العزيز بن قيس العبدى قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : كان فلان ردف رسول الله ﷺ يوم عرفة ، فجعل الفتى يلاحظ النساء وينظر إليهن ، فقال له رسول الله ﷺ : ( ابن أخى إن هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له ) . رواه أحمد .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لو يعلم أهل الجمع بمن حلوا لاستبشروا بالفضل بعد المغفرة ) . رواه الطبرانى .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٢١١ ، وفى ٤ : ١٥ . (٢) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٦١ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٤ ، ٣٠٥ .

(٤) أخرجه النسائى فى آداب القضاء : ٣٧ ، وفى الحج : ١٩٤ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٦ ، وابن ماجه فى المساجد : ١٩ ، وفى المناسك : ٥٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٣٠٥ ، وفى ٤ : ٩٢ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ( جاء رجل من الأنصار إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله . كلمات أسأل عنهن . فقال ﷺ : اجلس . وجاء رجل من ثقيف فقال : يارسول الله كلمات اسأل عنهن . فقال ﷺ : سبقك الأنصارى . فقال الأنصارى : إنه رجل غريب وإن للغريب حقا ، فابدأ به ، فأقبل على الثقفى فقال : إن شئت أنبأتك عما كنت تسألنى عنه ، وإن شئت تسألنى وأخبرك . فقال : يا رسول الله : بل أجبنى عما كنت أسألك ؟ قال : جئت تسألنى الركوع والسجود والصلاة والصوم . فقال : والذى بعثك بالحق ما اخطأت مما كان فى نفسى شيئاً قال : فإذا ركعت فضع راحتيك على ركبتيك ، ثم فرج أصابعك ، ثم اسكن حتى يأخذ كل عضو مأخذه ، وإذا سجدت فمكن جبهتك ولا تنقر نقراً ، وصل أول النهار وآخره . فقال : يا نبى الله : فإن أنا صليت بينهما ؟ قال : فأنت إذاً مصل ، وصم من كل شهر ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة ، فقام الثقفى ، ثم أقبل على الأنصارى فقال : إن شئت أخبرتك عما جئت تسألنى ، وإن شئت تسألنى وأخبرك فقال : لا يا نبى الله أخبرنى بما جئت أسألك قال : جئت تسألنى عن الحاج ماله حين يخرج من بيته ، وماله حين يقوم بعرفات ، وماله حين يرمى الجمار ، وماله حين يحلق رأسه ، وماله حين يقضى آخر طواف بالبيت . فقال : يا نبى الله والذى بعثك بالحق ما أخطأت مما كان فى نفسى شيئاً قال : فإن له حين يخرج من بيته أن راحلته لا تخطو خطوة إلا كتب الله له بها حسنة ، أو حط عنه بها خطيئة ، فإذا وقف بعرفات فإن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً ، اشهدوا أنى قد غفرت لهم ذنوبهم ، وإن كانت عدد قطر السماء ، ورمل عالج ، وإذا رمى الجمار لا يدرى أحد ماله حتى يتوفاه الله يوم القيامة ، وإذا قضى آخر طواف بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ) . رواه البزار والطبرانى .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من مسلم يقف عشية عرفة بالموقف فيستقبل القبلة بوجهه ثم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير مائة مرة ثم يقرأ : قل هو الله أحد مائة مرة ثم يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد وعلينا معهم مائة مرة إلا قال الله تعالى : يا ملائكتى : ما جزاء عبدى هذا سبحنى وهللنى وكبرنى وعظمنى وعرفنى وأثنى على وصلى على نبىّ أشهدوا ملائكتى أنى قد غفرت له وشفعته فى نفسه ولو سألنى عبدى هذا لشفعته فى أهل الموقف ) . رواه البيهقى .

وعن أبى سليمان الدارانى قال : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الوقوف بالجبل ولم يكن فى الحرم قال : لأن الكعبة بيت الله ، والحرم باب الله ، فلما قصدوه وافدين أوقفهم بالباب يتضرعون ، قيل : يا أمير المؤمنين فالوقوف بالمشعر الحرام ؟ قال : لأنه لما أذن لهم بالدخول إليه وقفهم بالحجاب الثانى وهو المزدلفة ، فلما أن طال تضرعوا أذن لهم بتقريب قربانهم بمنى ، فلما أن قضوا تفثهم وقربوا قربانهم فتطهروا بها من الذنوب التى كانت عليهم أذن لهم بالزيارة إليه على الطهارة . قيل : يا أمير المؤمنين : فمن أين حرم الصيام أيام التشريق ؟ قال : لأن القوم زوار الله وهم فى ضيافته ولا يجوز للضيف أن يصوم دون إذن من أضافه ، قيل : يا أمير المؤمنين فتعلق الرجل بأستار

الكعبة ، لأى معنى هو؟ قال : هو مثل الرجل بينه وبين صاحبه جناية فيتعلق بثوبه ويتنصل إليه وينخدع له ليهب له جنايته ) . رواه البيهقى .

## فضل رمى الجمار

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل النبى ﷺ عن رمى الجمار مالنا فيه ؟ فسمعته يقول : ( تجد ذلك عند ربك أحوج ما تكون إليه ) . رواه الطبرانى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه إلى النبى ﷺ قال : ( لما أتى إبراهيم خليل الله صلوات الله عليه وسلامه المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون ) . رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا رميت الجمار كان لك نوراً يوم القيامة ) . رواه البزار .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هذه الجمار التى ترمى كل سنة ، فنحسب أنها تنقص ؟ قال : ( ما تقبل منها رفع ولولا ذلك رأيتموها مثل الجبال ) . رواه الطبرانى .

فانظر حكمة الله تعالى : فى مناسك الحج ، وكل فعله جل شأنه لحكمة ، ففى الحج حجر يرمى ، وآخر يُقبل ، حجر يرجم ، وآخر يلثم ، الحجر الذى يرجم فيه رمز وإشارة إلى أن هذا الدين يطارد الشر فى كل مكان ، فقد عرض الشيطان لإبراهيم فى هذا المكان فلابد من تذكرة للعباد ، ويذكرون بها أن الشر لابد أن يرجم ، أما الحجر الذى يُقبل فهو الحجر الأسود ، الذى نقبله كما قبله رسول الله ﷺ .

وفيه إشارة إلى أنك قد دخلت بيت ملك الملوك . فلابد أن تقيد اسمك فى سجل التشريفات الإلهية ، فتضع شفتيك على هذا الحجر دون إحداث صوت ، فأنت فى بيت أكرم الأكرمين ، تريد أن تشهده حتى تسجل لك تلك الشهادة فى الديوان الإلهى ، وعلى من وسوس له الشيطان أن يذكر ما قاله له الفاروق عمر عندما أراد أن يقبل هذا الحجر قال : ( إنى أعلم إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا إنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك )[١] .

ولقد قبله رسول الله صلوات ربى وسلامه عليه وبكى ، فقال له الفاروق ما يبكيك يا رسول الله . فقال له الحبيب : ( هنا تسكب العبرات يا عمر )[٢] .

---

( ١ ) أخرجه البخارى فى الحج : ٥٠ ، ومسلم فى الحج : ٢٤٨ ، ٢٥١ ، والنسائى فى المناسك : ١٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٢٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ١٧ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٥ .

( ٢ ) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٢٧ .

وما ذلك إلا لأن الصادق المعصوم رجعت به الذكريات عبر القرون الخاليات . فتذكر إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ، فليس الحج كما يزعم مرضى القلوب ، أحجار يطاف بها أو ترجم أو تلثم ، إنما الحج دروس فى العقيدة ، قضية أصول التوحيد ، ألسنا نكبر ونهلل ، ألسنا ندعو إذا طفنا وإذا سعينا ، وإذا وقفنا إذا رمينا .

إن رجلا ـ أى ابن عباس يذكر الله قائلا : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . فقال له : يا ابن عباس أتذكر ولا تدعو ؟ وهذا اليوم يوم عرفة . قال له ابن عباس :

أوما سمعت قول الله فى الحديث : ( من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين )[١] .

يا هؤلاء : ليس فى الحج شىء من الوثنية ، لأن الإسلام هو الذى حطم الوثنية فى جميع الجبهات ، إنما فى الحج : ( لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، إنما الحج لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ) .

إنما الحج : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد .

كلمات جرت على لسان جبريل ، والخليل ، والذبيح إسماعيل ، فأى شىء من الوثنية فى تلك المناسك كما يدعى الماديون الملحدون .

الحج : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[٢] ، ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾[٣] .

### فضل الحلق

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( اللهم اغفر للمحلقين ) قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : ( اللهم اغفر للمحلقين ) . قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : ( اللهم اغفر للمحلقين ) . قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : ( وللمقصرين )[٤] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أم الحصين رضى الله عنها ( أنها سمعت النبى ﷺ فى حجة الوداع دعا للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة واحدة )[٥] رواه مسلم .

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٦ .

(٢) الآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٢٨ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه البخارى فى الحج : ١٢٧ ، ومسلم فى الحج : ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، وأبو داود فى المناسك : ٨٧ ، والترمذى فى الحج : ٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧١ ، والدارمى فى المناسك : ٦٤ ، والإمام مالك فى الحج : ١٨٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢١٦ ، ٣٥٣ ، وفى ٢ : ١٦ ، ٣٤ ، ٧٩ ، ١١٩ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥١ ، وفى ٣ : ٢٠ ، ٨٩ ، وفى ٤ : ٧٠ ، ١٦٥ .

(٥) أخرجه مسلم فى الحج : ٣١٦-٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ .

وعن مالك بن ربيعة رضى الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول : ( اللهم اغفر للمحلقين ، اللهم اغفر للمحلقين . قال : يقول رجل من القوم : وللمقصرين ؟ فقال رسول الله ﷺ : فى الثالثة أو الرابعة وللمقصرين ) ثم قال : ( وأنا يومئذ محلوق الرأس فما يسرنى بحلق رأسى حمر النعم )(١) . رواه أحمد والطبرانى .

## أيهما أفضل

دعاؤه ﷺ للمحلقين ثلاث مرات ، وللمقصرين مرة واحدة ، تصريح بتفضيل الحلق .

وقد أجمع العلماء على أن الحلق أفضل من التقصير ، وعلى أن التقصير يجزى .

قال النووى : ووجه فضيلة الحلق على التقصير أنه أبلغ فى العبادة ، وأدل على صدق النية فى التذلل لله تعالى ، ولأن المقصر مبق على نفسه الشعر الذى هو زينة ، والحاج مأمور بترك الزينة ، بل هو أشعث أغبر ، والله أعلم .

واتفق العلماء على أن الأفضل فى الحلق والتقصير أن يكون بعد رمى جمرة العقبة ، وبعد ذبح الهدى إن كان معه ، وأقل ما يجزئ من الحلق والتقصير عند الشافعى ثلاث شعرات .

وعند أبى حنيفة ربع الرأس ، وعند أبى يوسف نصف الرأس .
وعند مالك وأحمد : أكثر الرأس ، وعند مالك رواية : كل الرأس .

وأجمعوا أن الأفضل حلق جميعه أو تقصير جميعه ، ويستحب أن لا ينقص فى التقصير عن قدر الأنملة من أطراف الشعر ، فإن قصر دونها جاز لحصول اسم التقصير ، والمشروع فى حق النساء التقصير ، ويكره لهن الحلق فلو حلقن حصل النسك ، ويقوم مقام الحلق والتقصير النتف والإحراق والقص ، وغير ذلك من أنواع إزالة الشعر .

## قال الفقهاء

ثبت الحلق والتقصير بالكتاب ، والسنة ، والإجماع .
قال الله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾(٢) .

وروى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : ( رحم الله المحلقين قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : والمقصرين )(٣) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٨ ، ٥٤ ، ٣٦٣ ، وفى ٢ : ٢١٦ ، وفى ٤ : ١٧٧ ، وفى ٥ : ٦٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٣٣٣ .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الفتح .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١٢٧ ، ومسلم فى الحج : ٣١٦ - ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، وأبو داود فى المناسك : ٧٨ ، والترمذى فى الحج : ٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧١ ، والدارمى فى المناسك : ٦٤ .

ورويا عنه : أن النبى ﷺ حلق ، وحلق طائفة من أصحابه ، وقصر بعضهم .
والمقصود بالحلق إزالة شعر الرأس بالموسى ونحوه ، أو بالنتف .
ولو اقتصر على ثلاث شعرات جاز .

والمراد بالتقصير أن يأخذ من شعر الرأس قدر الأنملة ، وقد اختلف جمهور الفقهاء فى حكمه .
فذهب أكثرهم : إلى أنه واجب ، يجبر تركه بدم .
وذهب الشافعية : إلى أنه ركن من أركان الحج .

**وقته :**

وقته للحاج بعد رمى جمرة العقبة يوم النحر ، فإذا كان معه هدى حلق بعد الذبح .
ففى حديث معمر بن عبد الله : ( إن رسول الله ﷺ لما نحر هديه بمنى قال : أمرنى أن أحلقه )[1] . رواه أحمد .

ووقته فى العمرة بعد أن يفرغ من السعى بين الصفا والمروة ، ولمن معه هدى بعد ذبحه .

ويجب أن يكون فى الحرم ، وفى أيام النحر ، عند أبى حنيفة ومالك ورواية عن أحمد .

وعند الشافعى ومحمد بن الحسن والمشهور من مذهب أحمد : يجب أن يكون الحلق أو التقصير بالحرم دون أيام النحر ، فإن أخر الحلق عن أيام النحر جاز ، ولا شىء عليه .

ما يستحب فيه :

يستحب فى الحلق أن يبدأ بالشق الأيمن ثم الأيسر ، ويستقبل القبلة ويكبر ويصلى بعد الفراغ منه .

قال وكيع : قال لى أبو حنيفة : أخطأت فى خمسة أبواب ، من المناسك فعلمنيها حجام .

وذلك أنى حين أردت أن أحلق رأسى وقفت على حجّام ، فقلت له : بكم تحلق رأسى ؟ فقال : أعراقى أنت ؟ قلت : نعم . قال : النسك لا يشارط عليه . اجلس ، فجلست منحرفا عن القبلة فقال لى : حرّك وجهك إلى القبلة ، وأردت أن أحلق رأسى من الجانب الأيسر فقال : أدر الشق الأيمن من رأسك ، فأدرته وجعل يحلق وأنا ساكت ، فقال لى : كبر فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب . فقال لى أين تريد ؟ فقلت رحلى . قال : صل ركعتين ثم امض ، فقلت : ما ينبغى أن يكون ما رأيت من عقل هذا الحجام . فقلت له : من أين لك ما أمرتنى به قال : رأيت عطاء بن أبى رباح يفعل هذا . ذكره المحب الطبرى .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٧٦ ، ١٥٧ ، وفى ٤ : ٣٢٧ .

## المسألة الثانية :

## حجة رسول الله ﷺ

**وتسمى حجة الوداع وحجة البلاغ وحجة الإسلام .**

روى مسلم قال : حدثنا أبو بكر بن شيبة وإسحق بن إبراهيم جميعا وعن حاتم قال أبو بكر : حدثنا حاتم بن إسماعيل المدنى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال :

( دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه فسأل عن القوم حتى انتهى إلىَّ ؟فقلت : أنا محمد ابن على بن حسين ، فأهوى بيده إلى رأسى ، فنزع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديىَّ ، وأنا يومئذ غلام شاب . فقال : مرحباً بك يا ابن أخى ، سل عما شئت ؟ فسألته - وهو أعمى - وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نساجه ملحقها بها كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ورداؤه إلى جنبه على المشجب ( الشماعة ) .

( فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ فقال : بيده : فعقد تسعاً ، فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس فى العاشرة : أن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ، ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله : كيف أصنع ؟ قال : اغتسلى واستشفرى بثوب وأحرمى .

فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ، ثم ركب ( القصواء ) حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شىء عملنا به ، فأهلّ بالتوحيد « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك والملك لا شريك لك » .

وأهلّ الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه ، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ، ومشى أربعاً . ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[١] .

فجعل المقام بينه وبين البيت .

وكان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾[٢] أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا

---

( ١ ) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

( ٢ ) الآية ١٥٨ من سورة البقرة .

فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل فوحد الله وكبره ، وقال : لا إله إلا الله لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

( ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة حتى إذا كان آخر طوافه على المروة كما فعل على الصفا .

( حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال : ( لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة .

فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم الأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى وقال : ( دخلت العمرة فى الحج مرتين . لا بل لأبد آبد ) .

وقدم على من اليمن ببدن النبى ﷺ فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حل ، ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : إن أبي أمرنى بهذا .

( قال : فكان علىٌ يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها فقال : صدقت صدقت .

( ماذا قلت حين فرضت الحج ؟

( قال : قلت: ( اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك ) .

( قال : فإن معى الهدى فلا تحل .

( قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به علىّ من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ ، مائة .

قال : فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله ﷺ فصلى بهم الظهر . والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية .

فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال :

( إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال :

بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس اللهم اشهد ، اللهم أشهد ، ثلاث مرات .

ثم أذن ، ثم أقام ، فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة .

فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه .

ورفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى : أيها الناس ، السكينة السكينة كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً .

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً .

فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيما فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحول رسول الله يده من الشق الآخر على وجه الفضل . يصرف وجهه من الشق الآخر حتى أتى بطن محشر .

فحرك قليلاً « ثم سلك الطريق الوسطى » التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة عند الشجرة فرماها بسبع حصيات وكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادى .

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه فى هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر .

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم . فناولوه دلواً فشرب منه )[1] .

قال العلماء : واعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد .

قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه ، وأكثروا ، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيراً ، أخرج فيه من الفقه مائة ونيفاً وخمسين نوعاً ، قال : ولو تقص لزيد على هذا العدد قريب منه قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ، ولغيرهما بالأولى ، وعلى استنفار الحائض والنفساء وعلى صحة إحرامهما ، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرك صوته بالتلبية ، ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ ، فإذا زاد فلا بأس فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن ، لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٤٨ .

وأنه ينبغى للحاج القدوم أولاً إلى مكة ليطوف طواف القدوم وأن يستلم ـ الحجر الأسود ـ قبل طوافه ، ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى ، والرمل إسراع المشى مع تقارب الخطا وهو الخبب ، وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين .

ثم يمشى أربعاً على عادته وأنه يأتى بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[1] . ثم يجعل المقام بينه وبين البيت الأصلى ويصلى ركعتين .

ويقرأ فيهما فى الأولى ـ بعد الفاتحة ـ سورة ﴿ الكافرون ﴾ ، وفى الثانية بعد الفاتحة ـ سورة ﴿ الإخلاص ﴾ ودل الحديث أنه يشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد ، كما فعله عند الدخول .

واتفق العلماء : على أن السعى سنة ، وأنه يسعى بعد الطواف ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف مستقبل القبلة ، ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ، ويدعو ثلاث مرات ويرمل فى بطن الوادى ، وهو الذى يقال له « بين الميلين » وهو ـ أى الرمل ـ مشروع فى كل مرة من سبعة الأشواط لا فى الثلاثة الأول ، كما فى طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو .

وبتمام ذلك تتم عمرته .

فإن حلق أو قصر صار حلالاً ، وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة .

وأما من كان قارناً فإنه لا يحلق ولا يقصر ويبقى على إحرامه ، ثم فى يوم الترويه ـ وهو الثامن من ذى الحجة ـ يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ، ويذهب هو ومن كان قارناً إلى منى ، والسنة أن يصلى بمنى الصلوات الخمس وأن يبيت بها هذه الليلة ـ وهى ليلة التاسع من ذى الحجة .

ومن السنة كذلك أن لا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل « عرفات » إلا بعد زوال الشمس .

وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بـ ( عرفات ) فإنه ﷺ نزل بنمرة وليست من عرفات .

ولم يدخل ـ ﷺ ـ الموقف ـ إلا بعد الصلاتين .

ومن السنة أن لا يصلى بينهما شيئاً وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة وهذه إحدى الخطب المسنونة فى الحج .

والثانية ـ أى:من الخطب المسنونة ـ يوم السابع من ذى الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

والثالثة ـ أى:من الخطب المسنونة ـ يوم النحر .

والرابعة ـ يوم النفر الأول .

وفى الحديث سنن وآداب منها :

أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين .

وأن يقف ـ فى عرفات ـ راكباً أفضل .

---

( ٢ ) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

وأن يقف عند الصخرات عند موقف النبى ﷺ أو قريباً منه . وأن يقف مستقبل القبلة . وأن يبقى فى الموقف حتى تغرب الشمس .

ويكون فى وقوفه داعياً الله عز وجل ، رافعاً يديه إلى صدره ، وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة ، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً .

فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعاً بأذان واحد وإقامتين ، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات : وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء ، وإنما اختلفوا فى سببه .

فقيل : إنه نسك وقيل : لأنهم مسافرون ـ أى: السفر هو العلة لمشروعية الجمع .

ومن السنن : المبيت بمزدلفة ، وهو مجمع على أنه نسك ، وإنما اختلفوا فى كونه ـ أى المبيت ـ واجباً أو سنة .

ومن السنة أن يصلى الصبح فى المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك فيأتى المشعر الحرام فيقف به ويدعو .

والوقوف عنده من المناسك .

ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً : فيأتى بطن محسر فيسرع السير فيه لأنه محل غضب الله على أصحاب الفيل فلا ينبغى الأناة فيه ولا البقاء .

فإذا أتى الجمرة ـ وهى جمرة العقبة ـ نزل ببطن الوادى ورماها بسبع حصيات كل حصاة كحبة الباقلاء ـ أى الفول ـ يكبر مع كل حصاة .

ثم ينصرف بعد ذلك إلى النحر فينحر ـ إن كان عنده هدى ـ ثم يحلق بعد نحره .

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة ـ وهو الذى يقال له طواف الزيارة .

ومن بعده يحل له كل ما حرم عليه بالإحرام حتى وطء النساء .

وأما إذا رمى جمرة العقبة ولم يطف هذا الطواف فإنه يحل له كل شىء ماعدا النساء .

هذا هو هدى رسول الله ﷺ فى حجته والآتى به مقتد به ـ ﷺ ـ وممتثل لقوله : ( خذوا عنى مناسككم )(١) . وحجه صحيح .

**المسألة الثالثة :**

## كيفية أداء الحـــج

إذا قارب الحاج الميقات استحب له أن يأخذ من شاربه ، ويقص شعره وأظافره ، ويغتسل ، أو يتوضأ ، ويتطيب ، ويلبس لباس الإحرام .

فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين وأحرم ـ أى:نوى الحج ، إن كان مفرداً أو العمرة إن كان متمتعاً أو هما معاً إن كان قارناً .

---

(١) أخرجه النسائى فى المناسك : ٢٢٠ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣١٨ ، ٣٦٦ .

وهذا الإحرام ركن ، لا يصح النسك بدونه .

أما تعيين نوع النسك من إفراد أو تمتع أو قران فليس فرضاً . ولو أطلق النية ولم يعين نوعاً خاصاً صح إحرامه .

وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة .

وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع كلما علا شرفاً أو هبط وادياً أو لقى ركبا ، أو أحدا ، وفى الأسحار ، وفى كل دبر كل صلاة .

وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ومخاصمة الرفاق وغيرهم والجدل فيما لا فائدة فيه وأن لا يتزوج ولا يزوج غيره ويتجنب أيضاً لبس المخيط والمحيط والحذاء الذى يستر ما فوق الكعبين ولا يستر رأسه ولا يمس طيباً ولا يحلق شعراً .

ولا يقص ظفراً ولا يتعرض لصيد البر مطلقاً ولا لشجر الحرم وحشيشه فإذا دخل مكة المكرمة استحب له أن يدخلها من أعلاها بعد أن يغتسل من بئر ذى طوى بالزاهر إن تيسر له .

ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها ( من باب السلام ) ذاكراً أدعية دخول المسجد وواعياً آداب الدخول وملتزماً الخشوع والتواضع والتلبية . فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه وسأل الله من فضله وذكر الدعاء المستحب فى ذلك .

ويقصد رأساً إلى الحجر الأسود فيقبله بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها .

فإن لم يستطع ذلك أشار له .

ثم يقف بحذائه ملتزماً الذكر المسنون والأدعية المأثورة ثم يشرع فى الطواف .

ويستحب له أن يضطبع ويرمل فى الأشواط الثلاثة الأول ويمشى على هينته فى الأشواط الأربعة الباقية .

ويسن له استلام الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسود فى كل شوط . فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تالياً قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ ويصلى ركعتين يقرأ فى الأولى: ﴿ قل هو أحد ﴾ وفى الثانية: ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ثم يخرج إلى الصفا تاليا قول الله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾[1] . الآية .

ويصعد عليه ، ويتجه إلى الكعبة ، فيدعو بالدعاء المأثور ، ثم ينزل فيمشى فى السعى ذاكراً داعياً بما شاء .

فإذا بلغ ( ما بين الميلين ) هرول ثم يعود ماشياً على رسله حتى يبلغ المروة فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعياً ، ذاكراً وهذا هو الشوط الأول .

وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط .

---

( ١ ) الآية ١٥٨ من سورة البقرة .

وهذا السعى واجب على الأرجح وعلى تاركه ـ كله أو بعضه ـ دم فإذا كان المحرم متمتعاً حلق رأسه أو قصر .

وبهذا تتم عمرته ويحل له ما كان محظوراً من محرمات الإحرام حتى النساء .

أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المستمتع من منزله ويخرج ـ هو وغيره ممن بقى على إحرامه ـ إلى منى فيبيت بها .

فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات ، ونزل عند مسجد ( نمرة ) واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام يقصر فيهما الصلاة .

هذا إذا تيسر له أن يصلى مع الإمام : وإلا صلى جمعاً وقصراً ، حسب استطاعته .

ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريباً منها .

فإن هذا موضع وقوف النبى ﷺ ، والوقوف بـ ( عرفة ) هو ركن الحج الأعظم ولا يسن ، ولا ينبغى صعود جبل الرحمة .

ويستقبل القبلة ويأخذ فى الدعاء والذكر والابتهال حتى يدخل الليل فإذا دخل الليل أفاض إلى ( المزدلفة ) فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير . ويبيت بها .

فإذا طلع القمر وقف بالمشعر الحرام وذكر الله كثيرا حتى يسفر الصبح فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى ( منى ) .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم .

وبعد طلوع الشمس يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ثم يذبح هديه ـ إن أمكنه ـ ويحلق شعره أو يقصره وبالحلق يحل له كل ما كان محرماً عليه ماعدا النساء .

ثم يعود إلى مكة ، فيطوف بها طواف الإفاضة ـ وهو طواف الركن ـ فيطوف ـ كما طاف ـ طواف القدوم .

ويسمى هذا الطواف أيضاً طواف الزيارة وإن كان متمتعاً سعى بعد الطواف .

وإن كان مفرداً أو قارناً ، وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر ، وبعد هذا الطواف يحل له كل شىء حتى النساء .

ثم يعود إلى « منى » فيبيت بها .

والمبيت بها واجب ، يلزم بتركه دم .

وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث ، مبتدئاً بالجمرة التى تلى ( منى ) ثم يرمى الجمرة الوسطى ، ويقف بعْد الرمى داعياً ذاكراً ، ثم يرمى جمرة العقبة

ولا يقف عندها ، وينبغى أن يرمى كل جمرة بسبع حصيات قبل الغروب ، ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك .

ثم هو مخير بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر ، وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر .

ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم .

فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع وهذا الطواف واجب .

وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات وإلا ذبح شاة .

ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات والطواف والسعى والحلق وبهذا تنتهى أعمال العمرة .

ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار وطواف الإفاضة والمبيت ( بمنى ) والذبح والحلق والتقصير .

ويستحب للمودع أن يدعو بالمأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما : هو :

( اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك حملتنى على ما سخرت لى من خلقك وسيرتنى فى بلادك حتى بلغتنى ـ بنعمتك ـ إلى بيتك وأعنتنى على أداء نسكى فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا وإلا فمن الآن فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك دارى ، فهذا أوان انصرافى إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك . اللهم فأصحبنى العافية فى بدنى والصحة فى جسمى والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى وارزقنى طاعتك ما أبقيتنى واجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير ) .

قال الشافعى : أحب : إذا ودع البيت ـ أن يقف فى الملتزم ، وهو ما بين الركن والباب ، ثم ذكر الحديث .

عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

( السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نهمته ( الشهوة ) فليعجل إلى أهله )[١] . رواه البخارى ومسلم .

وعن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا قضى أحدكم حجه فليتعجل إلى أهله فإنه أعظم لأجره ) . رواه الدارقطنى .

وروى مسلم عن العلاء بن الحضرمى : أن رسول الله ﷺ قال : ( يقيم المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثاً )[٢] .

---

( ١ ) أخرجه البخارى فى العمرة : ١٩ ، وفى الجهاد : ١٣٦ ، وفى الأطعمة : ٣٠ ، ومسلم فى الإمارة : ١٧٩ ، والدارمى فى الاستئذان : ٤٠ ، والإمام مالك فى الاستئذان : ٣٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٦ ، ٤٤٥ ، ٤٩٦ .

( ٢ ) أخرجه مسلم فى الحج : ٤٤٣ .

## أحكام الله عادلة

* إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)

**المفردات : أذن** : أى رخص .
**الصوامع** : واحدها صومعة وهى معبد الرهبان فى الصحراء ـ الدير .
**والبيع** : واحدها بيعة وهى معبد النصارى .
**والصلوات** : واحدها صلاة معرب صلوتا بالعبرية معبد اليهود .
**ومساجد** : واحدها مسجد وهو معبد المسلمين .
**أمليت** : أى: أمهلت .
**أخذتهم** : أى: أهلكتهم .
**فكيف** : استفهام يراد به التعجب .
**والنكير والإنكار على الشىء** : أن تفعل فعلا به يزجر المنكر عليه على ما فعل .
**خاوية** : ساقطة .
**عروشها** : أى: سقوفها .
**معطلة** : أى: عطلت من منافعها .
**مشيد** : أى: مبنى بالشيد وهو الجص ( الجير ) .
**الإنذار** : التخويف .
**وأصل السعى** : الإسراع فى المشى ثم استعمل فى الإصلاح والإفساد ، يقال سعى فى أمر فلان : إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه معاجزين : أى: مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله وأصله من قولهم : عاجزه فأعجزه ، إذا سابقه فسبقه .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾ :

هذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين بالدفاع عنهم ، ومنع الأشرار والظالمين عن أذاهم ، ووعد الله حق ، وصدق ، لا يختلف ولا يتخلف ، قال سبحانه : ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾[١] ، ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[٢] .

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٣] ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٤] .

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً ﴾[٥] .

إن الذين عرفوا ربهم فآمنوا به ، وصدقوا رسله ، يعلمون علم اليقين أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فإذا كان وعدهم بالدفاع عنهم فذلك حق ثابت ، فما بالك إذا أكد هذا الوعد بأداة التوكيد « إن » .

---

( ١ ) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزمر .
( ٢ ) الآية ٣٨ من سورة الزمر .
( ٣ ) الآية ٥١ من سورة غافر .
( ٤ ) الآية ٢١ من سورة المجادلة .
( ٥ ) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

ثم يقتضى وعده أن يكون الدفاع عنهم عاقبته النصر ، ذلك أنه لا يحب كل خوان كفور ، أى شديد الخيانة والكفر لا عهد له ولا وعد ولا ميثاق ولا وفاء عنده فهو فى خيانته جاحد كل نعمة ، وكل الكائنات تؤكد أن شكر النعم واجب ، ولكنها النفوس إذا عشش فيها الشيطان فباض فيها الزندقة ، وأفرخ فيها الإلحاد .

قوله تعالى : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** ﴾ .

عن ابن عباس قال : لما أخرج النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن ، قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾ . قال أبو بكر رضى الله عنه : فعرفت أنه سيكون قتال .

وهذه أول آية فى الجهاد ، فإن رسول الله ﷺ دعا إلى الله بالحجة القاطعة ، والبرهان الساطع ، وأنزل الله تعالى عليه ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر ﴾[1] .

وأنزل عليه : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [2] .

وأنزل عليه : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[3] .

وأنزل عليه : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[4] .

فقوبل بالأذى من أهل مكة ، وذهب إلى الطائف لعله يجد بينهم من يستجيب لدعوته ، ولكنه رمى بالحجارة من سفهائهم وصبيانهم ، حتى دميت قدماه الشريفتان ، وأرسل إلى ربه برقية عاطرة يقول فيها :

( اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ) .

وعلى جناح السرعة كان جبريل يجوب الآفاق ، ويطوى بأجنحته السبع الطباق ، يستأذن رسول الله أن يطبق عليهم الأخشبين ، فماذا كان رده ﷺ ؟

إنه رد جعل سفير الأنبياء ، وكبير أمناء وحى السماء يعجب العجب كله ، إن الخطر محتوم ، والخطوات مدلهمة ، وقد بلغ السيل الذبى وجاوز الحزام الطبيعى ، حتى يظن من رأى هذا

---

(١) الآيات ١ - ٦ من سورة المدثر .
(٢) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ٩٤ من سورة الحجر .
(٤) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

الموقف أنه لم يبق فى قوس الصبر منزع ، وإذا بالرد الكريم من النبى الكريم ينزل على النفوس كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى ، ينزل برداً وسلاماً ، لقد قال الصادق المعصوم : ( يا جبريل إنى لأرجو أن يخرج الله من ظهورهم من يقول لا إله إلا الله . اللهم اهدى قومى فإنهم لا يعلمون ) . فلم يسع الأمين جبريل إلا أن يقول له : ( صدق من سماك الرءوف الرحيم ) . سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

نور أضاء فبدد الظلماء ... والكون أصبح باسما وضاءً
يا نور أحمد فى صلاتك روعة ... الله شرف نوره وأضاء
سعدت لطلعتك السموات العلى ... والأرض صارت جنة خضراء
أنت الذى قاد الجيوش محـ ... ـطماً عهد الضلال وأدب السفهاء
وسموك بالبشر الذى تعـ ... ـلموا سنتى الشريعة فارتقوا سعداء

واشتد الأذى على رسول الله بعد عودته من الطائف ، واستقر رأيهم فى دار الندوة على قتله ، وأذن الله له بالهجرة إلى المدينة : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[1] .

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾[2] .

﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾[3] .

وخرج الرسول من مكة والحنين يملأ قلبه إليها ، وقال يخاطب مكة : ( والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت ) فأنزل الله عليه :

﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ﴾[4] .

وهاجر الرسول إلى المدينة واستقر بها ، فماذا حدث ؟ ومتى شرع القتال ؟

وقبل أن يجيب على هذا السؤال اللواء محمود شيت خطاب ، يبين معنى القتال فيقول : هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة ، وتوطيد أركان السلام ، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة فى القتال .

## فمتى شرع القتال فى الإسلام ؟

لم يؤذن للمسلمين فى القتال قبل الهجرة ، رغم ما ذاقوا من المر ، وكابدوا من فنون الأسى والضر ، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة ، ويثبتوا عقيدة ، ويقولوا فى حرارة وصدق ربنا الله .

فلما اشتد عداء قريش ، وصمموا على القضاء على الدعوة ، وأجمعوا أمرهم على قتل النبى ﷺ ، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة .

---

( ١ ) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .
( ٢ ) الآية ٤٠ من سورة التوبة .
( ٣ ) الآية ١٣ من سورة محمد .
( ٤ ) الآية ٨٥ من سورة القصص .

فهل وقف البغى ، وخفت حدة العدوان ؟ كلا ظلت قريش تحارب المسلمين ، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم ، حتى أذن الله للمسلمين فى القتال ، فنزلت فيه أول آية : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾ .

لقد خرج الرسول ﷺ غازيا فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة ، وبذلك بدأ القتال ( فعلا ) فى الإسلام .

## أهداف القتال فى الإسلام

*** حماية نشر الدعوة :**

ليس من أهداف الحرب فى الإسلام ( نشر ) الدعوة بل ( حماية حرية ) نشرها ، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه ، والله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[1] .

ولو كان الفضل فى انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته ، حين ضعف أهله ، وغلبوا على أمرهم .

ولكن هدف الحرب فى الإسلام هو حماية العقيدة ، وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين . ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[2] .

إن الحرب فى الإسلام حرب دفاعية ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد ، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال ، ويعتبرون الحرب كفاحوشرف ، لا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو اجراء يتنافى مع الشرف ، فهم مقيدون باحترام العهد ، والترفع عن الخيانة ، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى ، والعناية بهم ، وعدم التعرض بسوء لغير المقاتلين والنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين .

*** توطيد أركان السلام :**

تكون الأمة بغير جيش عرضة للضياع ، إذ يطمع فيها أعداؤ ها ، ولا يهابون قوتها ، فإذا كان لها جيش قوى احترم العدو إرادتها ، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها ، فيسود عند ذاك السلام : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره

---

(١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم * يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾[١] .

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾[٢] .

إن الإسلام كما نزل عليه تسميته دين أمن وسلام ، يقوم على أساس الود والتسامح ، لا يجيز الحرب إلا فى حالات محددة ، بحيث تعتبر فيما عداها جريمة .

## أنواع القتال فى الإسلام

*** قتال المسلمين للمسلمين :**

هذا النوع من القتال هو شأن من الشئون الداخلية للمسلمين ، فقد فرض القرآن حالة بغى وخروج على النظام العام ، تقع بين طوائف المسلمين بعضها مع بعض ، أو بين الرعية وراعيها ، فوضع لها تشريعاً من شأنه أن يحفظ على الأمة وحدتها ، وعلى الهيئة الحاكمة سلطانها وهيبتها ، ويقى المجموع شر البغى والتعادى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾[٣] .

هذه الآية تفرض حالة اختلاف يقع بين طائفتين من المؤمنين ، ولا يستطاع حله بالوسائل السلمية ، فتلجأ كل منهما إلى القوة ، فتوجب هذه الآية على الأمة ممثلة فى حكوماتها أن تنظر فيما بين الطائفتين من أسباب الشقاق ، وتحاول الإصلاح بينهما ، فإن وصلت إلى ذلك عن طريق المفاوضات ، وأخذ كل ذى حق حقه ، ورد البغى ، واستقر الأمن ، فقد كفى الله المؤمنين شر القتال .

وإن بغت إحداهما على الأخرى ، واستمرت على العدوان ، وأبت أن تخضع للحق ، وتنزل على حكم المؤمنين ، كانت بذلك باغية خارجة على سلطان القانون ، متمردة على التشريع الإلهى والنظام ، فيجب على جماعة المسلمين قتالها ، حتى تخضع وترجع إلى الحق .

إن القصد من هذا التشريع هو المحافظة على وحدة الأمة ، وعدم إفساح المجال لتفريقها ، لذلك فهذه الحرب طريق ( للسلم ) وقضاء على البغى والعدوان .

*** قتال المسلمين لغير المسلمين :**

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين لرد العدوان ، وحماية الدعوة ، وحرية انتشار الدين ، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار ، وإذلال الضعفاء ، وتوخى به أن يكون طريقا إلى السلام والاطمئنان ، وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف .

---

( ١ ) الآيات ٦٠ ـ ٦٤ من سورة الأنفال .

( ٢ ) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة .

( ٣ ) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحجرات .

وليست الجزية عوضا مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هى لحماية المغلوبين فى أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء . .

يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التى تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية فى العقائد والأموال ، وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف : ( إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة . . فإن منعناكم فلنا جزية وإلا فلا نمنعكم ) .

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص ، وأبو عبيدة على أهل دمشق ، وبقية القواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية ، حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك ، وكان مما قال القواد المسلمون لأهل تلك المدن : ( إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم فهذه هى أموالكم نردها إليكم ) .

لقد كان فرض الجزية فى الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع فى أموال المغلوبين ، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب ، وكانت على ثلاثة أقسام :

**أعلاها** : وهو (٤٨) درهماً فى السنة على الأغنياء ( حوالى دينارين ونصف دينار عراقى أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشاً مصرياً ) .

**وأوسطها** : وهو (٢٤) درهماً فى السنة على المتوسطين من تجار وزراع .

**وأدناها** : وهو (١٢) درهماً فى السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً .

وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله ، وهو بنسبة اثنين ونصف فى المائة ، القدر الشرعى لفريضة الزكاة .

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبى والمرأة والراهب ، والمنقطع للعبادة ، والأعمى والمقعد ، وذوى العاهات ، أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها ، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة فى تصحيلها ، وقد جاء فى عهد خالد لصاحب مقل الناطف : ( إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله ) .

ليس ذلك فحسب بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة فى الجيش ، والذى يقبل التطوع من الجيش الإسلامى عند الجزية ، وهذا معناه أن الجزية تشابه البدل النقدى للخدمة العسكرية فى عصرنا الحاضر .

كما ضمن الإسلام إعالة البائسين والمحتاجين من الذميين ، جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة : ( وأيما شخص ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله ) .

إن فرض الجزية لا يحمل معنى الامتهان والإذلال .

ومعنى ( صاغرون ) فى آية الجزية : ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[1] هو الخضوع ، إذ من معانى الصغار فى اللغة الخضوع ، ومنه أطلق ( الصغير ) على الطفل ، لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه ، والمراد بالخضوع حينئذ الخضوع لسلطان الدولة ، بحيث يكون فى دفع الجزية معنى الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة ، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم ، واحترام عقائدهم ، ولا توجد آية فى القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه .

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾[2] .

واقرأ الآية الكريمة وهى من أواخر القرآن نزولاً فهى تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم: ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[3] .

من ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هى : بر وقسط وتعاون ومصاهرة .

## * تنظيم القتال فى الإسلام :

**تقوية المعنويات** : يعمل الإسلام على تقوية معنويات المقاتلين فى سبيل الله ، فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين ، وثواب المجاهدين ، لأنهم يقاتلون فى سبيل إنقاذ الضعفاء ، والبر بالإنسان ، ومقاومة الجبروت والطغيان ، ولدحض عوامل الشر والإفساد .

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً * الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾[4] .

بمثل هذا الأسلوب القوى حارب الإسلام عوامل الضعف ، ونزعات الخوف ، وغرس فى نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية ، والاستهانة بزخرف الحياة فى سبيل الحق ونصرته: ﴿ إنما المؤمنون

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

(٢) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .

(٣) الآية ٥ من سورة المائدة .

(٤) الآيات ٧٤ - ٧٦ من سورة النساء .

الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أولئك هم الصادقون ﴾[١] .

لقد توخى الإسلام تقوية الروح المعنوية وقد كانت المعنويات العالية ولا تزال من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية .

**إعداد القوة المادية** : حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين : القوة والرباط .

فأما القوة فتناول العدد والعدة وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال ، وإعداد آلات الحرب ، ووسائل القتال ، ومواد التموين ، وكافة القضايا الإدارية الأخرى .

وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضاً من تحقيق الحدود والثغور ، والأماكن الواهنة تجاه العدو ، وتهيئة القوة الكامنة فيها لحمايتها ، يهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار ، وذلك لإرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحى الضعف والتخاذل ﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾[٢] .

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة ، ويذكر بالحديد بصورة خاصة للاستفادة منه للأغراض العسكرية : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[٣] .

إن الجهاد فى الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للمنافحة عن الحق وحمايته .

*** التنظيم العملى للقتال :**

**الإعفاء من الجندية** : أسباب الإعفاء من الجندية فى الإسلام محصورة فى الضعف ، ويشمل الضعف المرض ، والعجز ، والشيخوخة ، وعدم القدرة على الإنفاق : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾[٤] .

لم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ، ولا الانتساب إلى الجامعات ، ولا حفظ القرآن الكريم ، ولا دفع البدل النقدى ، ولا البنوة لحاكم كبير ، مما عهدناه فى عصور الانحلال ، بل كان العمل فى عصر النبى ﷺ ، والعصور التالية له على عكس ذلك ، وما كان التفكير فى جمع القرآن الكريم إلا خوفاً من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة فى حرب اليمامة ، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً فى أن يستحر القتل فيهم .

* **إعلان الحرب** : حذر القرآن الكريم من انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة غدراً : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾[٥] .

---

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة النساء .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الحديد .
(٤) الآية ٩١ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٥٨ من سورة الأنفال .

إن المسلمين لا يخونون أحداً ، ولا يغدرون بأحد ، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم ، ثم يشرعون بعد هذا الإعلان فى القتال .

* **الدعوة إلى الجهاد** : حذر الإسلام من التباطؤ فى تلبية داعى الجهاد ، والتثاقل عنه: ﴿ يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير ﴾[1] .

* **عقاب المتخلفين** : عاقب الإسلام المتخلفين عن الجهاد عقاباً نفسياً ، إذ يهجر المتخلف أهله حتى زوجه ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه ، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾[2] .

فقد تاب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ليتوبوا . ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى . إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط . ولا يشتمل أهله وعشيرته ، ولا سكان قريته .

* **تطهير الجيش** : يأمر الإسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ومن الذين يختلفون عن أفراده بالعقيدة . حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة . يعمل لتحقيقها . ويبذل كل ما يملكه فى سبيلها .

* **أساليب القتال** : ينظم الإسلام مواضعه الدفاعية ويوزع وحداته على تلك المواضع : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾[3] .

ويبتكر القتال بأسلوب الصف الذى لم تكن العرب تعرفه حينذاك ، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾[4]

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال فى العصر الحاضر ، فهويؤمن العمق والاحتياط ، ليستطيع القائد معالجة المواقف التى ليست فى الحسبان .

* **الضبط** : يحث الإسلام على السمع والطاعة للقيادة العامة والثبات فى المواقف وتجنب أسباب الفشل والاعتصام بالله وباليقين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[5] .

* **الكتمان** : حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ،

---

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة التوبة .
(٢) الآية ١١٨ من سورة التوبة .
(٣) الآية ١٢١ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٣ من سورة الصف .
(٥) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأنفال .

وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة ، كما طلب من المسلمين أن يثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها: ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾[١] .

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[٢] .

* **الهدنة والصلح** : أمر الإسلام بتلبية دعوة السلم ، ووقف الحرب إذا جنح إليها الأعداء ، وظهرت منهم علامات الصدق والوفاء : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾[٣] .

* **الأسرى** : خير الإسلام القائد بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال ، وذلك حسب ما يرى من المصلحة : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾[٤] .

لقد حرم الإسلام قتل الأسير ، ومن أسلم امتنع قتله ، ومن أسلم قبل أسره ولو لخوف فهو كالمسلم الأصلى يحرم دمه أيضاً .

* **المحافظة على العهود** : حث الإسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود . وأوجب الوفاء بها ، وحرم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد إلى أن القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب ، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق والوقيعة بالضعفاء ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون*ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ :

أى:هو القدير على أن ينصرهم بدون قتال ، أو كفاح مسلح ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم * يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[٦] .

وهكذا فالقتال جهاد وابتلاء:﴿ ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾[٧] .

وكما قال جل شأنه : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾[٨] .

(١) الآية ٦٠ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية ٨٣ من سورة النساء .
(٣) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ٤ من سورة محمد .
(٥) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .
(٦) الآيات ٤ـ٧ من سورة محمد .
(٧) الآية ١٤١ من سورة آل عمران .
(٨) الآية ١٤٠ من سورة آل عمران .

وما أدراك ما الشهادة ؟ ثم ما أدراك ما الشهداء ؟ حسبك أن تقرأ قوله تعالى:﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾[1] .

قوله تعالى : **﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾** .

والمراد بهم رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقد أخرجوا من ديارهم بمكة مهاجرين إلى المدينة ، بغير حق ، لأن الذين أخرجوهم لا يعرفون للحق ديوانا ، ولا ينصبون له ميزانا ، لأنهم مردوا على الباطل ، ومرنوا على الكفر ، وما كان لسيدنا محمد وأصحابه من ذنب اقترفوه ، إنما كل ذنبهم فى نظر هؤلاء الجاحدين المبطلين أنهم أعلنوها فى سمع الزمان مدوية : ﴿ ربنا الله ﴾ .

وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾[2] : أى ما أخرجوكم إلا لإيمانكم بالله ربكم .

وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾[3] .

فهل نالوا من قلوبهم فغيروا ما بها من عقائد ، لا والله ، لقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

إن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا ، والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، ومن ثم لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق ويقولون :

( اللهم لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلن سكينة علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا ، إن الألى بغوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا )[4] .

إن الإحن لا تزيد المؤمنين إلا ثباتا ورسوخا وبزوغا وشموخا .

إنهم كلما اشتدت بهم الشدائد صهرتهم فى بوتقة الصمود ، وتذكروا قول الله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما * من المؤمنين رِجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾[5] .

---

( ١ ) الآيات ١٦٩ - ١٧٢ من سورة آل عمران .

( ٢ ) الآية ١ من سورة الممتحنة .

( ٣ ) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة البروج .

( ٤ ) أخرجه البخارى فى الجهاد : ٣٤ ، وفى القدر : ١٦ ، وفى التمنى : ٧ ، وفى الأدب : ٩٠ ، وفى المغازى : ٢٩ ، ٣٨ ، ومسلم فى الجهاد : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، والدارمى فى السير : ١٨ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣١ ، وفى ٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ .

( ٥ ) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الأحزاب .

إن الجماعة المسلمة ترسل هذه الصيحة كأنها البركان فى سمع الزمان ، سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائب فى رحابنا ، وسنتلوا على الدنيا كتاب جهادنا ، صُمَّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا :

يا خيل الله اركبى ، هبى ريح الجنة هبى .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

قوله تعالى : **﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾** :

اقتضت سنة الله فى كونه أن يظل الحق فى صراع مع الباطل ، من يوم هبط آدم إلى الأرض ، كما اقتضت سنته العادلة أنه جلت قدرته يدفع بعض الناس ببعض ، فليعلم أهل الحق أنهم مطالبون بدفع الباطل ، وتدمير قوى الشر ، لولا ذلك لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ، ولولا أن أتباع كل نبى قاوموا أهل الباطل والشرك لهدمت بيوت العبادة فى كل زمان ، صوامع الرهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود ، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيراً .

ويجب علينا أن نعلم أن دين الله واحد وهو الإسلام ، أما تلك التسمية من رهبان ونصارى ويهود ، فإنها ديانات من وضع البشر .

أما الإسلام فهو دين كل نبى ، وأتباعه الذين عزروه ونصروه ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾[١] .

أما من اتبع دينا ، وابتغ ملة غير الإسلام ، فهو كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[٢] .

وكما قال جل شأنه: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا من ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾[٣] .

وقال جل شأنه : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾[٤] .

وقال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نارجهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾[٥] .

---

( ١ ) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة آل عمران .
( ٢ ) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
( ٣ ) الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ من سورة النساء .
( ٤ ) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .
( ٥ ) الآية ٦ من سورة البينة .

ألا فلتعلم الأمة المسلمة : أن قوى الشر قد تكالبت وتشبثت بباطلها ، وعربدت فى عرصات الدنيا ، ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا أغفل أهل الحق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل .

فعلى أهل الحق أن يدفعوا أهل الباطل ، فلولا ذلك لفسدت الأرض ، تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

يقول الكاتب الإسلامى الكبير فتحى يكن :

إن الإسلام يخوض اليوم معركة مصير ، ومن حقه على أبنائه والسائرين فى دربه أن يذودوا عنه ، وينافحوا دونه بكل ما يملكون من إمكانيات فكرية ومادية ومعنوية ، ومعركة المصير هذه ينبغى أن تستنفر أهل الإيمان فى كل مكان ، لسد الثغرات ، وحماية الجبهات التى يمكن أن يتسلل منها إلى الإسلام خصومه وأعداؤه .

ومسؤولية العاملين فى الحقل الإسلامى فى هذه الفترة مسؤولية ضخمة ودقيقة ، وبقدر البذل يكون الجزاء ، وعلى قدر الجهد يأتى العطاء .

## الإسلام بين المبدأ والتطبيق

ليس من قبيل المبالغة القول بأن التحديات ( الفكرية والسياسية والغوغائية ) التى يتعرض لها الإسلام فى العصر الحديث ، تفوق ضخامة وشراسة كل التحديات التى واجهتها الحركات الأخرى مجتمعة ، ولو تعرض لمثل ما تعرض له الإسلام نظام آخر من الأنظمة الوضعية ، لعفى أثره وانطوى ذكره ، ولم يعد له فى واقع الحياة أدنى وجود .

ولكنه الإسلام المنهج الإلهى الخالد الذى كان يستعصى بخصائص البقاء على معاول الهدم ، ويخرج من كل صراع قويا منتصراً مؤكداً على الزمن أبديته ، التى جعلها الله إحدى صفاته المميزة حين قرر : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

اتُهم الإسلام بالرجعية ، واعتبر متهموه الدعوة إليه عودا بالبشرية إلى الوراء ، وتخلفاً عن ركب الحضارة والمدنية آلاف السنين .

جاء فى الموسوعة السوفياتية الكبيرة ، وفى الصفحة ( ٦١٥ - ٦١٩ ) من الجزء الثانى عشر : ( إن الإسلام لعب على الدوام كغيره من الأديان الأخرى دورا رجعيا ، وكان دائما أداة فى أيدى الطبقات الرجعية المستغلة لإرهاق الطبقات العاملة ، وأداة للاستعمار الأجنبى الرامى إلى استعباد شعوب الشرق ، إن السُّنة والقرآن كليهما يبرران النظام الطبقى والاستغلال . . . الخ ) .

ثم جاء من يعتبر الإسلام تجربة من التجارب التى مرت بالحياة العربية ليس إلا ، وأنه قد استنفذ أغراضه ، وليس لديه مقومات البقاء والنماء والعطاء .

---

( ١ ) الآية ٩ من سورة الحجر .

فقد جاء فى الصفحة ( ٥١ ) من كتاب ( فى سبيل البعث ) لميشيل عفلق ، قوله : ( فهذه الأمة التى أفصحت عن نفسها وعن شعورها بالحياة إفصاحا متعددا متنوعا فى تشريع حمورابى ، وشعر الجاهلية ، ودين محمد ، وثقافة المأمون ، فيها شعور واحد . . . الخ ) .

واتهم الإسلام بأنه نظرية ( تجريدية ) وفلسفة ( مثالية ) غير قابلة للتطبيق .

وهكذا ذهب أعداء الإسلام فى اتهاماتهم مذاهب شتى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾[١] .

**عوامل نشوء هذه الشبهات :**

لقد تسبب وساعد على نشوء مثل هذه الشبهات ، وقيام أمثال هذه الحملات المسعورة من التضليل والتشكيك فى وجه الإسلام عوامل كثيرة منها :

١ - غيبة الوجود ( الحركى ) للإسلام عن قيادة الأمة فترة طويلة من الزمن ، مما أدى إلى تطاول خصومه فى نجوة من وجود حكومة إسلامية تدافع دونه ، وترد عنه شائعات الحاقدين .

٢ - إصابة الأمة ( فكريا ونفسيا ) بلوثات مادية جانحة من تأثير الحضارة الغربية الغازية .

٣ - تسلل الفكر اليسارى ( الماركسى ) إلى المجتمع الإسلامى ، يسوق أمامه فيضا من التصورات والآراء والطعون ، بكل فكرة ( دينية ) على الإطلاق نتيجة لردة الفعل التى أحدثتها انحرافات الكنيسة الأوربية عن إطار المسيحية الروحى .

٤ - جهل المسلمين بحقيقة دينهم ، وخصائص إسلامهم ، وآفاق شريعتهم ، مما جعلهم لقمة سائغة للاتجاهات والمذاهب المادية التى غزت العالم الإسلامى فى مطلع القرن العشرين .

هذه الأسباب وغيرها عملت ( على الزمن ) على عزل الإسلام عن الصراع الحياتى الذى تخوضه الأمة ، وألبسته ثوبا كهنوتيا ليس منه ، وبالتالى أدت إلى نشوء أجيال من المسلمين لم تطلع على الإسلام إلا من زوايا مظلمة ، زادتها منه نفرة وانفلاتا ، حتى أصبح الإسلام بأفكاره وأخلاقه ومبادئه فى واد ، وأصبح المسلمون ( المنتسبون إليه ) فى واد آخر ، لا يمت إليه بصلة من الصلات على الإطلاق .

ولو أدرك المسلمون أن الإسلام :

صيحة الحرية فى وجه العبودية .

وصيحة المساواة فى وجه الطبقية .

وصيحة العدالة الاجتماعية فى وجه الإقطاع والرأسمالية .

لو أدرك المسلمون أن دينهم هذه خصائصه ومبادئه لما وجدت الاتجاهات الاشتراكية والشعوبية منفذا إلى بلاد الإسلام ، ولما أصبحت المجتمعات الإسلامية سوقا ( عامة ) لعرض المبادىء المستوردة ، والشعارات الكاذبة المزيفة .

---

( ١ ) الآية ٨ من سورة الصف .

وليسمع شباب الإسلام والمثقفون منهم بوجه أخص ما يقوله ( **اللورد استانلى** ) ، وكان نصرانيا فأسلم ، وكان يتحدث عن الأسباب والعوامل التى حدت به إلى اعتناق الإسلام .

**قال استانلى** : ( أو أغمط الفضل وأهله ، أو أجحد الله وعلمه ، أنا مسلم رأيت أثر الإسلام وقدرته فى نفسى حق قدره ، وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث واجتهاد ، فلا أقبل به بديلا . أنا مسلم أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصيحتها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه ) .

**خصائص المنهج الإسلامى :**

إن الإسلام يمتاز بخصائص ذاتية هى فواصل جذرية ، وفوارق أصيلة بينه وبين الاتجاهات والمذاهب الحديثة .

## الحاكمية لله

فالحاكمية فى المنهج الإسلامى لله ، لا لفرد ، ولا لحزب ، ولا لشعب .

فلا ديكتاتورية لفرد ، ولا تسلط لحزب ، ولا حاكمية لشعب فى تشريع الإسلام .

والحقيقة أن معظم المظالم الاجتماعية والاقتصادية ومظاهر الاستبداد السياسى منشؤها خضوع الحاكمية لتشريع زمنى وضعى ، ولسلطة بشرية .

فالنظام الديمقراطى يجعل الحاكمية للشعب ، ويجعله مصدر السلطات ، منه وإليه يعود كل أمر ، وبذلك يكرس التميع ( الفردى ) والانتفاخ ( الشخصى ) مما لا يتحقق معه هيبة فى الحكم ، أو أمن وسلام فى المجتمع .

إن شعور الفرد فى ظل النظام الديمقراطى بأنه مصدر القوانين والتشاريع ، ينمى فيه بواعث الاستهتار بالقوانين والتشاريع ، ويعطيه من أسباب السطوة ما يجعله قادراً بنفوذه الشخصى والمادى ، على تسخير السلطة لمصالحه ورغباته .

وبالتالى يمنحه حق التلاعب بالقوانين ، ووضعها بما يتلاءم مع أهوائه وأغراضه .

يقول ( مارتن دوج ) فى كتابه : ( اعرف مذهبك ) صفحة (١٨) فى معرض حديثه عن الديمقراطية : ( وفكرة الديمقراطية تتلخص فى أن يحكم الناس أنفسهم ، دون أن يكونوا رعايا ، ذلك أن الناس لهم المقام الأول والصدارة ، ثم تليهم فى المرتبة الثانية السلطة الحاكمة ، وفى ظل النظام الديمقراطى يحكم المجتمع نفسه من أجل نفسه ) .

أما النظام الشيوعى فإنه يكرس حاكمية ( الحزب الواحد ) للأمة بأسرها ، وبذلك يعطى الحزب نفسه حق سن القوانين ، واستصدار التشاريع ، بما يكفل له البقاء والسيطرة فى الحكم ، وهو بذلك نظام سياسى يقبض بمقتضاه ( الحزب ) على زمام السلطة فى بلد يخضع أفراده عموما لما يفرض عليهم ، وعلى شؤون حياتهم من إجراءات .

فالحزب الشيوعى فى ( روسيا ) مثلا هو الحزب السياسى الوحيد والحاكم ، ومع ذلك فإنه لا يمثل الشعب الروسى أصدق تمثيل ، إذ يبلغ عدد أعضائه ( ستة ) ملايين فقط من أصل (١٨٠) مليونا وهى كما نرى نسبة ضئيلة جدا .

وبهذا لا يمكن أن تكون حاكمية ( الحزب الواحد ) فى أى نظام من أنظمة الحكم مصدر استقرار وعدالة ومساواة ، طالما أن الذين فى أيديهم السلطة يخضعون كل شىء لمصالحهم الشخصية والحزبية .

وبين هذين الاتجاهين المتطرفين يقوم ( المنهج الإسلامى ) فوق قواعد تشريعية ، يخضع لها الحاكم والمحكوم على حد سواء ، وينصاع لها الكبير والصغير دونما تمايز أو تخصيص .

فالحاكمية فى النظام الإسلامى ليست لشعب ، كما هو الشأن فى النظام ( الديمقراطى ) ، كما أنها ليست الحزب كما هو الحال فى النظام ( الشيوعى ) وسائر الأنظمة ( الاشتراكية ) .

وهى كذلك ليست لفرد ، كما هو الأمر فى النظم ( الديكتاتورية ) .

وإنما هى ( لله ) خالق الكون ومالكه ، وهذا ما يقرره الدستور الإسلامى فى كثير من آياته : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾(١) .

﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ﴾(٢) .

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾(٣) .

والإسلام يحقق هذه الحاكمية الربانية عن طريق ( قانون إلهى ) يتضمن الأحكام التى جاء بها القرآن الكريم ، وفسرتها وفصلتها سنة رسول الله ﷺ .

فالإسلام منهج متفرد فى خصائصه ، لم تضع أحكامه ونظمه وتشريعاته أهواء حاكم ، أو مصلحة حزب ، وإنما وضعتها عدالة سماء ، فلا تمييز ولا محاباة ولا أنانية ، ولا تحكم ولا حزبية ولا سطوة ، وإنما الجميع أمام شرع الله سواء عدالة ، لا تعرف ظلما ولا عنتا ولا تفاضلا .

ومساواة تطبق على الجميع من غير محسوبيات أو استثناءات .

وهاكم بعض الشواهد من دستور الله الخالد : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾(٤) .

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾(٥) .

﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾(٦) .

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١٠ من سورة الشورى .
(٣) الآية ١٠٥ من سورة النساء .
(٤) الآية ٨ من سورة المائدة .
(٥) الآية ٤٩ من سورة المائدة .
(٦) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

وروى أن امرأة من بنى مخزوم سرقت ، فقالت قريش : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ أى ليضع عنها الحد ، فلم يجدوا إلا ( أسامة بن زيد ) حب رسول الله ﷺ ، يقوى على ذلك ، فلما كلم أسامة رسول الله بذلك . قال رسول الله غاضباً : ( أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ ) ثم قام وخطب الناس قائلا : ( أيها الناس : إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها )[1]

ومن وصايا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد بن أبى وقاص : ( إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء )[2] .

وفى وصية للخليفة من بعده يقول : ( اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله ) .

## الشمول لا الجزئية

من خصائص المنهج الإسلامى شموله وكليته ، فالإسلام ليس تصورا ( عقيديا ) فحسب ، ولا دينا ( عباديا روحيا ) وكفى ، ولا نظاما اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا مجردا .

ولكنه منهج حياة ، يجمع إلى رقة ( التوجيه ) دقة ( التشريع ) ، وإلى جلال ( العقيدة ) جمال ( العبادة ) وإلى إمامة ( المحراب ) ، قيادة ( الحرب ) .

إن المنهج الإسلامى لم يكن ردة فعل لسوء أوضاع اقتصادية ، ليكون نظاما اقتصاديا ، شأن الماركسية وسائر المذاهب الاشتراكية ، كما أنه ليس مدرسة روحانية شأن المسيحية .

إن الإسلام منهج متكامل الجوانب ، شامل النظرة ، فيه تنظيم علاقة الفرد بنفسه ، وعلاقته بأسرته ، وعلاقته بمجتمعه ، وعلاقة مجتمعه به ، وفيه بيان للأصول والقواعد التى تقوم عليها النظم والقوانين التى تحكم سير المجتمع والناس ، وفق نظرة الإسلام للكون ، والإنسان ، والحياة .

يقول ( جيبون ) : ( القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى ) ليس لأصول العقيدة فحسب ، بل وللأحكام الجنائية والمدنية ، وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الإنسانى ، وترتيب شؤونه ، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الإسلامى ، فهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية ) .

## الفطرية لا التطرف أو المثالية

ومن خصائص المنهج الإسلامى : أنه دين الفطرة ، اعترف للإنسان بحاجاته الروحية

(١) أخرجه البخاري فى فضائل أصحاب النبى : ١٨ ، وفى الأنبياء : ٥٤ ، وفى الحدود : ١٢ ، ومسلم فى الحدود : ٨ ، ٩ ، وأبو داود فى الحدود : ٤ ، والترمذى فى الحدود : ٦ ، والنسائى فى السارق : ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى الحدود : ٦ ، والدارمى فى الحدود : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٨٦ ، ٣٩٥ ، وفى ٥ : ٤٠٩ ، وفى ٦ : ٣٢٩ .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٣٦ .

والعضوية ، وقيّمه تقييما إنسانيا مراعيا فى ذلك نوازعه الفطرية كلها ، محققا التناسق والتوافق بينها جميعا .

فالإسلام لم ينظر إلى الإنسان نظرة ( مادية مجردة ) لا تتعدى هيكله الجسدى ، ومتطلباته الغريزية ، شأن الشيوعية وسائر المذاهب المادية ، فى الوقت الذى لم يحرمه حقوقه البدنية ، وحاجاته البشرية .

فلم يكن الإسلام ( أبيتوريا ) فى إطلاقه للغرائز والشهوات من غير تنظيم ولا تكييف ، كما لم يكن ( رواقيا ) فى فرض المثالية الخيالية ، وإعدام المتطلبات الغريزية فى الإنسان ، وفطرية الإسلام جسدت فى مبادئه ( النظرة الواقعية ) .

وأفردته بخصائص التوفيق والتنسيق بين المادة والروح ، وهذا ما ينطق به مدلول الآية الكريمة ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾[1] .

ويقول الشهيد ( سيد قطب ) فى تفسير هذه الآية : إنها العقيدة التى تعترف بالإنسان إنسانا لا حيوانا ولا ملكا ولا شيطانا ، تعترف به كما هو بكل ما فيه من ضعف ، وكل ما فيه من قوة ، وتأخذه وحدة مؤلفة من جسد ذى نوازع ، وعقل ذى تقدير ، وروح ذى أشواق ، وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق ، وتراعى فى التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات .

## الاطمئنان العقيدى لا القلق الوجودى

ومن خصائص المنهج الإسلامى أنه عرّف الإنسان على نفسه ، وسر خلقه ، وسبب وجوده ، فحل بذلك عقدة من أخطر العقد فى الحياة البشرية .

لم يترك الإسلام الإنسان فى الكون وحيداً بلا عماد ، حائرا من غير هدى ، يجابه مصيره بمفرده ، ويحدد طريقه وحده ، ويحكم نفسه بنفسه .

لقد أجاب الإسلام على كل الأسئلة التى طرحها ( الوجوديون ) قديما وحديثا ، والتى أرادوا من ورائها التفلت من كل القيود والحدود ، ليعيشوا أحراراً كما يزعمون ، وهم فى الحقيقة (عبيد ) ، وأكثر من عبيد .

فالإسلام لم يعتبر ( الوجود ) بلا غاية ، كما يزعم ( سارتر ) ولم يعتبره وجودا ( سخيفا ) فى عالم لامعقول ، ولم يعتبر أن الإنسان موجود فيه لا أكثر ولا أقل ، لا يعرف من أين أتى ؟ ولا إلى أين هو ذاهب ؟ .

كذلك لم يعتبر الإنسان مسيرا بدون إرادة ، تسوقه الطبيعة كالحيوان .

بل إن الإسلام جعل للإنسان عقلا يفكر به ويستفتيه ، وإرادة يتحرك بها كيفما شاء ، وأنى شاء .

وجعل لخلقه سببا ، ولوجوده هدفا ، وللحياة الإنسانية غاية ، خلق الإنسان ليبلوه فيما آتاه ،

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

ويختبره فيما أعطاه ، أيكفر أم يشكر : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾[١] .

وطالبه بتسخير نفسه وأعضائه ، ودفع غرائزه وميوله فى طريق الخير ، ضمانا لعمارة الأرض ، وتحقيقاً لرسالة الاستخلاف : ﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾[٢] وقوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾[٣] .

فالإنسان فى الإسلام صاحب رسالة ، يعمل على أدائها ، وله غاية يسعى للوصول إليها ، إنه يدرك أن حياته رحلة ينبغى أن يقطعها وفق الخط الإلهى الذى يضمن له السعادة فى الدنيا ، والنعيم الأبدى فى الآخرة .

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٤] .

**قوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ :**

هذا وعد أكيد لا يختلف ولا يتخلف ، بل إنك لتعجب وأنت تسمع أن الله يقسم ويؤكد الفعل ( ينصرن ) .

يقول النحاة والصرفيون : إن الفعل فى مثل هذه المواقع واجب التوكيد ، وذلك لاستيفائه الشروط ، فقد وقع جوابا للقسم متصلا مستقبلا موجبا غير منفى ، ونصر الله لعباده المؤمنين يشمل الدنيا و الآخرة : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾[٦] .

فالمؤمنون هم أهل النصر ، لأنهم هم الذين ينصرون الله بجهادهم فى سبيل إعلاء كلمته ، إنهم رفعوا راية الجهاد فى جميع الميادين ، جهاد الكلمة بالدعوة إلى الله:﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾[٧] .

وجهاد القدوة فإنهم ملتزمون لأمر الله ، مجتنبون نواهيه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[٨] .

إنهم العاملون المكافحون الثابتون ، إنهم المجاهدون لأنفسهم : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾[٩] .

---

( ١ ) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الإنسان .

( ٢ ) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الملك .

( ٣ ) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون .

( ٤ ) الآية ٩٧ من سورة النحل .

( ٥ ) الآية ٥١ من سورة غافر .

( ٦ ) الآية ٤٧ من سورة الروم .

( ٧ ) الآية ٣٣ من سورة فصلت .

( ٨ ) الآية ٨٨ من سورة هود .

( ٩ ) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

إنهم المجاهدون بالسيف للقضاء على السيف ، إنهم المجاهدون بسيف التوحيد والعدل لتحطيم سيف الشرك والظلم :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
فالخير إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

صدقت ربنا وتباركت وتعاليت ، أنت القائل : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[١] .

من هؤلاء المستحقون لنصر الله :

إنهم الذين قال الله فيهم :

**﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾** .

هذا هو عقد الصلح مع الله شروطه : إقام الصلاة ، إيتاء الزكاة ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، والتصديق عليه : **﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾** .

إن الله تبارك وتعالى ختم الآية السابقة بقوله : **﴿ إن الله لقوى عزيز ﴾** .

فهو القوى الذى لا يغلب ، والعزيز الذى لا يقهر ولا يذل ، فمن غيره ينصرنا ، إن نصره لا خذلان فيه ، وإن خذلانه لا نصر بعده .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[٢] .

وآية التمكين ختمت بقوله تعالى : **﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾** .

فخبرنى بربك إلى من تصير الأمور ، قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٣] .

فإذا كانت القوة لله ، والعزة لله ، وصيرورة الأمور إلى الله ، وعاقبتها إلى الله إذا كان ذلك كذلك وهو كذلك ، فلماذا الخوف والحرص على الدنيا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .
(٣) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾[٢] .

هؤلاء أقوام سبعة من الأنبياء : قوم نوح وقد أخذهم الله بالطوفان ، وقوم هود وهم عاد وقد أهلكهم الله عندما قالوا له ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٣] وكذلك ثمود قوم صالح ، عندما قالوا له : ﴿ إنما أنت من المسحّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٤] .

كذلك قوم إبراهيم عندما قالوا :﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾[٥] .

لقد حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، فأصدرت محكمة السماء حكمها لإبراهيم بالإفراج فوراً : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾[٦] .

وفى سورة الصافات : ﴿ فأردوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾[٧] .

كذلك قوم لوط عندما أتوا الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾[٨] .

وقد بين الله نوع هذا العذاب فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسوَّمة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[٩] .

كذلك أصحاب مدين الذين كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فلم يمتثلوا أمر الله ، ولم يجتنبوا نهيه ، فأهلكهم الله بعد ما قالوا لنبى الله شعيب ﴿ إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربى أعلم بما تعملون * فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[١٠] .

كذلك كذب موسى : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان

---

(١) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة التوبة .
(٢) الآيات ٤٢ - ٤٤ من سورة الحج .
(٣) الآيات ١٣٦ - ١٤٠ من سورة الشعراء .
(٤) الآيات ١٥٣ - ١٥٩ من سورة الشعراء .
(٥) الآية ٦٨ من سورة الأنبياء .
(٦) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية ٩٨ من سورة الصافات .
(٨) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة القمر .
(٩) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود .
(١٠) الآيات ١٨٥ - ١٩١ من سورة الشعراء .

على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ فأمليت للكافرين ثم أخذتهم ﴾ :

الإملاء هو الإمهال ، والأخذ هو الإهلاك ، إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] .

وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٣] .

ما أهون هؤلاء على الله : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ :

الفاء تفريعية على ما سبق ، وكيف اسم استفهام يراد به التعجب ، وهو خبر كان ، ونكير اسمها مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة ، والتقدير كان نكيرى عليهم ، وإنكارى لما أتوه ، كان عجيبا وشديدا ، وفى هذه الآيات التى قصت علينا تكذيب الأمم للأنبياء تصبير وتثبيت للصادق المعصوم ﷺ : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾[٥] .

وقال سبحانه : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٦] .

وقال جل شأنه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾[٧] .

---

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة القصص .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٣) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٤) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة العنكبوت .
(٥) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام .
(٦) الآيات ١٢٠ - ١٢٣ من سورة هود .
(٧) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

قوله تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ .

هذا إخبار منه تعالى عن قرى كثيرة أهلكها لظلم أهلها ، فقد عبدوا غير الله وأشركوا به ، ولم يفردوه بالعبادة ، فجاءهم بأس الله فصارت تلك القرى خاوية على عروشها ، أى: سقطت حيطانها على سقوفها ، فكم من بئر عطلت بعد هلاك وارديها وصادريها ، وكم قصر كان مشيداً بالصخر وطيد البنيان خرّ على أهله : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون * وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون * أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

أقعد هؤلاء الجاحدون الظالمون فلم يسيروا فى الأرض ، ألم يمشوا فى مناكبها ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، فلم ينظروا إلى من كان قبلهم من الأمم الظالمة كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ﴾[2] .

وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾[3] وكما فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾[4] .

ألم يعقل هؤلاء ما حدث لمن كان قبلهم ؟ ألم يسمع هؤلاء بآذانهم ما جرى للطغاة والجبابرة الظالمين ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾[5] .

﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾[6] .

ألم يعقل هؤلاء ؟ ألم يسمعوا ألم يبصروا ؟ إن لهم عيوناً وحدقات ولكنها عميت عن رؤية الحق ، فجحدته وأنكرت ضوء الشمس وهى ساطعة ، تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، لكن العمى عمى القلوب ، لذا قال سبحانه : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

وغير خاف أن القلوب فى الصدور لكن ربك جلت حكمته لما نفى عنهم عمى الأبصار التى من

---

(١) الآيات ٥٨ - ٦١ من سورة القصص .
(٢) الآية ١١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٦ من سورة السجدة .
(٤) الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات .
(٥) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة يونس .
(٦) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

شأنها أن تبصر ، أثبت أن العمى عمى القلوب ، وأكد ذلك بأنها فى الصدور كما فى قوله جل شأنه ﴿ يقولون بأفواههم ﴾[١] وقوله : ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾[٢] .

نعم ليس العمى عمى الأبصار ، إنما العمى عمى القلب ، قال ابن عباس رضى الله عنه لما كف بصره :

إن أذهب الله من عينىَّ نورهما ففى فؤادى وعقلى منهما نور
عقلى ذكى وقلبى ما حوى دخلاً وفى فمى صارم كالسيف مشهور

وقال آخر :

يعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعيب أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والوفا فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير

إن هؤلاء الظالمين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٣] .

فهؤلاء قد عطلت مداركهم وحواسهم ، فالقلوب لا تفقه لما بها من عمى ، والعيون لا تبصر بصر إدراك وتدبر ، والآذان لا تسمع سماع تعقل وتفكر : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ :

إنهم يطلبون تعجيل العذاب طلب استهزاء بوعد الله ، لذلك أكد الله وعده ، فقال : ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ .

ومن هذا الاستهزاء قوله : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾[٥] قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾[٦] .

---

(١) الآية ١٦٧ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٧ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآيتان ٦ - ١١ من سورة الملك .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الملك .
(٦) الآية ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .

لقد بلغ من جرأتهم وتكذيبهم أنهم قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[١] .

فقال لهم مولانا تبارك اسمه: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾[٢] وقال : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلاً * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً * يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾[٣] .

لقد اقتضت سنة الله تعالى أن يحدد للعذاب يوماً معلوماً ، وأجلاً محدوداً .

**﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾[٤] .**

فلا تستعجلوا أيها المكذبون : إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ، وإنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ، وليس سنن الله على حسب ما تريدون ، فإن يوماً عنده كألف سنة مما تعدون ، إن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وخلق الإنسان عجولاً .

كما قال تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾[٥] .

وقال جل شأنه : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾[٦] .

وسبحان القائل : ﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾[٧] .

إن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾[٨] .

ثم أكد الله لهم صدق وعده ، وأن العذاب واقع لا محالة بالمكذبين ، فقال : **﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾** :

أى كم من قرية أمهلتها ثم أهلكتها وهى ظالمة والمصير إلىّ ، والمرجع إلىّ: ﴿ إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾[٩] .

فاعجب معى كيف كان الظلم مدمراً للأمم: ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[١٠] .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ٣٤ من سورة الأنفال .
(٣) الآيات ١ ـ ١٨ من سورة المعارج .
(٤) الآية ١٢٩ من سورة طه .
(٥) الآية ١١ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ١١ من سورة يونس .
(٧) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء .
(٨) الآيات ١٠٢ ـ ١٠٤ من سورة هود .
(٩) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .
(١٠) الآية ١١٧ من سورة هود .

قال تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ﴾ .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والظلم عاقبته وخيمة ، فقد يكون ظلماً فى العقيدة كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾(١) .

يحدثنا الإمام أبو العباس أحمد بن على بن حجر المكى الهيثمى : يحدثنا فى كتابه الزواجر عن الشرك فيقول :

وقدمت الكلام عن تلك الكبيرة ، لأنها ومرتكبها أذل العصاة وأحقر .

قال بعض الأئمة : كبائر القلوب أعظم من كبائر الجوارح ، لأنها كلها توجب الفسق والظلم ، وتزيد كبائر القلوب ، بأنها تأكل الحسنات ، وتوالى شدائد العقوبات .

ثم يسوق نصوصاً يتحدث عن الشرك الأكبر فيقول : قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾(٤) .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ( ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت )(٥) .

وفى الحديث الصحيح : ( اجتنبوا السبع الموبقات )(٦) .

وذكر منها الإشراك بالله ، وروى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى : ( الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس ) الحديث . وأحمد والشيخان والترمذى والنسائى : ( الكبائر الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور ) .

وكونه أكبرهن إنما هو فيما لم يرد فيه ما يدل على أنه أكبر منها كالشرك ، والقتل ، والزنا .

وأبو داود والنسائى : ( الكبائر تسع وأعظمهن إشراك بالله ) الحديث . والطبرانى : ( اجتنبوا الكبائر السبع : الشرك بالله )(٧) الحديث .

---

( ١ ) الآية ١٣ من سورة لقمان .

( ٢ ) الآية ٤٨ من سورة النساء .

( ٣ ) الآية ١٣ من سورة لقمان .

( ٤ ) الآية ٧٢ من سورة المائدة .

( ٥ ) أخرجه البخارى فى الشهادات : ١٠ ، وفى الأدب : ٦ ، وفى الاستئذان : ٣٥ . ومسلم فى الإيمان : ١٤٣ ، ١٤٤ ، والترمذى فى الشهادات : ٣ ، وفى البر : ٤ ، وفى تفسير سورة ٤ : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٣١ ، وفى ٥ : ٣٦ ، ٣٨ .

( ٦ ) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٢٣ ، وفى الحدود ، وفى الطب : ٤٨ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود فى الوصايا .

( ٧ ) أخرجه النسائى فى الزكاة : ١ ، وفى التحريم : ٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٤١٣ .

وأحمد والترمذى وابن حبان والحاكم : ( إن من أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس ، ما حلف حالف بالله يمين حبر فأدخل فيها جناح بعوضة إلا جعلت نكتةفى قلبه إلى يوم القيامة )[١] .

والطبرانى والحاكم والبيهقى : ( ألا إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلوات الخمس التى كتبهن الله على عباده ، ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه ، يرى أنه عليه حق ، ويؤتى زكاة ماله طيبة بها لنفسه أيحتسبها ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها ؟ قيل : يا رسول الله كم الكبائر ؟ قال : هى تسع أعظمهن الإشراك بالله وقتل المؤمن بغير حق والفرار من الزحف وقذف المحصنة والسحر وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين المسلمين واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً ولا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا رافق محمد ﷺ فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب ) .

وقال ﷺ : ( اذهب يا ابن الخطاب ) وفى رواية ( قم يا عمر فناد فى الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون )[٢] . رواه أحمد ومسلم والترمذى . وقال حديث حسن صحيح .

وقال ﷺ : ( يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد : إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن ) . وقال ﷺ : ( يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن . . )[٣] رواه البخارى .

وقال ﷺ : ( لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة )[٤] . رواه أحمد ومسلم .

وأبو داود وابن ماجه : ( إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة . . )[٥] رواه أحمد والشيخان .

( من بدل دينه فاقتلوه )[٦] رواه أحمد والبخارى . والأربعة ( من ارتد عن دينه فاقتلوه )[٧] .

والطبرانى ( أسلم وإن كنت كارهاً ) . والبخارى وأبو يعلى والضياء : ( آمركم بثلاث ، وأنهاكم

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب : ٦ ، وفى الإيمان : ١٦ ، وفى الديات : ٢ ، وفى الاستتابة : ١ ، والترمذى فى تفسير سورة ٤ : ٦ ، ٧ ، والنسائى فى التحريم : ٣ ، وفى القسامة : ٤٨ ، والدارمى فى الديات : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٠١ ، ٢١٤ ، وفى ٣ : ٤٩٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٨٢ ، والدارمى فى السير : ٤٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣ ، ٤٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى القدر : ٥ ، ومسلم فى الصيام : ١٤٣ ، والترمذى فى تفسير سورة ٩ : ٦ ، ٧ ، والنسائى فى الإيمان : ٧ ، والدارمى فى الصوم : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٩٩ ، وفى ٣ : ٣٤٩ ، ٤١٥ ، وفى ٤ : ٣٣٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٨٢ ، وفى الرقاق : ٤٥ ، ومسلم فى الإيمان : ١٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، والترمذى فى الجنة : ٣ ، وابن ماجه فى الصيام : ٣٥ ، وفى الزهد : ٣٤ ، والدارمى فى السير : ٦٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣ ، وفى ٣ : ٤١٥ ، وفى ٥ : ٤٣٨ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٤٩ ، وفى الاعتصام : ٢٨ ، وفى الاستتابة : ٢ ، وأبو داود فى الحدود : ١ ، والترمذى فى الحدود : ٢٥ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ ، وابن ماجه فى الحدود : ٢ ، والإمام أحمد ١ : ٢ ، ٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣ ، وفى ٥ : ٢٣١ .

(٦) أخرجه ابن ماجه فى الحدود : ١ ، والترمذى فى الفتن : ١ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٦٣ .

(٧) أخرجه الترمذى فى الفتن : ١ ، وابن ماجه فى الحدود : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٦٣ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ .

عن ثلاث : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وتطيعوا لمن ولاه الله أمركم . وأنهاكم عن ثلاث : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال )[١] .

ورواه أبو نعيم : ( أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه إليه ، فإن تاب فاقبل منه وإن لم يتب فاضرب عنقه ، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن تابت فاقبل منها وأن أبت فأصبها ) . رواه الطبرانى .

وظاهره أن المرأة المرتدة لا تقتل ، والأصح عندنا خلافه ، لعموم الخبرالصحيح ( من بدل دينه فاقتلوه ) .

وروى البيهقى:( من بدل دينه أو رجع عن دينه فاقتلوه ، ولا تعذبوا عباد الله بعذاب الله ) يعنى النار .

والطبرانى : ( من بدل دينه فاقتلوه ولا يقبل الله توبة عبد كفر بعد إسلامه ) ، أى ما دام مصراً على كفره .

وابن حبان : ( من رجع عن دينه فاقتلوه ، ولا تعذبوا بعذاب الله أحدا ) ، يعنى النار .

والشافعى والبيهقى : ( من غير دينه فاضربوا عنقه ) .

والطبرانى : ( من خالف دينه دين المسلمين فاضربوا عنقه ، وإذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فلا سبيل إليه إلا أن يأتى شيئاً فيقام عليه حده ) .

ومن الظلم الذى جاء بمعنى الشرك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[٢] .

فقد فسر الظلم هنا بالشرك الذى جاء فى قوله جل شأنه:﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[٣] .

## الظلم الاجتماعى

ومن الظلم الذى يهلك الله به الأمم : الظلم الاجتماعى ، كظلم الراعى للرعية ، وظلم الأقوياء للضعفاء ، والأغنياء للفقراء .

جاء فى جور الإمام أو الأمير أو القاضى وغشه لرعيته واحتجابه عن قضاء حوائجهم المهمة المضطرين إليها بنفسه أو نائبه :

روى البزار بإسناد جيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً ، أو قتله نبى ، وإمام ضلالة ) .

وفى رواية للطبرانى : ( وإمام جائر ) .

---

( ١ ) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٥٣ ، ومسلم فى الأقضية : ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، والإمام مالك فى الكلام : ٢٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٧ ، ٣٦٠ .

( ٢ ) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .

( ٣ ) الآية ١٣ من سورة لقمان .

وروى النسائى وابن حبان فى صحيحه : ( أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزانى ، والإمام الجائر )[١] .

وروى مسلم بنحوه إلا أنه قال : ( وملك كذاب ، وعائل مستكبر )[٢] .

وروى الطبرانى فى الأوسط :( ثلاثة لا يقبل الله منهم شهادة أن لا إله إلا الله ـ فذكر منهم الإمام الجائر ) .

وروى ابن ماجه والبزار واللفظ له : ( السلطان ظل الله تعالى فى الأرض ، يأوى إليه كل مظلوم عباده ، فإن عدل كان له الأجر ، وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أوحاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر ، وإذا جارت الولاة قحطت السماء ، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشى ، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة ، وإذا أخضرت الذمة أديل الكفار ـ أو كلمة نحوها )[٣] .

وروى البيهقى واللفظ له والحاكم بنحوه وقال صحيح على شرط مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ( كنا عند رسول الله ﷺ فقال : كيف أنتم إذا وقع فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم ، أو تدركوهم ؟ ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله ﷺ إلا جعل الله بأسهم بينهم ) .

وروى أحمد بإسناد جيد واللفظ له ، وأبو يعلى ، والطبرانى عن بكير بن وهب ، قال : ( قال لى أنس : أحدثك حديثا ما أحدثه كل أحد : إن رسول الله ﷺ قام على باب البيت ونحن فيه ، فقال : الأئمة من قريش ، إن لى عليكم حقاً وإن لهم عليكم حقاً مثل ذلك ، ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا أوفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين )[٤] .

وروى الطبرانى عن معاوية رضى الله عنه وعن ابن مسعود قالا : قال رسول الله ﷺ : ( لا يقدس الله أمة لا يقضى فيها بالحق ويأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع ) .

وروى الأصبهانى : ( يا أبا هريرة عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها . ويا أبا هريرة : جور ساعة فى حكم أشد وأعظم عند الله عز وجل من معاصى ستين سنة ) .

وفى رواية للطبرانى بإسناد حسن بلفظ : ( يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحاً ) .

وفى روايه : ( أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلساً : إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر ) .

(١) أخرجه النسائى فى الزكاة : ٧٧ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١٧٦ .
(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٧٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٨٠ .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٩١ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٢٩ ، ١٨٣ ، وفى ٤ : ٤٢١ .

وروى الطبراني : ( أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة : إمام عادل رفيق ، وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق ) .

وروى الترمذي : ( إن الله مع القاضي ما لم يجر فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان )[١] .

وفي رواية الحاكم : ( فإذا جار تبرأ الله منه ) .

وروى ابن ماجه واللفظ له : ( يؤتى بالقاضي يوم القيامة فيوقف للحساب على شفير جهنم ، فإن أمر به دفع فهوى فيها سبعين خريفاً )[٢] .

وروى ابن أبي الدنيا وغيره عن أبي هريرة : أن بشر بن عاصم حدث عمر رضى الله عنهم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( لا يلي أحد من أمر الناس شيئاً إلا وقفه الله تعالى على جسر جهنم ، فيزلزل به الجسر زلزلة ، فناج أو غير ناج ، فلا يبقى منه عظم إلا فارق صاحبه ، فإن هو لم ينج ذهب به في جب مظلم كالقبر في جهنم يبلغ قعره سبعين خريفاً ، وإن عمر سأل سلمان وأبا ذر : هل سمعتما ذلك من رسول الله ﷺ ؟ قالا : نعم ) .

وروى الطبراني : ( من ولي أمة من أمتي قلت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبه الله تعالى على وجهه في النار ) .

وروى الطبراني بسند حسن وأبو يعلى والحاكم وصححه : ( إن في جهنم وادياً ، وفي الوادي بئر يقال له هبهب ، حقاً على الله أن يسكنه كل جبار عنيد ) .

وروى أحمد بسند جيد ورجاله رجال الصحيح : ( ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل )[٣] .

وفي رواية صحيحة له أيضاً : ( ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه من ذلك الغل إلا العدل ) .

وفي رواية أخرى صحيحة : ( ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكه العدل أو يوثقه الجور )[٤] .

وفي رواية للطبراني : ( وإن كان مسيئاً زيد غلا إلى غله ) .

وروى الطبراني بسند صحيح : ( ما من رجل ولي عشرة إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه ، حتى يقضي بينه وبينهم ) .

وروى ابن حبان : ( ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه ، فكه عدله ، أو غله جوره ) .

وروى عن ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما : ( عرض عليّ أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله فيه ، وفقير فخور ) .

---

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام : ٤ ، وابن ماجه في الأحكام : ٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ٤٣٠ ، وفي ٢ : ١٩٧ ، والترمذي في الزهد : ٤٦ ، وابن ماجه في الأحكام : ٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ١٢ : ٤٣١ ، وفي ٥ : ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٤٣١ ، وفي ٥ : ٢٨٥ ، ٣٢٨ .

وروى البزار والطبرانى بسند رواته ثقات إلا واحدا اختلف فى توثيقه ، واحتج به الترمذى ، وأخرج له ابن خزيمة فى صحيحه : ( إنى أخاف على أمتى من أعمال ثلاث ، قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : زلة عالم ، وحكم جائر ، وهوى متبع ) .

وروى مسلم : ( اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به )[١] .

وروى أبو عوانة فى صحيحه وقال فيه : ( ومن ولى منهم شيئاً فشق عليهم فعليه سهلة الله ، قالوا : يا رسول الله وما سهلة الله ؟ قال : لعنة الله ) .

وروى الطبرانى : ( وما من أمتى أحد ولى من أمر الناس شيئا لم يحفظهم لما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة ) .

وروى الشيخان : ( ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة ) وفى رواية لهما : ( فلم يحطها بنصحه لم يرح رائحة الجنة )[٢] .

وروى مسلم : ( ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة )[٣] .

ورواه الطبرانى وزاد : ( كنصحه وجهده لنفسه ) .

وروى الطبرانى بسند رواته ثقات إلا واحداً اختلف فيه :

( من ولى من أمر المسلمين شيئا فغشهم فهو فى النار ) .

وروى الطبرانى بإسناد حسن : ( ما من إمام ولا وال بات ليلة سوداء لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة ) .

وفى رواية له : ( ما من إمام يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة وعرفها يوجد يوم القيامة من مسيرة سبعين عاماً ) .

وروى الطبرانى بسند رجاله رجال الصحيح إلا واحدا اختلف فيه : ( من ولى شيئا من أمر المسلمين لم ينظر الله فى حاجته حتى ينظر فى حوائجهم ) .

وروى أبو داود عن عمرو بن مرة الجهنى أنه قال لمعاوية رضى الله عنهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة فجعل معاوية رجلاً على حوائج المسلمين )[٤] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٦٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجزية : ٥ ، وفى الديات : ٣٠ ، وفى الأحكام : ٨ ، وأبو داود فى الترجل : ٢٠ ، والترمذى فى الطلاق : ١١ ، وفى الديات : ١١ ، والنسائى فى الزينة : ١٥ ، وابن ماجه فى الصدور : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٧٣ ، وفى ٢ : ١٧١ ، ١٨٦ ، ١٩٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة : ٢٢ .

(٤) أخرجه أبو داود فى الإمارة : ١٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٣٩ .

وروى الحاكم بنحو ذلك وصححه ، والترمذى بلفظ : ( ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله تعالى أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته )[١] .

وروى أحمد بسند جيد : ( من ولى من أمر المسلمين شيئاً فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة )[٢] .

وروى عن أبى الشماخ الأزدى عن ابن عم له من أصحاب النبى ﷺ أنه أتى معاوية فدخل عليه فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من ولى من أمر الناس شيئاً ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذى الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما يكون لها ) .

وروى الطبرانى بسند رواته ثقات إلا شيخه خيرون قال الحافظ المنذرى : لم أقف فيه على جرح ولا تعديل ، عن أبى جحيفة : أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ضرب على الناس بعثاً فخرجوا فرجع أبو الدحداح فقال له معاوية : ألم تكن خرجت ؟ قال بلى ، ولكن سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً أحببت أن أضعه عندك مخافة أن لا تلقانى ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( يأيها الناس من ولى عليكم عملاً فحجب بابه عن ذى حاجة أو قال دون حاجة لمسلمين حجبه الله أن يلج باب الجنة ومن كانت همته الدنيا حرم الله عليه جوارى فإنى بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها ) .

* **ومن أنواع الظلم :**

وجاء فى ظلم السلاطين والأمراء والقضاة وغيرهم مسلماً أو ذمياً بنحو أكل مال ، أو ضرب ، أو شتم ، أو غير ذلك ، وخذلان المظلوم مع القدرة على نصرته ، والدخول على الظلمة مع الرضا بظلمتهم ، وإعانتهم على الظلم ، والسعاية إليهم بباطل :

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾[٥] .

والركون إلى الشىء السكون والميل إليه بالمحبة ، ومن ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية : ( لا تميلوا إليهم كل الميل فى المحبة ولين الكلام والمودة ) .

وقال السدى وابن زيد : لا تداهنوهم .

وقال عكرمة : لا تطيعوهم وتودوهم .

وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم .

---

( ١ ) أخرجه الترمذى فى الأحكام : ٦ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٣١ .
( ٢ ) أخرجه أبو داود فى الإمارة : ١٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٣٩ .
( ٣ ) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .
( ٤ ) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .
( ٥ ) الآية ١١٣ من سورة هود .

والظاهر أن ذلك كله مراد من الآية .

وقال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾[١] ، أى: أشباههم وأتباعهم .

أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( الظلم ظلمات يوم القيامة )[٢] .

وروى مسلم وغيره : ( اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم )[٣] .

وروى مسلم وغيره عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : ( يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا )[٤] . الحديث .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم : ( إياكم والظلم فإن الظلم هو الظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفاحش المتفحش وإياكم والشح فإن الشح دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ) .

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط وله شواهد كثيرة : ( إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح حتى سفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم ) .

وروى الطبرانى : ( لا تظالموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستقوا فلا تسقوا ، وتستنصروا فلا تنصروا ) .

وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات : (صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلوم غشوم ، وكل غالٍ مارق ) .

وروى أحمد بسند حسن أنه ﷺ كان يقول : ( المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، ويقول : والذى نفسى بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما )[٥] .

وروى الشيخان غيرهما : ( إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته[٦] ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٧] .

وروى أبو يعلى واللفظ له بسند فيه مختلف فى توثيقه ، وقد أخرج له ابنا خزيمة وحبان فى صحيحهما أحاديث عامتها مستقيمة ، وأحمد والطبرانى بسند حسن نحوه باختصار : ( الشيطان قد يئس

---

( ١ ) الآية ٢٢ من سورة الصافات .

( ٢ ) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ ، ٥٧ ، والدارمى فى السير : ٧٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

( ٣ ) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ ، ٥٧ .

( ٤ ) أخرجه مسلم فى البر : ٥٥ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١٦٠ .

( ٥ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ .

( ٦ ) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ ، ومسلم فى البر : ٦٢ ، وابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .

( ٧ ) الآية ١٠٢ من سورة هود .

أن تعبد الأصنام فى أرض العرب ، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقرات : وهى الموبقات يوم القيامة ، اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجىء يوم القيامة بالحسنات يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقوم يقول : يارب ظلمنى عبدك مظلمة ، فيقول : امحوا من حسناته ، فما يزال كذلك حتى ما يبقى به حسنة من الذنوب - أى من أجلها - وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ، فتفرق القوم ليحتطبوا ، فلم يلبثوا أن احتطبوا ، فأعظموا النار وطبخوا ما أرادوا ، وكذلك الذنوب ) .

وروى البخارى : ( من كانت له عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شىء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه )[١] .

وروى مسلم وغيره : ( أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار )[٢] .

وروى الشيخان وغيرهما أنه ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : ( اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب )[٣] .

وروى أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابنا خزيمة وحبان فى صحيحهما : ( ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين )[٤] .

وروى البزار : ( ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع ) .

وروى الترمذى وحسنه : ( ثلاث دعوات لا شك فى إجابتهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على الولد )[٥] .

وروى الحاكم وقال : رواته متفق على الاحتجاج بهم إلا عاصم بن كليب ، فاحتج به مسلم وحده : ( اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة ) .

وروى الطبرانى بسند صحيح : ( ثلاث تستجاب دعوتهم : الوالد ، والمسافر ، والمظلوم ) .

---

( ١ ) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٠ ، وفى الرقاق : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٣٥ ، ٥٠٦ .

( ٢ ) أخرجه مسلم فى البر : ٦٠ ، والترمذى فى القيامة : ٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٤ ، ٣٧٢ .

( ٣ ) أخرجه الترمذى فى الجنة : ٢ ، وابن ماجه فى الصيام : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٥ ، ٤٤٥ .

( ٤ ) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ ، وفى الجهاد : ١٨ ، وفى المظالم : ٩ ، وفى المغازى : ٦٠ ، ومسلم فى الإيمان : ٢٩ ، وأبو داود فى الزكاة : ٥ ، والترمذى فى الزكاة : ٦ ، وفى البر : ٦٨ ، والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ ، وابن ماجه فى الزكاة : ١ ، والدارمى فى الزكاة : ١ ، والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٢ : ٣٤٣ ، وفي ٣ : ١٥٣ .

( ٥ ) أخرجه الترمذى فى البر : ٧ ، وفى الدعوات : ٤٧ ، وأبو داود فى الوتر : ٢٩ ، وابن ماجه فى الدعاء : ١١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٨ ، ٣٤٧ ، ٤٣٤ ، ٤٨٧ ، ٥١٧ ، ٥٢٣ .

وروى أحمد بسند حسن : ( دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه )[١] .

وروى الطبرانى بسند له شواهد كثيرة : ( دعوتان ليس بينهما وبين الله حجاب : دعوة المظلوم ، ودعوة المرء لأخيه بظهر الغيب ) .

وروى الطبرانى بسند لا بأس به فى المتابعات ( اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين ) .

وروى أحمد بسند رجاله محتج بهم إلا واحدا ، قال المنذرى : لم أقف فيه على جرح ولا تعديل : ( دعوة المظلوم ولو كان كافرا ليس دونها حجاب )[٢] .

وروى الطبرانى فى الصغير والأوسط : ( يقول الله : اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيرى ) .

وروى مسلم : ( المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، ويشير إلى صدره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله )[٣] .

وروى ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال : ( قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم عليه السلام ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها وإن كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله ، وساعة يخلو فيها لخاصته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون طاغياً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف هو ، أو ثم يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثم اطمأن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل . قلت : يا رسول الله أوصنى . قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله أوصنى . قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله زدنى : قال : عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله تعالى ، فإنه نور لك فى الأرض ، وذكر لك فى السماء . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : إياك

---

( ١ ) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٨٠ ، وابن ماجه فى الدعاء : ١١ ، والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٨ ، ٣٦٧ .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٨٢ ، ٨٣ .

( ٣ ) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ .

وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية أمتى قلت : يا رسول الله زدنى . قال : أحب المساكين وجالسهم . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك ، فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عليك . قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : قل الحق وإن كان مراً . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : ليردك عن الناس ما تعلمته عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك ، وتجد عليهم فيما تأتى ، ثم ضرب بيده على صدره وقال : يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف ، ولا حب كحسن الخلق ) .

وروى أبو داود : ( ما من مسلم يخذل أمرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه عرضه ، إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء مسلم ينصر أمرأ مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته ، إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته )(١) .

وروى أبو الشيخ وابن حبان : ( أمر بعبد من عباد الله تعالى يضرب فى قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأل الله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة ، فامتلأ قبره عليه ناراً ، فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلدتمونى ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره ) .

وروى أبو الشيخ أيضا ، قال الله عز وجل : [ وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره ولم يفعل ] .

وروى البخارى : ( أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره )(٢) .

وروى مسلم : ( ولينصرن الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصرة ، فإن كان مظلوماً فلينصره )(٣) .

وروى أبو داود : ( من حمى مؤمناً من منافق ، أراه قال : بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم )(٤) .

وروى أحمد بإسنادين أحدهما صحيح : ( من بدا جفا ، ومن تبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً )(٥) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى المظالم : ٤ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٩٩ ، ٢٠١ .

(٣) أخرجه مسلم فى اللباس : ٢ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٤١ ، وأبو داود فى الأدب : ٣٦ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٧١ ، ٤٤٠ ، وفى ٤ : ٢٩٧ .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه ، والنسائى : ( من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن )[١] .

وروى أحمد واللفظ له ، والبزار ، ورواتهما محتج بهما فى الصحيح ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن عجرة : ( أعاذك الله من إمارة السفهاء . قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدى لا يهتدون بهديى ، ولا يستنون بسنتى ، فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ، ولست منهم ، ولا يردون على حوضى ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى ، يا كعب بن عجرة : الصيام جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، والصدقة قربان ـ أو قال برهان ـ يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، أو بائع نفسه فموبقها )[٢] .

وروى ابن حبان فى صحيحه : ( ستكون أمراء ، من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم فليس منى ولست منه ، ولن يرد علىّ الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعينهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض ) .

وروى الترمذى ، والنسائى من حديث كعب بن عجرة : ( أعيذك يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدى ، فمن غشى أبوابهم فمصدقهم فى كذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ، ولا يرد على الحوض ، ومن غشى أبوابهم أو لم يغش فلم يصدقهم فى كذبهم ، ولم يعينهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض )[٣] .

وفى رواية له أيضاً عن كعب بن عجرة قال : ( خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن تسعة خمسة وأربعة . أحد العددية من العرب ، والآخر من العجم . فقال : اسمعوا . هل سمعتم أنه سيكون بعدى أمراء ؟ فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه ، وهو وارد على الحوض ) .

وروى النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : ( خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى المسجد بعد صلاة العشاء ، فرفع بصره إلى السماء ، ثم خفض حتى ظننا أنه حدث فى السماء أمر ، فقال : ألا إنه ستكون بعدى أمراء يظلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم ، ومالأهم على ظلمهم ، فليس منى ولا أنا منه ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يمالئهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه )[٤] .

وروى الطبرانى وابن حبان فى صحيحه ـ واللفظ له ـ عن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنه

---

(١) أخرجه والترمذى فى الفتن : ٦٩ .

(٢) أخرجه مسلم فى الطهارة : ١ ، والترمذى فى الدعوات : ٨٥ ، وابن ماجه فى الطهارة : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢١ ، ٣٩٩ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٤٩ ، والنسائى فى البيعة : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٥ ، وفى ٥ : ٣٨٤ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٧٩ ، وفى الفتن : ٧٢ ، والنسائى فى البيعة : ٣٥ ، ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٥ ، وفى ٣ : ٢٤ ، ٩٢ ، ٣٢١ ، ٣٩٩ ، وفى ٤ : ٢٤٣ ، ٢٦٧ .

قال : ( كنا قعوداً على باب النبى ﷺ ، خرج علينا ، فقال : اسمعوا . قلنا : قد سمعنا . قال : اسمعوا . قلنا : قد سمعنا . قال : إنه سيكون بعدى أمراء فلا تصدقوهم بكذبهم ، ولا تعينوهم على ظلمهم ، فإنه من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم لم يرد على الحوض ) .

وروى أحمد : ( يكون أمراء تغشاهم غواش - أو حواش - من الناس ، يكذبون ويظلمون . فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ولست منه ، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه ) .

وروى أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه : ( فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فأنا منه برىء ، وهو منى برىء ) .

وروى ابن ماجه بسند رواته ثقات : ( إن ناساً من أمتى سيتفقهون فى الدين ، يقرءون القرآن ، يقولون : نأتى الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا ، ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك ، كذلك لا يجتنى من قربهم إلا )[1] . قال ابن الصباح : كأنه يعنى الخطايا .

روى الطبرانى بسند رواته ثقات ، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ : ( أن رسول الله ﷺ دعا لأهله ، فذكر عليا وفاطمة وغيرهما ، فقلت : يا رسول الله أنا من أهل البيت ؟ قال : نعم ، ما لم تقم على باب سدة - أى سلطان أو نحوه - أو تأتى أميراً تسأله ) .

وروى ابن ماجه فى صحيحهما : ( أن علقمة بن وقاص مرّ برجل له شرف من أهل المدينة ، فقال له : إن لك حرمة حقاً ، وإنى رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء فتكلم عندهم ، وإنى سمعت بلال ابن الحارث صاحب رسول الله ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ : إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة ، انظر ويحك ماذا تقول وما تكلم به ؟ فرب كلام قد منعنيه ما سمعت من بلال بن الحارث )[2].

وروى الترمذى والحاكم المرفوع منه وصححاه ، ورواه الأصبهانى إلا أنه قال : عن بلال ابن الحارث أنه قال لبنيه : ( إذا حضرتم عند ذى سلطان فأحسنوا المحضر ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : فذكره ) .

وابن الأثير فى نهايته : الساعى مثلث : أى مهلك بسعايته نفسه ، والمسعى به وإليه .

## أنواع أخرى من الظلم

وهناك أحاديث وآثار أخرى فيها الوعيد الشديد للظالمين ، كحديث : ( إن رجالاً يتخوضون فى

---

( ١ ) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ .

( ٢ ) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ ، والترمذى فى الزهد : ١٢ ، وابن ماجه فى الفتن : ١٢ ، والإمام مالك فى الكلام : ٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٤ ، وفى ٣ : ٤٦٩ .

مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة )[1] . وحديث : ( من ظلم شبراً من أرض طوقه الله من سبع أرضين يوم القيامة )[2] .

وفى بعض الكتب يقول الله تعالى : ( اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيرى )[3] .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقول آخر :

إذا ما المظلوم استوطأ الأرض مركبا ولج غلوا فى قبح اكتسابه
فكله إلى حدف الزمان فإنه سيبدى له ما لم يكن فى حسابه

وقال بعض السلف : لا تظلمن الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه إن الحبارى لتموت هولا فى وكرها من ظلم الظالم .

وقيل مكتوب فى التوراة : ( ينادى مناد من وراء الجسر - يعنى الصراط - يا معشر الجبابرة الطغاة ، ويا معشر المترفين الأشقياء : إن الله يحلف بعزته أن لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظلم ظالم ) .

وروى عن جابر رضى الله عنه قال : ( لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال : ( ألا تجدونى بأعجب ما رأيتم فى أرض الحبشة ؟ فقال قتيبة ، وكان منهم : بلى يا رسول الله ، بينما نحن يوماً جلوس إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم ، تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت المرأة على ركبتيها ، وانكسرت القلة ، فلما قامت التفتت إليه ثم قالت : سوف تعلم يا غدار إذا وضع الله الكرسى ، فجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون ، سوف تعلم ما أمرى وأمرك عنده غدا ، قال : فقال : رسول الله ﷺ : أكيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم ؟ ) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الخمس : ٧ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٣٦٤ ، ٣٨٧ ، ٤١٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٣ ، وفى بدء الخلق : ٢ ، ومسلم فى المساقاة : ١٣٩ ، ١٤٢ ، والترمذى فى الديات ٢١٠ ، والإمام أحمد فى ١ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، وفى ٢ : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٣٢ ، وفى ٤ : ١٤ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ، وفى ٥ : ٣٤١ ، ٣٤٤ ، وفى ٦ : ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى : ٢٤ ، ومسلم فى الجهاد : ١٠٦ ، والإمام مالك فى السفر : ٨٥ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٨٨ ، وفى ٢ : ٣١٧ ، ٤٩٢ .

## عـود على بدء

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

هذا خطاب من خالق الخلق إلى حبيبه ومصطفاه الذى أرسله للناس بشيرا ونذيراً ، ففي البشارة وعد ، وفى النذارة وعيد : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾[١] .

وكما قال ﷺ : ( مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال لهم : لقد رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم )[٢] .

**﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ :**

أى فالذين آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ، لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم وثواب عند ربهم على ما قدموا من حسناتهم ، ولهم رزق كريم فى الجنة ، يفوق وصف الواصفين ، ومقال المادحين ، كما قال تعالى : ﴿ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾[٣] . وفى الحديث : ( فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر )[٤] .

**﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾ :**

أى:والذين اجتهدوا فى رد دعوة الدين والتكذيب بها ، وثبطوا الناس عن متابعة النبى ﷺ ، ظناً منهم أنهم يعجزوننا ، وأنهم لا يبعثون ، فأولئك هم المقيمون فى النار ، المصاحبون لها ، لا يخرجون منها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾[٥] .

---

( ١ ) الآية ٤٦ من سورة سبأ .

( ٢ ) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٦ ، وفى الاعتصام : ٢ ، ومسلم فى الفضائل : ١٦ .

( ٣ ) الآية ٧١ من سورة الزخرف .

( ٤ ) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٣٥ ، وفى بدء الخلق : ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٢ : ١ ، ومسلم فى الإيمان : ٣١٢ ، وفى الجنة : ٢ ـ ٥ ، والترمذى فى الجنة : ١٥ ، وفى تفسير سورة ٣٢ : ٢ ، ٥٦ : ١ ، وابن ماجه فى الزهد : ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق : ٩٨ ، ١٠٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، وفى ٥ : ٣٣٤ .

( ٥ ) الآية ٨٨ من سورة النحل .

## قلوب وقلوب

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

### المفردات

**الرسول** : من جاء بشرع جديد ، والنبى يشمل هذا ويشمل من جاء لتقرير شرع سابق،كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام .

**فينسخ** : أى: يزيل ويبطل .

**يحكم** : أى: يجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال .

**فتنة** : أى: ابتلاء واختباراً .

**مرض** : أى: شك ونفاق .

**القاسية قلوبهم** : هم الكفار المجاهرون بالكفر .

**شقاق بعيد** : أى: عداوة شديدة .

**فتخبت** : أى: تذل وتخضع .

**مرية** : أى: شك .

**بغتة** : أى: فجأة .
**الساعة** : الموت .
**يوم عقيم** : أى:منفرد عن سائر الأيام لا مثيل له فى شدته ، والمراد به الحرب الضروس .
**الملك** : أى: التصرف والسلطان .
**يحكم بينهم** : أى يقضى بين فريقى الكافرين والمؤمنين .
**مهين** : أى:مذل جزاء استكبارهم عن الحق .

## المناسبة

بعد ما ذكر الله تعالى فى آياته السابقة أحوال الأمم التى كذبت الأنبياء ، وأسباب هلاكها ، أراد جلت قدرته أن يسلى حبيبه ومصطفاه ، ويزيد فؤاده تثبيتا ، فقال له :

لست بدعا من الأنبياء ، فلا تذهب نفسك على المعاندين حسرات ، وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، ثم فصل الله تعالى أحوال قلوب العباد فى الآيات التى ستأتى بعد .

يخاطب الله تعالى حبيبه ومصطفاه فيقول :

**﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾** :

وفى هذه الآية الكريمة إخبار من الله جل شأنه عن الأنبياء والرسل السابقين .

وقبل أن نوضح معناها نقعّد تلك القواعد الأساسية بما تيسر من التقدير ، وتقدر من التيسير فنقول : إن الله تعالى حفظ القرآن ، وتعهد بذلك الحفظ ، قال سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[١] .

كما أنه من المعتقد أن الأنبياء معصومون ، لا يستطيع أن يتسرب الشيطان إلى نفوسهم ، أو أن يلج عليهم قلوبهم .

قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[٢] .

كما يجب الاعتقاد بأن الوحى معصوم وبعيد كل البعد عن أفعال الشياطين ، قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون ﴾[٣] .

وذلك بعد قوله جل شأنه : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾[٤] .

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٢) الآيات ٤٤-٤٧ من سورة الحاقة .
(٣) الآيات ٢١٠ - ٢١٢ من سورة الشعراء .
(٤) الآيات ١٩٢ - ١٩٥ من سورة الشعراء .

وقال تبارك اسمه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾(١) .

قال القاضي عياض ، في كتاب الشفاء : ( لقد أجمعت الأمة على أن النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصدا ، ولا عمدا ، ولا سهوا ، ولا غلطا ) .

ومن ثم ، فالنبي معصوم ، والوحي معصوم ، والقرآن معصوم ، وهذه الآية: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي . . .** ﴾ تقص علينا حال الأنبياء السابقين ، فأي داع يدعو إلى أن نحمل الآية أكثر مما أخبرت عنه ، ومهما يكن من أمر ، فسواء فسرنا التمني بمعنى القراءة ، أو فسرناه بالمعنى الحقيقي له ، وهو من الأمنية ، فإن الشياطين لا تستطيع أن تقتحم حصون الوحي ، فإنها منيعة ومشيدة لا يستطيع أحد من شياطين الإنس أو الجن أن يدخل منها شيئاً ، إنما الشياطين تلقى الوساوس والأوهام في محل أمنية الأنبياء .

وهذا المحل هو قلوب أقوامهم وأتباعهم وأممهم ، فلا دخل للشيطان مع الوحي البتة ، سواء قرأ النبي ما أنزل إليه من ربه ، أو تمنى إيمان قومه ، فلا مجال للشيطان في القراءة ، أو ما يتمناه النبي ، إنما الشيطان يلقى وساوسه في قلوب العباد ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، أي يزيل من قلوب المؤمنين الوساوس والأوهام ، ويبقيها على الإضاءة والإشراق بآياته البينات ، فلا داعي أبداً أن تزل أقدام في تفسير هذه الآية ، أو تتعثر أقلام ، أو ينفلت فيها خيال الكاتبين .

إن الوحي محاط بالعناية الإلهية ، والرعاية الربانية ، وما ذكره بعضهم عن الغرانيق أي الأصنام فهو محض كذب واختلاق ، وإنها لفرية ، ما فيها مرية .

إن الله تعالى يقول عن الشيطان : ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾(٢) .

ويقول : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾(٣) .

فإذا كان الشيطان لا سلطان له على المؤمنين ، فكيف بربك يكون له سلطان على وحي رب العالمين ، فيدخل فيه ما ليس منه .

وكيف يكون له سلطان على الأنبياء وهم الصفوة المختارة من عباد الله .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، نبرىء منه الأنبياء ، والوحي المعصوم الكريم .

ثم بين الله تعالى الحكمة من إلقاء الشيطان الوساوس في قلوب العباد ، فقال :

﴿ **ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض** ﴾ .

أي: من شبهة أو نفاق كذلك ، والقاسية قلوبهم التي لا تعرف الرحمة إليها سبيلا .

---

(١) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن .
(٢) الآية ٧٦ من سورة النساء .
(٣) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة النحل .

قال تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾(١).

سبحانك ربى . .

يا عليما بخفايا النفوس ، يا خبيرا بذات الصدور :

الله يدرى كل ما تضمر يعلم وما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

فهذه قلوب فيها مرض ، وتلك قلوب فيها قسوة .

وسبحان من يعلم السرائر : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ﴾ :

أى:وإن هذين الصنفين من الضلال لفى عداوة لأمر الله ، وبعد عن الرشاد والسداد ، بما لا مطمع لهما معه فى النجاة والفوز برضا الله . والظلم مرتعه وخيم وعاقبته شر وبيل .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( خمسة غضب الله عليهم ، إن شاء أمضى غضبه عليهم فى الدنيا ، وإلا ثوى بهم فى الآخرة إلى النار : أمير قوم يأخذ حقه من رعيته ، ولا ينصفهم من نفسه ، ولا يدفع الظلم عنهم ، وزعيم قوم يطيعونه ، ولا يسوى بين القوى والضعيف ، ويتكلم بالهوى ، ورجل لا يأمر أهله وولده بطاعة الله ، ولا يعلمهم أمر دينهم ، ورجل استأجر أجيرا فاستعمله ولم يوفه أجره ، ورجل ظلم امرأة فى صداقها ) .

سبحانك من قائل عليم حكيم : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾(٢) .

عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه قال : ( إن الله تعالى لما خلق الخلق ، واستووا على أقدامهم ، رفعوا رءوسهم إلى الله ، وقالوا : يارب مع من أنت ؟

قال : مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ) .

وعن وهب بن منبه رضى الله عنه : ( بنى جبار من الجبابرة قصرا وشيده ، فجاءت عجوز فقيرة فبنت إلى جانبه شيئا تأوى إليه ، فركب الجبار يوما ، وطاف حول القصر ، فرأى بناءها ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لامرأة فقيرة تأوى إليه ، فأمر بهدمه . فهدم ، فجاءت العجوز فرأته مهدوما ، فقالت : من هدمه ؟ فقيل لها : الملك رآه فهدمه . فرفعت العجوز رأسها إلى السماء ، وقالت : يا رب أنا لم أكن حاضرة فأنت أين كنت ؟ قال : فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه فقلبه ) .

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٨ من سورة غافر .

وقيل : لما حبس بعض البرامكة ولده قال : ( يا أبت بعد العز صرنا فى القيد والحبس . فقال : يا بنى دعوة المظلوم سرت بليل غفلنا عنها ، ولم يغفل الله عز وجل عنها ) .

وكان يزيد بن حكيم يقول : ( ما هبت أحدا قط هيبتى رجلاً ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله ، يقول لى : حسبى الله ، الله بينى وبينك ) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : ( يجيء الظالم يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم فلقيه المظلوم ، وعرف ما ظلمه فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات ، فإن لم يجدوا لهم حسنات حملوا عليهم من سيئاتهم مثل ما ظلموا ، حتى يردوا الدرك الأسفل من النار ) .

وعن عبد الله بن أنيس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهما . فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب : أنا الملك الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة فما فوقها ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ قلنا : يا رسول الله كيف وإنما نأتى حفاة عراة غرلا بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات جزاء وفاقاً ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾[1] .

وعنه ﷺ أنه قال : ( من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة ) .

ومما ذكر ( أن كسرى اتخذ مؤدباً لولده يعلمه ويؤدبه ، فلما بلغ الولد الغاية فى الفضل والأدب ، استحضره المؤدب يوماً وضربه ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب ، فحقد الولد على المعلم إلى أن كبر ومات أبوه فتولى الملك بعده ، فاستحضر المعلم وقال له : ما حملك على أن ضربتنى فى يوم كذا ضربا وجيعاً من غير جرم ولا سبب ؟ فقال له المعلم : اعلم أيها الملك أنك لما بلغت الغاية فى الفضل والأدب ، علمت أنك تنال الملك بعد أبيك ، فأردت أن أذيقك طعم الضرب وألم الظلم ، حتى لا تظلم أحداً بعد . فقال له : جزاك الله خيراً ثم أمر له بجائزة وصرفه ) .

فاتق الظلم يا أخى ، وأعلم أن البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

واحذر من المظلوم سهماً صائباً — واعلم بأن دعاءه لا يحجب
وإذا رميت من الزمان بشدة — وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن — يدعوه من حبل الوريد وأقرب

جاء : ( إن الله تعالى أوحى إلى داود صلى الله على نبينا وعليه : يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم ، وكن للأرملة كالزوج الشفيق ، واعلم أنك كما تزرع كذا تحصد ) .

أى: كما تفعل يفعل معك ، إذ لابد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم ، وامرأة أرملة .

(١) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

**قوله تعالى : ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ .**

هذا عطف على قوله تعالى : **﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ﴾ .**

أى:ولكى يعلم الذين أوتوا العلم وهم أهل العلم بالله تعالى الذين شهدوا لله بالوحدانية : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾[٢] .

ليعلم هؤلاء أن الله تعالى أنزل إليك الحق ، وأن نسخ وساوس الشيطان وإحكام الآيات فى قلوب المؤمنين حق ثابت لا مراء فيه ، إنهم وهم يعلمون ذلك يصدقون به تصديقاً جازماً لا مرية فيه .

**﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾** أى:تخشع وتذل لعظمة الله وكبريائه .

ثم بين سبحانه مصير هؤلاء ومآلهم فقال : **﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾** لقد آمنوا وأصبحوا من أهل الهداية إلى صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور﴾ قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[٣] .

**قوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ .**

أما حال الكافرين فإنهم لا يزالون فى شك مما أنزل إليك من ربك ، فإن قلوبهم مليئة بالريب والشك والظن السيىء ، وسيظلون على هذا حتى يفاجئهم الموت وهو القيامة الصغرى ، فإن من مات فقد قامت قيامته ، والموت يأتى بغتة ، ويأتيهم على حين غفلة ، أو يأتيهم الله بعذاب يوم عقيم ، مثل يوم بدر الذى استأصل الله فيه شأفتهم ، وقتل صناديدهم ، وكانوا إذا قاتلوا فقتلوا يسمون يوم هزيمتهم يوماً عظيماً ، أى انفرد بعذابه وشدته ، أو سمى عقيماً لأنه لا خير فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾[٤] أى:التى لا تحمل خيراً من مطر .

ولقد هزموا يوم بدر هزيمة منكرة:﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾[٥] .

**قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ .**

---

(١) الآية ١٨ من سورةآل عمران .
(٢) الآية ٦ من سورة سبأ .
(٣) الآية ١٧ من سورة محمد .
(٤) الآية ٤١ من سورة الذاريات .
(٥) الآيات ٤٤ـ ٤٦ من سورة القمر .

إن هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم غياً وشكاً ، إن لم يأتيهم عذاب الله فى الدنيا فسوف يأتيهم فى يوم الملك فيه لله يحكم بينهم ﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب * فادعوآ الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب * وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾[1]

الملك والتدبير والتصرف للملكِ الحكم العدل المقسط ، وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، حيث الرضوان الأكبر ، والنعيم المقيم ، لقد أعد الله لهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ :

جزاء كفرهم وتكذيبهم ، ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدق المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾[2] .

وسبحان الحكم العدل الذى يقول وقوله الحق:﴿ إن جهنم كانت مرصاداً * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقاباً * لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلا حميماً وغساقاً * جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذابا * وكل شيء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم ﴾ .

هذا وعد من الله لعباده المهاجرين الصادقين:﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[4] .

وقال تعالى فى حقهم : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[5]

---

(١) الآيات ١٣ - ٢٠ من سورة غافر .
(٢) الآيات ٣٥ - ٣٩ من سورة الصافات .
(٣) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبأ .
(٤) الآية ٨ من سورة الحشر .
(٥) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة النحل .

هؤلاء الصابرون الصادقون الذين هاجروا فى الله من بعد ما فتنوا ، من قتل منهم أو مات ، فإن الله وعدهم بالرزق الحسن ، وهل هناك من رزق حسن أفضل من الجنة ونعيمها ، وإن الله لهو خير الرازقين .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ : نعم وهل هناك من مدخل يرضونه أعظم مما قال الله فيه:﴿ إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] .

وسبحان العليم الحليم الذى أحاط علمه بكل شىء ، وعم حلمه كل شىء ﴿ إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾[2] .

رضاك خير من الدنيا وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى خير إلىّ من الدنيا وما فيها

قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ﴾ .

أى:ذلك الرزق الحسن ، والمدخل الكريم ، لمن قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا ، ولهم أيضاً النصر فى الدنيا على أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ﴾ :

أى:وإن من جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظلماً من المشركين فقاتلهم كما قاتلوه ، ثم بغى عليه إلى الهجرة ، ومفارقة الوطن ، لينصرنه الله الذى لا يغالب ، ولينتقمن له من أعدائه ، ولينكلن بهم ، ويمكننه منهم ، ويجعل كلمته العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

والخلاصة : إنه تعالى كما يدخلهم مدخلاً كريماً ، يعدهم بالنصر على أعدائهم إذا هم قاتلوهم وبغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم .

﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ :

أى:وإن الله الذى أحاطت قدرته بكل شىء ليعفو عن المؤمنين ، فيغفر لهم ما أمعنوا فيه من الانتقام ، وما أعرضوا عنه مما ندبه من العفو ، بمثل قوله:﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .
(٢) الآيات ٥١ - ٥٧ من سورة الدخان .

الأمور ﴾[١] ، وقوله: ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾[٢] وقوله : ﴿ وأن تعفو أقرب للتقوى ﴾[٣] .

وهم بفعلهم هذا تركوا ما كان أجدر بهم ، وأحرى بمثلهم .

والخلاصة : كأنه سبحانه قال : عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها لهم ، لأنى أذنت بها .

## من دلائل التوحيد والقدرة الإلهية

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

(١) الآية ٤٣ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٣) الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .

لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

**المفردات :**

**يولج الليل فى النهار** : يدخل الليل فى النهار بزيادة وقته على حساب النهار .

**مخضرّة** : ذات خضرة .

**سخرلكم ما فى الأرض** : ذلل لكم ما فى الأرض تنتفعون به وتذللونه .

**المنسك** : الشريعة والمنهاج .

**ناسكوه** : أى: عاملون به والهدى : الطريق الموصل إلى الحق .

**مستقيم** : أى: سوى لا عوجٍ فيه .

**سلطاناً** : أى: حجة وبرهاناً .

**نصير** : أى: ناصر ومعين .

**يسطون** : أى: يبطشون بهم من فرط الغيظ .

**ضرب** : أى: جعل .

**والمَثل والمِثل** : الشبه .

**لا يستنقذوه** : أى: لا يقدروا على استنقاذه .

**ما قدروا الله** : أى: ما عظموه .

**عزيز** : أى: غالب على جميع الأشياء .

**يصطفى** : أى: يختار .

**فى الله** : أى:فى سبيله والجهاد كما قال الراغب : هو استفراغ الوسع فى مجاهدة العدو وهو ثلاثة أضرب :

( أ ) مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

( ب ) مجاهدة الشيطان .

(جـ) مجاهدة النفس والهوى . وهذه أعظمها .

فقد أخرج البيهقى وغيره عن جابر قال : ( قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة فقال : قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه ) .

والمراد بالجهاد هنا ما يشمل الأنواع الثلاثة ، كما يؤيده ما روى عن الحسن أنه قرأ الآية وقال : ( إن الرجل ليجاهد فى الله تعالى وما ضرب بسيف ) .

**اجتباكم** : أى: اختاركم .

**حرج** : أى: ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم .

**واعتصموا بالله** : أى: استعينوا به وتوكلوا عليه .

**مولاكم** : أى: ناصركم .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أن الملك له وحده يتصرف فيه بمشيئته وحكمته وعدله وعلمه وقدرته وإرادته ، وأنه سبحانه سيجزىء المسىء بإساءته ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأنه سينصر من بغى عليه من المعتدين الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم ﴿ **ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه لينصرنه الله** ﴾ .

أقام الأدلة بعد ذلك على كمال قدرته ووحدانيته:﴿ **ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ أى:ذلك المذكور حق لامرية فيه ، بسبب أن الله بيده مقاليد السموات والأرض ، والآيات كلها شاهدة بذلك .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

لقد تحدى الله الجبابرة المعاندين المكابرين الجاحدين بآيتين من آياته : وهما الليل والنهار .

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾[1] .

هل يستطيع أحد على وجه الأرض أن يأتى بنهار أو ليل ؟

كما تحداهم بالموت:﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[2] هل يستطيع

---

( ١ ) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة القصص .
( ٢ ) الآية ١٦٨ من سورة آل عمران .

الجبابرة المفترون والظلمة الجاحدون أن يدفعوا الموت عن أنفسهم إذا حل بساحتهم .

سبحانك ربى ، الوجود ملكك ، والقضاء حكمتك ، وكل الكائنات طوع إرادتك ، عزت حكمتك ، وجلت قدرتك ، ووسعت رحمتك ، يا من علمت وقدرت وعفوت وحلمت ، أحمدك على حكمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(١) .

أنت الذى يقرع الليل فى النهار ، أى:تدخل جزءاً منه فى النهار ، كما تدخل جزءاً من النهار فى الليل ، لا يستطيع ذلك غيرك ، فيطول كل منهما أو يقصر ، كما نرى ذلك فى اختلاف الفصول من صيف وشتاء .

أنت القادر الذى لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، كل الكائنات تسير وفق إرادتك وعلمك وقدرتك:﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون * وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾(٢).

سبحانك يا من تقول للشىء كن فيكون ، تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، سميع بأقوال عباده ليلاً ونهاراً ، بصيرٌ بأحوالهم:﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾(٣) . أنعمت على عبادك لأنك رب العالمين ، ولأنك الرحمن الرحيم .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذه الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل والأصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما ... وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاص هذا الماء فى القاع هل لكم ... سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت ... أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ .

ذلك المذكور من آيات الوحدانية والقدرة ، حق لا مراء فيه ، بسبب أن الخالق هو الله الحق المريد العليم الحكيم القادر ، وأن ما سواه باطل وزائل لا قرار له ، وأن هذا الإله هو العلى على كل شىء ، رفيع الدرجات ذو العرش الكبير ، أى:العظيم الذى تنزه عن الشريك والولد والزوجة ، كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

(١) الآية ٧٣ من سورة القصص . (٢) الآيات ٣٦ - ٤٠ من سورة يس . (٣) الآية ١٩ من سورة غافر .

والشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت . . ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ﴾ :

وتلك آية أخرى بعد آية ولوج الليل فى النهار وولوج النهار فى الليل ، إن تلك الآية هى إنزال الماء من السماء ، وإنبات النبات فى الأرض ، فتصبح مخضرة يكسوها بساط سندسى رائع الجمال ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[١] .

ألم تبصر أيها الإنسان هذه الآية التى لا يقوى عليها إلا الله وحده : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[٢] .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ :

أى عليم بدقائق الأشياء وحقائقها:﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[٣] ، ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾[٤] ، ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٥] .

إن الذى أنبت النبات ، وأنزل الماء من السماء بقدر معلوم ، فأنبت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، إن هذا الإله القدير له ما فى السموات وما فى الأرض مِلكاً ومُلكاً فهو الملك المالك ﴿ وإن الله لهو الغنى الحميد ﴾[٦] .

غنى عمن سواه ، مفتقر إليه جميع من عاداه .

---

(١) الآية ٩٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة الواقعة .
(٣) الآية ٣ من سورة سبأ .
(٤) الآية ١٦ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ٦٤ من سورة الحج .

**﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾**

إنه المحمود لذاته ، المستحق الثناء والمجد ، لأنه أهل لكل ذلك .

قوله تعالى : **﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾** :

وهكذا تتوالى نعم الله على عباده ، حتى يعلموا أن غير الله لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ألم تر أن الله سخر لكم كل ما فى الأرض من يابس وماء وهواء ، وضياء ونبات وحيوان وجماد ، قال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه * إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾[٢]

وما من يوم ينشق فجره إلا ويرشد الله العلماء إلى اكتشاف الآيات الكونية من كهرباء وجاذبية ومغناطيسية ، وما يسمى بالتكنولوجيا ، إلى غير ذلك مما قال الله فيه : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٣] .

هذا ونرى الآيات الكونية تصافح الآيات التنزيلية وتعانق كل منهما الأخرى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[٤] .

إن نور الآيات الكونية ، ونور الآيات التنزيلية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، وما بكم من نعمة فمن الله .

ومن نعمه تعالى على عباده أنه سخر لهم الفلك تجرى فى البحر بأمره ، وسبحان القائل: ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون * أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون * إلٰهكم إله واحد فالذين

---

(١) الآية ١٣ من سورة الجاثية .
(٢) الآية ٢٠ من سورة لقمان .
(٣) الآية ١٨ من سورة النحل .
(٤) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾[١] .

ومن لطف الله تعالى بعباده أن يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فعالم السماء بما فيه من كواكب ونجوم وغير ذلك من المذنبات والنيازك ، الله تعالى يمسكه بقدرته ، ويصرف هذا العالم بحكمته ، حتى لا يصطدم نجم بنجم فيدمر هذا الكوكب الأرضى ، وقد أحاط الله بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، وسيظل هذا العالم متماسكاً يجرى بنظام ودقة إلى أن يأذن الله تعالى بقيام الساعة ، وعندئذ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، قال تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجرت * وإذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾[٢] .

وقال جل شأنه : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة * وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهى يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٣] .

إن ما فى السماء من نجوم وكواكب ، لم يصل العلم بكل أجهزته الحديثة إلى اكتشاف جزء كبير منه ، بل كل ما كتشفه جزء قليل ، قدره العلماء بمائة ألف مليون مجموعة شمسية ، تشتمل كل مجموعة على مائة ألف مليون شمس ، أقلها شمسنا هذه التى تضىء لنا ، سبحانك ربى .

يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى كل القلوب تقر له وتشهد

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ :

فقد سخر لهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأجرى لهم الفلك فى البحر بأمره ، وأمسك السماء حتى لا تقع على الأرض إلا بإذنه ، فعل كل هذا برأفته ورحمته بعباده ، دون ما احتياج إليهم: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٤].

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾ :

ومن نعمه تعالى على عباده نعمة الإحياء ، وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾[٥].

وكقوله جل شأنه : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[٦] .

---

(١) الآيات ١٤ - ٢٣ من سورة النحل .
(٢) الآيات ١ - ٥ من سورة الإنفطار .
(٣) الآيات ١٣ - ١٨ من سورة الحاقة .
(٤) الآيات ٥٦ - ٥٨ من سورة الذاريات .
(٥) الآية ٢٨ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٢٦ من سورة الجاثية .

وسبحان القائل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون * يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] .

إن نعمة الإحياء من أجلّ النعم ، إن الله تعالى أحيانا فأثبت لنا أنه على كل شىء قدير ، ويميتنا ويثبت لنا أنه الجبار ذو القوة المتين ، ثم يحيينا للحساب فيثبت لنا أنه أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين .

﴿ إن الإنسان لكفورٌ ﴾ :

كثير الجحود : ﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك * فى أى صورة ما شاء ركبك * كلا بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾[٢] .

فواعجباً كيف تعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ :

أى:إنا أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية ، شريعة خاصة يعملون بها ، يسيرون على نهجها ، لا يتخطونها إلى غيرها ، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى منسكها ما فى التوراة ، والأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ منسكها ما فى الإنجيل ، وأمة محمد ﷺ وهم من وجد حين مبعثه إلى يوم القيامة منسكهم ما فى القرآن ، لأن لكل زمان ما يليق به من الشرائع التى تناسب من فيه فى تلك الحقبة .

﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ :

أى:فلا ينبغى لهم أن ينازعوك فى أمر هذا الدين ، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك ، وعدم منازعتهم إياك فى أمر هذه الشريعة ، زعما منهم أن شريعتهم هى ما عين لآبائهم من التوارة والإنجيل ، فذلك خطأ منهم ، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخه بالقرآن .

والخلاصة : أثبت أيها الرسول على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخرجوك منه ليزيلوك عنه ، والمراد

(١) الآيات ١٧ ـ ٢١ من سورة الروم .
(٢) الآيات ٦ ـ ١٢ من سورة الإنفطار .

بذلك تهييج حميته عليه السلام ، وإلهاب غضبه لله ولدينه ، ومثل هذا كثير فى كتاب الله ، وكأنه قد قيل له : تأس بالأنبياء قبلك فى مباركة القوم الظالمين ، والإمساك عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ **وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم** ﴾ :

أى وادع هؤلاء المنازعين إلى توحيد الله وعبادته ، إنك لعلى طريق يهدى إلى الحق ، وشريعة توصل إلى السعادة .

ونحو الآية قوله : ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ﴾[1] .

﴿ **وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون** ﴾ :

أى وإن جادلك هؤلاء المشركون فى نسكك بعد أن ظهر الحق ، ولزمتهم الحجة ، فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد : الله عليم بما تعملون وبما أعمل ، ومجاز كلا بما هو له أهل .

ونحو الآية قوله : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾[2] .

وقوله : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم ﴾[3] .

وبعد أن أمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم ، وكان ذلك شديد الوقع على النفس ، سلّاه بأن الله سيجازيهم لا محالة يوم القيامة على ما يقولون ويفعلون ، فقال :

﴿ **الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ :

أى الله يقضى بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين ، فيبين المحق من المبطل .

ونحو الآية قوله : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾[4] الآية .

وقصارى ما سلف ـ ادع إلى شريعتك ولا تخص بالدعاء أمة دون أمة ، فكلهم أمتك ، وإنك لعلى طريق واضحة الدلالة ، تصل بمن اتبعها إلى سبيل السعادة ، فإن عدلوا عن النظر فى الأدلة إلى المراء والتمسك بالعبادات ، وبما وجدوا عليه الآباء والأجداد ، فدعهم فى غيهم يعمهون فقد أنذرت وما عليك إلا البلاغ ، وقل لهم مهدداً منذراً : الله يحكم بيننا وبينكم يوم القيامة ، ويتبين المحق منا من المبطل ، ويجازى كلا بما يستحق .

قوله تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض** ﴾ :

---

( ١ ) الآية ٨٧ من سورة القصص .

( ٢ ) الآية ٤١ من سورة يونس .

( ٣ ) الآية ٨ من سورة الأحقاف .

( ٤ ) الآية ١٥ من سورة الشورى .

أي: قد علمت أيها الرسول أن علم الله محيط بما فى السموات وما فى الأرض ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة على علم منه بما عملوه فى الدنيا ، فمجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

ثم أكد علمه بقوله :

**﴿ إن ذلك فى كتاب ﴾ :**

أي: إن علمه بذلك فى اللوح المحفوظ ، الذى كتب فيه ربنا قبل أن يخلق ما هو كائن إلى يوم القيامة ، ويرى أبو مسلم الأصفهانى أن المراد بالكتاب فى مثل هذا الحفظ والضبط الشديد ، بحيث لا يغيب عنه مثقال ذرة .

ثم زاده تأكيدا بقوله :

**﴿ إن ذلك على الله يسيرٌ ﴾ :**

أي: إن علمه تعالى بما فى السماء والأرض وكتبه فى اللوح المحفوظ ، والفصل بين عباده يوم القيامة ، يسير عليه إذ لا يخفى عليه شىء ، ولا يتعسر عليه مقدور .

ثم حكى سبحانه بعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على سخافة عقولهم فقال :

**﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير ﴾ :**

فاعجب معى لقوم عطلوا عقولهم ، وسدوا منافذ المعرفة ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[1] .

لقد عبدوا من دون الله ما لم ينزل الله به برهاناً ولا حجة ، تجيز لهم تلك العبادة ، وليس لهم شىء من العلم ، يبيح لهم عبادة غير الله ، فلا دليل يبيح لهم ذلك لا من العقل ولا من النقل ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[2] .

إنه التقليد الأعمى إنه سفه العقول ، إنها الحماقة التى أعيت من يداويها ، عبدوا من دون الله ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً وليس لهم بذلك برهان من وحى أو عقل .

﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾[3] .

﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون * ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾[4] .

---

(١) الآية ٥ من سورة فصلت .

(٢) الآيات ٢٢ - ٢٥ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيتان ٧٤ و ٧٥ من سورة القصص .

أبعد ظهور الأدلة ووضوح البراهين فى الآيات الكونية والآفاقية والأنفسية ، يعبدون غير الله ﴿ ذلك أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير ﴾[١] .

**﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير * ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير * له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد * ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾** .

أو لم يكفهم كل هذه البراهين الساطعة والحجج القاطعة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون .

• وقوله تعالى : **﴿ وما للظالمين من نصير ﴾** :

أى:لا معين يدفع عنهم العذاب ، فالعذاب ليس له دافع من الله : ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[٢] ، ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾[٣] .

واسمع إلى قوله تعالى :

﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم * وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾[٤] .

فاحذر الظلم فإنه ندم يوم القيامة ، وعاقبته وخيمة ، وهو ظلمات فى ساحة العرض على الله تعالى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ( يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينادى به على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان من كان له عليه حق فليأت إلى حقه قال : فتفرح المرأة أن يكون لها حق على ابنها أو أخيها أو زوجها ثم قرأ:﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ قال فيغفر الله من حقه ما شاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً فينصب العبد للناس ثم يقول الله عز وجل لأصحاب الحقوق : ائتوا إلى حقوقكم ؟ قال : فيقول العبد يا رب فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم حقوقهم ؟ فيقول الله لملائكته : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذى حق حقه بقدر طلبته فإن كان عبداً ولياً لله وفضل له مثقال ذرة ضاعفها الله تعالى له حتى يدخله الجنة بها وإن كان عبداً شقياً ولم يفضل له شىء فتقول الملائكة ربنا فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله عز وجل : خذوا من سيئاتهم فأضيفوا إلى سيئاته ثم صكوا به صكا إلى النار ) .

---

(١) الآية ٦١ من سورة الحج .

(٢) آية ٩٧ من سورة الإسراء .

(٣) الآيات ٢٧ ـ ٢٩ من سورة الفرقان .

(٤) الآيتان ٤٥، ٤٦ من سورة الشورى .

وجاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . قيل : يا رسول الله وإن كان يسيراً ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك )[1] .

وروى ( إنه لا أكره إلى العبد يوم القيامة من أن يرى من يعرفه خشية أن يطالبه بمظلمة ظلمه بها فى الدنيا ) .

كما قال ﷺ : ( لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء )[2] .

وجاء أنه ﷺ قال : ( من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طرح فى النار ) .

**قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ .**

من قبائح هؤلاء المشركين الذين جاءوا ظلماً وزوراً ، وافتروا بهتاناً وإثماً مبيناً من قبائحهم وسوء أخلاقهم ، أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله وفيها الدلائل والبينات والحجج القاطعات الباهرات ، على وحدانيته وإفراده بالعبودية ، واعتقاد وحدته ذاتا وصفاتا وأفعالاً ، إذا سمعوا تلك الآيات تعرف المنكر فى وجوههم ، فإن علامات المنكر والإنكار الشديد تبدو انفعالاتها واضحة على وجوههم ، إذ الوجه شرفة النفس .

قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾[3] وقال : ﴿ تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ﴾[4] .

ثم يزدادون سوءاً ، فيخرج الإنكار إلى حيز الاعتداء على الذين يتلون عليهم آيات الله ، إنهم يكادون أن يبطشوا بهم ، ويفتكوا بهم ، لما فى قلوبهم من غيظ وحقد وحنق على الإسلام ، ونبى الإسلام ، وكتاب الإسلام ، قال لهم مولانا جل شأنه : قل أيها التالى لكتاب الله قل لهؤلاء : أفأنبئكم بشر مما أنتم فيه من إنكار ، وتخويف للمؤمنين فى زعمكم ، والاعتداء عليهم : إن النار شر من ذلك الوعيد والتهديد الذى توعدون به عباد الله المؤمنين ، لقد وعدها الله إياكم ، ووعد الله حق ، فإذا دخلتموها فبئس المصير مصيركم : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[5] .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٢١٨ ، والنسائى فى القضاة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٨ ، والدارمى فى البيوع : ٦٢ ، والإمام مالك فى الأقضية : ١١ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٦١ ، والترمذى فى القيامة : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٧٢ ، ٤١١ .

(٣) الآية ٤١ من سورة الرحمن .

(٤) الآية ١٩ من سورة الأحزاب .

(٥) الآية ٥٦ من سورة النساء .

﴿ وبئس المصير ﴾ جهنم كما قال تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾[١] .

**قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ :**

هذا بيان قرآنى حاسم وجازم خاطب الله فيه العباد بلفظ ﴿ يأيها الناس ﴾ والنداء من الله له ما له من شأن خطير ، وهل هناك أخطر من التوحيد ، ثم هل هناك أعجب من الشرك ، لقد جعلوا لله مثلاً من شركائهم وآلهتهم ، والله سبحانه يقول : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٢] .

وكما تحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، تحدى آلهتهم كذلك أياً كان نوعها أو شكلها بشراً كانوا أم حديداً ، أم حجارة ، تحدى كل هؤلاء أن يخلقوا حشرة واهية ، وهانة ضعيفة ، وهى الذبابة ، بل لو اجتمعوا على أن يخلقوا تلك الحشرة ما استطاعوا ، بل إن هناك ما هو أشد من ذلك تحدياً ، لو أن الذباب سلبت تلك المعبودات شيئاً مما تضعونه عليها مثل الطيب أو المادة السكرية أو غير ذلك فإن آلهتكم لا تستطيع أن تستنفذ من الذباب تلك المادة ، أبعد هذا الضعف ضعف يذكر للآلهة الزائفة .

لم تستطع أن تخلق ذباباً ، وعجزت أن تستنقذ من الذباب ما سلبه منها .

**﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾** : المقصود بالطالب الآلهة ، وبالمطلوب الذباب ، والمطلوب أقوى من الطالب ، فصارت الآلهة أضعف من الذباب .

كان لأبى ذر الغفارى أيام الجاهلية صنم يعبده ، فجاءه ذات يوم ليقدم له مراسيم الطاعة فوجد برأسه بللاً ، ووجد ثعلباً قريباً منه فعلم أن الثعلب قد بال على الصنم ، فقال أبو ذر متعجباً :

رب يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب
فلو كان رباً كان ينفع نفسه ... فلا خير فى رب نأته المطالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها ... وآمنت بالله الذى هو غالب

سبحانك ربى :

يا خالق الكون فى عز وتمكين ... وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى ... لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

إن هؤلاء الذين عبدوا من دون الله آلهة أخرى ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ، أى ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوا له ما يجب فى حقه من كمال وعظمة وجلال .

**﴿ إن الله لقوى عزيز ﴾** : قوى لا يغلب عزيز لا يقهر ، فهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة

---

(١) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٧٤ من سورة النحل .

الدائمة: ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[١] .

**قوله تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .**

أى: الله يختار من الملائكة رسلاً يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحى ، ويصطفى من الناس رسلاً يدعون عباده إلى ما يرضيه ، ويبلغونهم ما نزله عليهم من وحيه إرشاداً لهم ، وتشريعاً للأحكام التى فيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

**﴿ إن الله سميع بصير ﴾** : أى: إنه تعالى سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، فيعلم من يستحق أن يختار منهم لهذه الرسالة .

قوله : **﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾** : أى: يعلم ما كان بيد أيدى ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم .

وخلاصة ذلك ـ يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها .

**﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾** : أى: وإليه ترجع الأمور يوم القيامة ، فلا أمر ولا نهى لأحد سواه ، وهو يجازى كلا بما عمل ، إن خيراً ، وإن شراً .

**قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ .**

خطاب من رب العزة إلى الذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وهم أسرع الناس استجابة لخطاب الله ، يأمرهم فيه سبحانه بالمحافظة على الركوع ، ففيه الخضوع للواحد القهار ، كما يأمرهم فيه بالسجود وفيه الإقرار لله بالعظمة ، فلا خضوع إلا له ، ولا خشوع إلا له ، لذا نقول فى الركوع ( سبحان ربى العظيم ) امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾[٢] ونقول فى السجود: ( سبحان ربى الأعلى ) ، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[٣] . نعم هو العظيم فلا عظيم غيره ، وهو الأعلى فلا أعلى سواه .

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به ... وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين

(١) الآيات ٩٣ ـ ٩٥ من سورة مريم .
(٢) الآية ٩٦ من سورة الواقعة .
(٣) الآية الأولى من سورة الأعلى .

واسترزق الله بما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

قوله تعالى : ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ : عبادة من يعتقد أن الله هو المعبود وحده لا شريك له ، ومن يعتقد أن لقاء الله حق ، وأن الجنة حق ، والنار حق ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾(١) .

كان عمر رضى الله عنه يقول : لو نادى منادٍ يوم القيامة كل الناس يدخل الجنة إلا واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد .

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ .

وما أكثر أبواب الخير من محافظة على العقيدة والعبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وصلة وبر وسماحة وكرم وإيثار وحلم وعلم ينتفع به ، وكلمة طيبة : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾(٢) .

فهذا هو الخطاب الكريم أوله إيمان ، وختامه فلاح وسعادة ونجاح .

ثم يأمرهم تعالى بعد ذلك بالجهاد فيقول : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

والجهاد هنا بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع ، سواء أكان جهاداً بالكلمة ، أم كان جهاداً بالسيف فى سبيل الله ، لقتال أعدائه المشركين الجاحدين الصادين عن سبيل الله ، أم كان جهاداً للشيطان لسد منافذ شره ، أم كان جهاداً للنفس بتربيتها على الصبر والطاعة ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾(٣) .

فالله هو الذى اجتباكم واختاركم يا أمة محمد ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله وفضل نبيكم على جميع الخلق .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً

ومن فضل الله عليكم يا أمة محمد أنه ما جعل عليكم فى الدين من حرج ، وقد استجاب لكم عندما سمعتم وأطعتم .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة الأحزاب .
(٣) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾[1] .

لقد استجاب الله لكم ، فوضع عنكم الأغلال والإصر الذى كان على الأمم من قبلكم ، ورفع عنكم الضيق والحرج ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[2] .

فمن لم يستطع أن يصلى قائماً فليصل قاعداً أو على جنبه أو مستلقياً ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾[3] .

وجعل الصلاة اثنين اثنين فى السفر ، وأباح الفطر للمريض والحامل والمرضع فى رمضان ، ومن كان على سفر ، ومن لم يملك نصاب الزكاة فلا زكاة عليه ، ومن ملك النصاب فالمقدار الذى يخرج من المال يسير ، ربع العشر فى النقدين ، والعشر أو نصفه فى الزروع والثمار ، والخمس فى الركاز ، والحج لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلاً ، كما رفع عنكم الخطأ والنسيان وما استكرهتم عليه ، ورفع القلم عن ثلاث : الصبى حتى يحتلم ، والنائم حتى يستيقظ ، والمجنون حتى يفيق .

ففتح باب التوبة أمام المذنبين ، وخير الخطائين التوابون ، فألزموا ملة أبيكم ابراهيم ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[4] وملة إبراهيم توحيد خالص ، فقد قال لقومه . ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾[5] .

ومن تشريف الله لكم يا أمة محمد هذه النعمة الجليلة ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا فضل عظيم .

﴿ **لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ يوم القيامة لأن الأنبياء قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿ ويكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[6] .

قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[7] .

وقال سبحانه : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾[8] .

---

(١) الآيتان ٢٨٥ ، ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ١٢٠ - ١٢٣ من سورة النحل .
(٥) الآية ٧٩ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٤١ من سورة النساء .
(٨) الآية ٨٩ من سورة النحل .

فأقيموا الصلاة أيتها الأمة بأركانها وشروطها وسننها ، وآتوا الزكاة خالصة بها نفوسكم لا رياء فيها ولا سمعة ، واستمسكوا بحبل الله المتين ، واعتصموا بالله هو مولاكم وناصركم .

﴿ **فنعم المولى** ﴾ ونعم النصير المولى هو الله ، الذى يتولى شئوننا ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

﴿ **ونعم النصير** ﴾ لأن النصر منه سبحانه هو الذى يلى أمرنا وينعم علينا بنصره ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .